إبراهيم أوحسين

مسير

تقديم مسعود بوكرة

الكتاب : **مسامير**
المؤلف : إبراهيم أوحساين
التقديم : مسعود بوكرن
الغلاف : د. رضوان بيسداون
الإخراج الفني والتصفيف : مكتب الغزالي ـ تيكوين ـ أگادير
الطبعة : الأولى: 2025
المطبعة : دار العرفان للطباعة والنشر أكادير 0528239696
الإيداع القانوني : 2025MO2291
ردمك : 978-9920-23-504-4
الناشر : المؤلف

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

تأليف
إبراهيم أوحسين

بسم الله الرحمن الرحيم

إهداء

للسيدة الفاضلة المسنّة،

تلك التي صرخت في وجهي قائلة:

"لا ينبغي توظيف معلّمين ليس في بيوتهم

أبناء يعيلونهم !"

وكان درساً في الحياة مشهوداً...

ما بعد الشّكر ...

إن الشّكر باللفظ والعبارة، مجتزأين من هنا ومقبوسين من هنالك، فأمرٌ مبتذل عندي ومتجاوز، لأن الشكر يُعبّر عنه حتى لمن تلتقيه بالرصيف لا تجمعك به معرفة، أما بعضهم، ممن تربطنا بهم وشائج أقوى، ومن كانوا السبب في ميلاد هذا المخلوق الورقي، فشكرهم بالمُتداوَل والمأنوس منقصة واستصغار... ولهؤلاء ما يليق بهم من التقدير والعرفان بالجميل... وأذكر منهم:

د. رشيد بن بيه

الباحث مسعود بوكرن

د. رضوان بيسداون

ذ. سعيد جليل

الخطاط محمد عربد (اليمن)

أتيتُ إلى الحياةِ برغمِ أنفي أَ أَشْكُـرُ أم أُعـاتبُ والـدَيّا ؟
وكنتُ إذا اهتَدَيْتُ إلى طريقٍ لأحْيَا فوقها بشَــراً سَــوِيًّا
أراني تــائهاً فيــها كـمن يَبْـ تَغي في مَدْفنِ الأمواتِ حيًّا
ستذكُرُني المراثي ذاتَ يـو مٍ لِتُنشِدَ: كانَ صاحبُنا غَبِيًّا!

تقديم

تَرَحَّم المؤلف في ختام إحدى "مساميره" الإبراهيمية على الشاعر الذي "خان وطنه" مرفوعَ الرأس بقوله: "رحم الله الماغوط الذي قال: إذا أراد الألماني إقناعك برأيه، استَشهد بـ"غُوتِه"، والإنجليزي بـ"شكسبير"، والفرنسي بـ"موليير"، والروسي بـ"ديستويفسكي" ... أما العربي إذا أراد إقناعك، أتاك بدبابة مدججة بالقنابل المدمّرة !!!".

والماغوط هو الذي تساءل يوما:

"هل يمكن يا حبيبتي أن يقتلني هؤلاء العرب إذا عرفوا في يوم من الأيام أنني لا أحب إلا الشعر والموسيقى، ولا أتأمل إلا القمر والغيوم الهاربة في كل اتجاه؟".

رحم الله الماغوط، فقد أجاد وأفاد، واختصر كلاما كثيرا، وواقعا مريرا هو لسان حالنا اليوم، وهو حال يستوي فيه العالِم والجاهل، والمثقف والعامّي، وقد سبق للقَصِيمي[1] أن وسم أحد مباحث "ظاهرته الصوتية" بـ: "كن صهيلا بلا جواد، لا جوادا بلا صهيل"، وفيه يقول: "إن العرب قد عاقبوا تاريخهم ويعاقبون حياتهم بالكلام، وسحبوا تاريخهم ويسحبون من حياتهم بالكلام أيضا كلَّ خصوبتهما وثرائهما وعبقريتهما، وكل ما فيهما من احتمالات الولادة الجيدة .. إنهم يبالغون جدا في سب وتهديد وتحقير الأعداء والمشاكل والأخطار، وحينئذ يشعرون بالارتواء والشفاء .. إنهم بذلك يستفرغون أنفسهم.."[2]. والعرب المذكورون ليسوا بِدعا من البشر، فهم كغيرهم ممن تجاوزتهم الحضارة على خط التساوي.

والمستبد بالموقف أو الرأي غالبا ما يكون ضَيق الصدر، أخفَش العينين، وغالبا ما يكون دونَه الطوفان، وحوصلته لا تكاد تستطيع هضم ما يُلقى إليه، وإذا واجهَ مواقف يُفهم منها خلاف دعاويه، فهو نسيجُ وحْدِه، ولا له صلة بها من وِرْد ولا صَدَر، ثم هو بذلك يفرمل عجلة المواقف، ويكتم أنفاس السعادة المتصلة بالنفس اتصالا روحيا، ومَن يَجدْ سعادته في إبداء رأيه، لا يكتِم سعادة غيره حين يُبدي هو الآخرُ رأيه، وإلا، فهي الغرائز التي يسري مفعولها سلبا في النفس،

1- الاستشهاد بعبد الله القصيمي، لا يعني أننا مع كل ما ذهب إليه، وبخاصة تطاوله على الذات الإلهية، وعلى الأنبياء والرسالات، وتحامله على جنس العرب، وله في النهاية أن يؤمن بكل هذا أو يكفر به.

2- العرب ظاهرة صوتية، عبد الله القصيمي، مطابع مونمارتر- باريس، ط: 1977، ص: 135.

وحينها لا عبرة بمظهر الأخلاق إلا بمقدار ما يدفع صاحبها إلى تبني قاعدة "ما أُريكم إلا ما أرى، وما أَهديكم إلّا سبيل الرشاد"، دون مراعاة للاختلاف الذي يحكم ظاهرَ الفرد وباطنَه، فالباطن يسري عليه قانون الدِّين، والظاهر يسري عليه القانون العام الذي لا يختلف عليه اثنان، كأنّ عُرفَه قَضى بتشابه الحالتين، فيستوي عنده الحَجَر والمَدَر. والواقع أن ما يجري عليه مقتضى الحكم في منطقه، يقابله ما يجري عليه مقتضى الحكم في منطق غيره، أما منطق الكون ورحابتُه، فمن الحكمة أن يتسع لآراء لا حصر لها، بدل أن يضيق لرأي فردي يستدعي استحضار المدجَّجات والمدمِّرات، ولعل شيئا من هذا هو الذي جعل أفلاطون يرفض دخول الشعراء إلى مدينته الفاضلة، أو بدعوى أنهم في كل واد يهيمون ...

وإنه لمن المزعج أن تكون من تقاليد الحوار، دفْعُ الآراء -وهي آراء- لهاجس مبهَم يسحبها نحو الانتصار للنفس، والأكثرُ إزعاجا أن يبخل المتحاورون بمسافات كافية فيما بينهم يقتضيها الوازع الأخلاقي، سواء كان الحوار عَينيا أو افتراضيا، وقد رأينا كيف أثَّرَ ضِيقُ المسافات بين المتحاورين في برامج تلفزية حتى ضاقت على بعضهم الطاولةُ بما رَحُبَت، فكَسَّروها أمام الملأ على إيقاع الاتهامات والسباب والشتائم.

وفي "المسامير" التي بين أيدينا، بعضُ صور ما ذكره الماغوط والقَصِيبي، وبعضُ أصناف التنَمُّر، وطبائع أخرى من الاستبداد، ومصارعُ أعتى للاستعباد لم يَطرُقْها الكواكبي، ولا خطرت على قلب الحَجّاج. في "المسامير" ما يوحي بأن طبائع القول الأنيق أصبحت تتلاشى، وحلت محلها طبائع أخرى كشفت عنها التدوينات التي تعج بها منصات التواصل الاجتماعية، فَحَدَثَ أن أصبحت هذه المنصات ملاذ الباحثين عن الخبر أو المعلومات، بعد أن تعرضت للطغيان المادي الذي تتحكم فيه أياد خفية وسخية، فتغوَّلَت حتى ظهرت لَهَوَاتُها خلف الأنياب، وقدَّم روادُها أرقى مستويات الظاهرة القَصيمية، وتحولت إلى جامعة تُخرّج أفواجا من المفوّهين، والعلماء الذين يتحدثون في كل الفنون، وبكل المستويات، ومشاركون يناقشون كل الموضوعات، وخبراء يجتهدون في كل المجالات، وجهابذة القول، وفرسان الكَلِم ممن استغنى شاربُهم عن المسح، ومناضلون ضحوا بالغالي والنفيس، وقد عبرت إحداهن عن ذلك بقولها:

الـكلُّ في هَـذي الدّيارِ مُـدرّسٌ الـكلُّ فـيـهـا شَـــاعـرٌ وأدِيـبُ
والكلُّ إنْ شـــئتَ البِنَـاءَ مُهنـدسٌ والكلُّ إنْ شِـــئْـتَ الدّواءَ طَبِيـبُ
والكلُّ في عِلمِ الحـدِيـثِ مُحَـدِّثٌ والـكلُّ في عِـلْمِ الـكَلامِ خَـطِـيـبُ

والكلُّ قـدْ درَسَ الحقُوقَ وعِلمَهـا والكلُّ في عِلْمِ القَضَـــاءِ رَهِيـبُ
والـفِـقـهُ عـنـدَ الـنّـاسِ أمرٌ هَـيّنٌ فـالـكلُّ يُـفْـتي دَائمًـا وَيُصـــيـبُ
مَـا عَـادَ في هَـذي الدّيارِ تَخصُّـــصٌ هَـذا لَـعَـمْري مُـخْـجِـلٌ وَمَـعِـيـبُ
لـو كلّـنـا وَضَـــعَ الحـدُودَ لِـفِـعـلِه مَـا عَـاثَ فِينَـا جَـاهـلٌ وكَـذُوبُ

وإذا كانت التضحية، زَمَنَ التضحيات، تأتي في سياقها الأخلاقي للحفاظ على العِرض والشرف، فإن نظام التفاهة القاضي بسيرورةٍ حديثة لمنظومة الأخلاق، ضَحّى أولَ ما ضَحّى بالعِرض والشرف، وبالعفة والأمانة والقيم، وذلك من أجل لحظة آنية أقرب منها إلى النزوة التي تحمل لواء "النظام"، ومن ورائها "البوزُ" بِخَيْله ورَجْله، و"الأضواءُ" بمختلِف ألوانها وبريقها، وقد أَلْبَست الأيامُ نزواتِ الحياة لبوسَ العفة حتى تَخضع لقانون "النظام" الذي يمس الجوهر، ويقدح في الثوابت.

عَـلى أَنَّهَا الأَيّـامُ قَـد صِرنَ كُلُّـها عَجـائِبَ حَـتّى لَيـسَ فـيها عَجـائِبُ

وعن الجوهر المفقود في زمن "النظام" يتساءل "ألان دونو": ما هو جوهر كفاءة الشخص التافه؟. وهو سؤال يقع موازيا لموقع الغور الذي انحدرت به الهوة الفاصلة بين التفاهة وبين نقيضها ... ثم يأتي الجواب الذي يفضح الخَبْء عن منصاتنا التواصلية التي انتهت إلى حال من الفوضى والتفسخ، ويضعُ تآزُرَنا "اللّيْكَوِيّ" في ميزان الجودة، فيقول: "إنه القدرة على التعرف على شخص تافه آخر، معا يدفع التافهون بعضهم بعضا، فيرفع كل منهم الآخر، لتقع السلطة بيد جماعة تكبر باستمرار"[3]، وكأن الأمر القاضي بأنْ يتخذ بعضُنا بعضا سُخريا، قضى نقيضُه بأنْ يتخذ بعضُنا بعضا سُخرية، ثم نتنافس في ذلك مع المتنافسين، ونشدُّ أزْرَ من يتقدم خطوات نحو الشهرة الزائفة.

ولا بأس أن يصير النَّوكَى والمغفلون حديثَ الساعة، وملاذا للمنصات، ونموذجا للشهرة، وقدوة للناشئة، وأرضية خصبة للنقاشات والحوارات والجدالات في القنوات الثقافية والإخبارية والتوثيقية ... ومصدرَ عيش لـ"اليوتوبرز" وغيرهم ممن يملكون القدرة على النَّطْح والتسطيح، فيجعلونهما مادة لمنصاتهم، ولهم الجَرَاءة على سلخ أعراض الناس .. وأعراضهم .. وقذف المحصنات الغافلات .. وهتك سُجوف الكنايات والاستعارات. بل من هؤلاء من يُسفر عن لسان طويل يصل إلى أقصى الشارع فينتقي منه أبشع ما فيه من كلمات وعبارات مسلولة يقدّم بها محتوى

3- نظام التفاهة، آلان دونو، ترجمة: مشاعل عبد العزيز الهاجري، دار سؤال- لبنان، ط: 2020/1، ص: 70.

منصته لمتابعيه الأوفياء، ناهيك عن الذين تخصصوا في الطعن في الدين الإسلامي، وسبِّ الذات الإلهية، وسبِّ المصطفى عليه السلام، والتشكيكِ في الثوابت، والتشهيرِ بالصحابة وأمهات المؤمنين، والطعنِ في القرآن رغم كونهم لا يحسنون قراءة آيِهِ، أو حتى النطق بجملة فصيحة يستقيم بها المعنى، و... و... وحتى لا نطيل؛ لا تنسوا الإعجاب والاشتراك وتفعيل الجرس ليصلكم كل جديد، فما تخفي صدورُهم أكبر.

ودعْم هذا النوع من الكائنات، جريمة لا تُغتفر، وإقبالٌ مُعلَن على صناعة جيل بلا قيم ولا مبادئ، وإعلاءٌ للأصوات النَّشَاز، ودعوةٌ صريحة للمُضي على أثَر صناعة بالية من أجل الحفاظ على النوع. ومن كانت هذه خِلْقَتُه؛ فحياته تبدأ باللحد وتنتهي باللحد، لأن نظام التفاهة ليس له بنود يسير عليها، وإنما هو بَند واحد يقوم عليه أساسُه، ومن أراد الانتماء إليه، فالشرط أن لا يكون له شأن.

وقبل "ألان دونو" قال فرانكل: "ويل لمن لا يرى في الحياة معنى"، وهو يريد أن يصل بنا إلى أن الانسان التعس لا يعرف للحياة لذة ولا معنى، وأن ما هو متوقع من الحياة أقل قيمة مما تتوقعه الحياة منا، ومن هنا تبدأ الخطوة الأولى لفهم دركات نظام "ألان"، بحجة أن التفاهة تؤدي إلى التعاسة، والتعاسة تؤدي إلى فقدان معنى الحياة، ولا شيء يبقى في النهاية غير ما تفرزه النتائج من الحسرة على الأيام والأوقات والأعمار.

والذي بات واضحا للعيان، أن المثقفين أيضا لهم نصيب في هذا النظام، فبعضهم سرى مسرى العامة، وخضع للبَند الوحيد، وصار يَتَدَاعى مع الأَكَلَةِ وقد اختفت يده في القصعة يبحث عن خاتم سليمان، وهو يطبّق الأوامر كما جرت بها المقادير، ولا يتغيب عن حصته مهما كلفته نوائب الدهر، وإن تغيب فهو يقضي الفوائت، أما الحصص التي يكون قد تغيَّب عنها بلا قضاء أو كفارة، فهي دورُه كمثقف في الذَّود عن حِياض العِرض والشرف والقيم التي ظل حارسَها وأمينا عليها، ودورُه في مواجهة التفاهة التي أضرت بنا كثيرا، ودمغتنا بالباطل الذي استفحل حتى صار هو الحق المبين، ودورُه في عودة الزمن الجميل للفن والأدب والفلسفة والدين والسياسة .. وزمنِ الصالونات الأدبية، والمناظرات العلمية، والمطارحات الفكرية، وحِلَق الشعر واللغة وغيرها. ودورُه كما قال شريعتي: "يشبه دور الأنبياء والرسل وأئمة المذاهب في المجتمعات القديمة"[4]، وقد يختلط على الذاهل أمرُ المثقف من غيره حين يَدع المَعْنِيُّ بالثقافة وشؤونِها دورَه الأساس، ثم يتصدر منابر المؤثِّرين والمؤثِّرات، ويستقبلُ موادَّها استقبال النَّهِم الولهان، ويُطَوّحُ بها كما تُطَوِّح الأم بصغيرها.

4- مسؤولية المثقف، علي شريعتي، ترجمة: إبراهيم الدسوقي، دار الأمير-لبنان، ط:1/2005، ص: 125.

فَـوَا اللهِ لَا أَدْري أَرِجْـلُ دَجَـاجَةٍ مَشَتْ فَوْقَ مُبْيَضِّ الصَّحِيفَةِ أَمْ يَدِ

لقد كنا منذ زمن نخاف على أنفسنا من المد الإيديولوجي بأنماطه المختلفة .. ومن الجفاف الذي أصاب الأرواح .. فصرنا نخاف من أنفسنا، ونحذِّر أنفسنا من شرها، قال سفيان الثوري لعطاء الخفاف: "يا عطاء: احذر الناس، وأنا فاحذرني".

وإذا حدث أن فشلت النظريات والمذاهب الفكرية والنُّظم برمتها، أو التي ادعت العلمية منها وهي ليست من العلمية في شيء كما حدَّثَ العقاد عنها في "أفيون الشعوب"، إذا حدث أن فشلت في توفير القدر الناجع من الأخلاقيات، وإيجاد حل لما يهدد مصيرها، فكيف بالقيادة الحالية لنظام التفاهة؟ وكيف بموقف المثقف حين لا يأبه بكل هذه الإهانات في زمن الذُّلْقْرَاطِية؟ ولسان حاله يقول:

إِنْ كَانَ عِنْـدَكَ يَا زَمَـــانُ بَقِـيَّةٌ مِـمّا يُهـانُ بِـهِ الكِـــرَامُ فَـهَاتِها

إن أقوى مسمار تم غرزه في جسد الثقافة هو مسمار التفاهة، وهو المسمار نفسُه الذي يشتكي منه جسد الأمة اليوم، وسيصيبها -أو أصابها- بالهُزال، بعد أن أضعف كِيانها، وأرهق كاهلها. ولا أدلَّ على ذلك من تصريحات بعض المؤثرين والمشاهير الذين يتبجحون أمام الملأ بارتمائهم في حِضن المال، وافتقادهم للأخلاق، وتنديدِهم بالأخيرة وقولِهم بعدم جدواها في عالم المادة والتكنولوجيا، وهذا -للأسف- أصبح لغة "البوزِيّين" المتداولة، وتسلل شيء منه إلى ثقافة الناشئة الحالِمِين، وهذا -لا شك- تعلقٌ كبير بمظاهر الحياة من جانبها "الغَفْلَوِي"، حتى ليكاد الحلاجُ يعني هذا الصنف من التعلق بقوله:

أَنَا مَـنْ أَهْـوَى وَمَـنْ أَهْوَى أَنا نَحْـنُ رُوحَانِ حَـلَلْـنَا بَـــدَنَـــا

فَـإِذَا أَبْـصَـرْتَـهُ أَبْـصَـرْتَـنِي وَإِذَا أَبْـصَـرْتَـنِي أَبْـصَـرْتَـنَا

ورهان التعلق يتلاشى مع قوله تعالى: (هل أتى على الانسان حينٌ من الدهر لم يكن شيئا مذكورا)، ومع ذلك فالإنسان أكثر الكائنات حبا للذِّكْر وطمعا في المزيد، وتفجيرا للمواهب على منصات مائلة، ولا فرق بين من ينفق آلاف الدنانير مقابل بيت شعري يمدحه، وبين من يشتري آلاف "الليكات" و"الإشتراكات" مقابل حفنة من المتابعين بمحتوى صَفيق، وبضاعةٍ مُزْجاة، وإذا أتَتْه مَذَمَّةٌ من ناقص، فهي الدليل على أنه كامل.

إن الفرح والسرور بامتلاك المال، هو استجابةٌ لمنعطف في النفس يحب المال، والركونَ إلى الشهرة وحبَّ المديح والتعلقَ بالألقاب؛ هو أيضا استجابةٌ لمنعطف في النفس يحب كل ذلك، على أن النفس راغِبَةٌ إذا رَغَّبْتَها في الشهرة والتطلع للظهور، وإذا تُرَدُّ إلى صوابها تنحني، لكن ما من شك في أن النفس إن لم تَشْغَلها بالحق شَغلتك بالباطل، وأصحابُ هذه الاستجابات؛ في

الغالب ما يكونون من الذين يحبون أن يُحمَدوا بما لم يفعلوا، وذلك تبعا لغريزة فوَّارة لا تتغلغل إلا في ذواتٍ غيرِ مُنتِجة، وإذا أَنتَجَتْ من عِنْدِيّاتها؛ أنتجَتْ شيئا ما تراه تميزا، ولها على الآخرين حق التميز، وليس لها من الأمر شيء سوى الواجهة، وكل الذين يعنيهم "ألان" ويدخلون في نظامه؛ لهم واجهات حديدية بألسنة حِداد، بها صاروا مؤثرين وقابلين للاستهلاك اليومي، وكان مما ألهاهم عن أنفسهم؛ أنْ قدَّموا دَكَّ حصون الآخرين على بناء حصونهم، وألْهَتْهم الأضواء عن اجتثاث الزيغ "التِّكْتُوكي" من جذوره قبل دخول موسم الحصاد، فأسرعت بهم الفَهْلَوة حتى صاروا أرقاما بلا انتماء، وإنْ وُجد هذا الانتماء، فهو انتماء إلى جيل الرهانات الخاسرة كما أسماه طرابيشي، والانتماء كالقضية، كلاهما مِقود للفرد، ومن لا قضية له ولا انتماء؛ تهارشته الأهواء، وتناطحته الوِهاد.

إِذَا غَـابَ مَـلَّاحُ السَّفِيـنَةِ وَارْتَـمَتْ بِها الرِّيحُ يَـوْمـاً ضَبَّبَـتْـهَا الضَّـفَـادِعُ

والحق أن أمةً يختفي مثقفوها، ثم لا يخلُفهم أحد من بعدهم، أو يخلُفهم أتباع نظام "ألان"، أمةٌ آيلة للزوال، والأمة التي لا تُدرِك ذلك، وتُفرِّط في رجالاتها، ثم تنتظر زوال إسرائيل، وانتقامَ السماء لها من عدوها، هي أمة نائمة في العسل، تُقَلِّبها الآمال ذات اليمين وذات الشمال، وكلبها باسطٌ ذراعيه بالوصيد.

ومن فلتات الدهر أن أتباع "ألان" قد حُشر معهم في الآونة الأخيرة بعضُ الذين كانوا في صفوف النخبة، حيث أزالوا القناع، وأزيل عنهم الغطاء، فكشَفَت المنصات عن سوءاتهم، بعد أن رَدَحوا بفضاءات اللغو والقذف، يسب بعضهم بعضا، ويلعن بعضهم بعضا، وقد بَدَتِ البغضاء من أفواههم، وهم في سَكرتهم يعمهون. وإنّا لَنَعجبُ في يوم الناس هذا كيف يُهين الثقافةَ أهلُها، وكيف يدوس بعضهم رقاب بعض !!؟

إن الكلمة -كما قال التوحيدي في "الإمتاع"- حين ينازعك إنسان، تكون أنثى، وتكون الإجابة عليها ذَكَرها أو فَحْلها، فإن خَلَّيْتها؛ بَتَرْتَها وقطعْتَ نَسْلها، وإن أجبتها؛ ألقَحْتَها، ونمو بينهما ولد كثير في بطن واحد، فكم أنجبَتِ النخبة يا ترى من ولد غير شرعي باسم الدفاع عن العلم أو الدين؟ ولله در محمود أبي الوفاء حين قال:

أَوَدُّ أَضْحَـكُ لِلدُّنْيا فَيَـمْـنَعُـــني أَنْ عَاقَبَتْني عَلَى بَعْضِ ابْتِسَامَاتي

وإذا كانت نكباتنا تتوالى تَوَالي الزخَّات في ليلة ماطرة، وما نكاد نُفيق من واحدة منها حتى تنهال علينا الأخرى، فإن التفاهة السائلة واحدة من هذه النكبات، ولعلها أقوى ما ابتُلِينا به في عصر ما بعد الحداثة، -وإن كنا في العصر ما قبلها- وما ذلك إلا بداعي الغفلة التي نفوق بها الأمم، أو التي لا تعرف للأشياء قيمة غير تجريدها من كل قيمة، مع أن "أشد النكبات التي يصاب بها

البشر، نكبة الغفلة" كما قال محمود شاكر[5]، لأنه يرى بأن الإنسان لا يكون ناميا إلا مع اليقظة، فإذا سُلِبها، فقد استقر في حومة الموت والهلاك على حد تعبيره.

على أنه من العسير الوقوف على نقطة التقاطع بين الغفلة والتغافل، وإن كان مَن سبقونا وضعوا أيديهم على المعنَيَيْن، ووسعوا نطاق مَفهومَيْهما، فرفضوا الأول، وأباحوا الثاني، فالغفلة عند الغزالي في "الإحياء" لا يُضادُّها إلا العِلم، وعلي الوردي يرى: "أن نعيش بثلث من الفطنة، وثلثين من التغافل". وإذا كانت الغفلة سببا ظاهرا للتفاهة، فالتغافل عنها جريمة، وتشجيعها جناية .. ولنا يد طُولَى في هذه الجناية .. وهذه حقيقة لا مِراء فيها.

* *** *

ماذا يعني أن تجري الأحرف خلف القلم؟ يزحف بها بلا دليل أو هادٍ يهديها في عالم افتراضي ذي اللون الأزرق، وماذا تعني التعاليق عليها حين لا تأخذ من الزُّرقة صفاءها وهدوءها؟ فالسماء لا تكون زرقاء إلا إذا كانت صافية، والبحر لا يكون هادئا إلا إذا كان أزرق اللون، ومن زرقة السماء يستمد البحر هدوءه، ومن زرقة البحر تستمد السماء صفاءها، وبين الزرقتين أمواج وغيوم.

فما بالنا نَنفُثُ في المنصات ما تُرغي به أفئدتنا من حُقود كما تَنفُث النفَّاثات في العُقد، ونستبعد أن تُلقيَ الزُّرقةُ بظلالها الصافية الهادئة في الفضاءات الافتراضية، بحثا عن مساحات سليمة النوايا لا تخطئ أهدافها، وعن نور مُشع يملأ جنباتها، لا عن جنبات تَملأ النور، "لا يكفي يا ولدي أن تكون في النور لترى، بل ينبغي أن يكون في النور ما تراه"[6]، فليس أثقل على منصات التواصل من هواة يبحثون عن الاحتراف، وليس أجدى بارتيادها من محترفين يبحثون عن هواية، ولِكلا الطرفين نصيب من "المسامير".

قبل أن أطّلع على كتاب "المسامير" التي خَص بها المؤلف صفحته الفايسبوكية، كنت رأيت بعضها هناك، وعندما جُلْتُ في ذهني بحثا عن مسمار سمعتُ به من قبل، لم أجد في الحقيقة غير مسمارين، "مسمار جحا"، و"مسمار الكِيف"، ولا أعرف لكليهما علاقة تجمع بينهما، غير أنهما يزعجان من ابْتُلِيَ بهما أو بأحدهما. وما نقصده اليوم بـ"مسمار جحا"، نجد له ترجمة عند أولئك الذين يتَسَمَّرُون أمام "اللَّايْڤَات" بشكل يومي ولساعات طوال، ولهم تُبَّاع أو قل ضحايا "النظام" يتقاطرون بالمآت والآلاف، لا تُغمض لهم جفون، ولا تُقهر لهم عزائم.

5- في تقديمه لكتاب: "في مهب المعركة" لمالك بن نبي.
6- كِيل كبد، أحمد إدوخراز، دار العرفان-أكادير، ط:1/2024، ص: 140.

ثم لا يحضرني الآن من مسامير الشعراء غير قول البَرَدُوني:

فَمَنْ مِنْكُما الرَّائي جُحَا رَابِعاً أَتَى فَمَنْ مِنْكُما المِسْمارُ مَنْ مِنْكُما جُحَا

أو عنوانٍ لقصيدة لغادة السَّمان "فراقكم مسمار في قلبي"، وبين البردوني والسمان مسافة يعرفها أهل اليمن والشام. ولعلي أستدرك المسمارين بآخَرَ للمؤلف توارى عن الأنظار إلى حين الوقوف عليه بين المتواريات وهو:

سَفِينَةُ الخِضْرِ لَمْ تُخْرَقْ عَلَى حَمَقٍ وَحِكْمَةُ اللهِ قَدْ صِيغَتْ بِمِسْمَارِ

وعهْدُنا بالمؤلف يغرف من معين مشرقي خالص، ويرتع في دوْحاته كما يشاء، فهو مازنيّ تارة، وشاكري تارة، وزيّاتي ورافعيٌّ ومَرصفي ... تارات، بل واحتال على الرياح من جنوب وشَمْأل، فأخذ قبسات من ابن أوس الطائي، وابن الحسين الكوفي، وابن هاني الأندلسي، ورَشَف رشفات من حَبَب الكؤوس الشاكرية متشوفا إلى قوسه العذراء، وينظر منها أيُّها هو غامزُ، وينظر بعيون بصائر الإبراهيمي في حالات التأهب، ثم يسرح مع العقاد والحكيم حيث يسرحان، ويغرق مع الجرجاني وأبي موسى حيث يغرقان.

لقد عرفنا المؤلف حين كان مدرّسا تحت الصفر، وحين كان البدائيَّ الذي يسكننا، وحين كان حافي القدمين، وحين أوقد الشموع لقوافل من كلام تحت طلقات بنادق فارغة[7]، عرفناه وفيا للحرف المنثور، ممسكا بتلابيبه، ووفيا للحرف الموزون، متشبثا بأذياله، وهائما في أوديته، يُرسله كلماتٍ "تُخجل الأسفار والأدبا"[8]، وقد رأينا كيف يُنطِق الكلماتِ أحلى شَجْوها، وكيف يُلَمْلم شتات الأفكار، ويَصِل اللُّحمَة بالسَّدَى، وكأنه المعني بقول صديقه الحُسَيني:

اللهُ بَعْثَرني لِيَجْمَعَني هُنَا مَا كَانَ يَوْماً ذَا القَصِيدُ مُلَمْلِمِي

ومن روائع ما لملم المؤلف[9]:

قُلُوبٌ دَهَتْهَا العَادِيَاتُ فَجَاءَةً فَمَاتَتْ وَلَمْ تَمْلَأْ صَحَائِفَهَا مَجْدَا
عَجِبْتُ لِأَمْرِ الحَادِثَاتِ صُرُوفُهَا تُخِيلُ مَدَى الأَزْمَانِ حُرَّ الوَرَى عَبْدَا
بَلَغْتُ نِصَابَ الأَرْبَعِينَ وَلَمْ أَعُدْ أُصَدِّقُ بَرْقاً جَاءَ يُسْمِعُني رَعْدَا

7- كل هذه العبارات، هي عناوين لمؤلفاته، منها "حافي القدمين" و"بلبل سوس المغرد" تحت الطبع.

8- عَجُزُ مطلع لقصيدة للمؤلف يقول فيه:

قَالوا اعْتِبَاطاً حُرُوفي تَمْضَغُ السُّحُبا عَرْجَاءُ أَخْجَلَتِ الأَسْفَارَ وَالأَدَبَا

9- من قصيدة "ذنوب الهوى" التي نالت جائزة محمد الحلوي للشعر سنة 2019.

سَـــأَفْطِمُ عَيْنَ القَلْبِ عَنْ لَذَّةِ الجَوَى وَأَسْلُبُها وَصْلاً لِتُبْصِـــرَني طَوْدَا
فَإِنْ كُنْتَ صِـــدِّيقاً لِكُلِّ هَوىً دَنَا فَقَدْ قِيلَ إِنَّ الفَأْرَ قَدْ هَدَمَ السَّـــدَّا
تَنُوءُ سُطُورُ الشِّعْرِ بِالسِّـــــرِّ كُلَّما رَأَيْتَ قَمِيصَ القَلْـبِ مِنْ دُبُرٍ قُـدَّا

إن ما يقدمه الأستاذ إبراهيم أوحساين من أدب؛ أقل ما يمكن القول عنه أنه أدب رفيع، وما غرزه من مسامير؛ إنما هو يقدّم نموذجا أنيقا للتدوينات التي ينبغي أن نحياها، وهو يفضفض بها دون أن يكتم عنا أسراره وهو الواعد القائل:

لَا سِرَّ أَكْتُمُهُ عَنْكُمْ فَكُلُّ هَـــوىً بَادٍ، وَيَعْرِفُ كُلُّ النَّاسِ أَسْرَارِي[10]

وقد كتبها بأسلوب رشيق نابع عن ثقافة عالية، يُذكرنا بالجماعة الفحول الذين ذكرناهم، وهم الذين أذهلوا القارئ والسامع بخطاباتهم الموسوعية التي جمعت شمائل النقد والتحليل والفلسفة واللغة والتاريخ والبرهنة وغيرها، بلغة جذابة سالبة للعقول ومهذبة، تتسع لها الآفاق المعرفية، ولا تضيق بها المعاجم اللغوية، وقد لا أبوح بسر إن قلت بأن المؤلف وطئت أقدامُه الطالعةَ بساط هذا أو أبعاضا منه، وفي "المسامير" وغيرِها من إنتاجاته ما يدعم ذلك.

أما عنوان الكتاب فإني لم أستطع مَسَّهُ بخير أو بسوء، لا لشيء إلا لأنه "مسامير"، والحديث عن المسامير، والمشيُ عليها سِيان، وقد يقتضي أن يكون الماشُ لها مسمارا أو مطرقة، وإذا كان من المستحيل أن يكونهما معا، فليس من السهل أن يكون أحدَهما، لذا أُراني حُمْت حوله بكثير من الاحتراز مخافة الاقتراب من نقطة التَّمَاس، على أن الوقوف على المسامير مجتمعة، أهون من الوقوف على مسمار واحد، فكان من أمري أن أخذتُ الأمر رَهْوا.

ومن باب رد البضاعة نقول:

اهنأ يا إبراهـــيم .. وخذ كتابك بقوة

مسعود بوكرن

10- من قصيدة بعنوان: "ماذا أقول"، بديوان "قوافل من كلام"، إبراهيم أوحساين، هيئة الحوار الثقافي الدائم - فرع المغرب، ط: 2019/1، ص: 57.

مُقَـدّمَة

لو كنتُ في زمن قبل زمننا هذا، وخُيّرتُ في الأسماء والألقاب، لخلعتُ على نفسي حتما اسم "موسى"، لا لعُجمةٍ في معدنه، ولا لفخامة في لفظه، ولا بحثا عن هارونَ أخاً ووزيراً أشدُّ به أزري وأشركه في أمري، ولكن ليُقال لي أينما حللتُ وارتحلتُ: "قد أوتيتَ سُؤْلَكَ يا موسى"؛ ولعلّها عبارة تتطلّعُ كلّ المسامعِ إلى استقبالها كلّ حين، ففيها إجابةٌ مريحة تكفيك مؤونة إدامة التّفَس في السّؤال، وهي استجابة عاجلة تكفيك ثقل الانتظار وعذابه؛ ولكنّ زمن اليوم غير الزمن الغابر، ولا أحتاج فيه اسما أو لقباً موسويّا، ولا مدداً سماويّاً مُعْجِزاً، ولا بلاغةً يخالطها التّكلّف أو بيانا يُمازِجه التّزَيُّد. وإنّي لأراني في غنًى عن إحكامِ صنعة الكلام والخطابة، أو استجادة التحبير والكتابة، فالعصرُ عصرٌ لا تُطلبُ فيه استمالة العقولَ والقلوب، ولكن تُستمالُ فيه العيون والآذان إلى مباهج الحياة ومحافلها؛ وإنّه عصرٌ يُفضّلك حاملاً مثالبَ "بَاقِلٍ"، غاديا ورائحا في الطّرقات، سائلا كلّ من يصادفه: " أنتَ أنا فمن أكون أنا ؟! ويمقُتُكَ حاملا مناقب " سَحْبان وائلٍ "، القائلِ مِلء الثّقةِ والجراءة:

لقـد عَلِمَ الحيُّ اليَمانُونَ أنّني إذا قلتُ "أمّا بَعْدُ" أنّي خطيبُها

وبعد، فالدنيا متقلّبةٌ بنا في خضمٍّ من الأقدار، في زمن لا يتوقّف فيه تدافعُ الليل والنّهار، وقد مرّت على النّاس أيّام إن لم تجدْ في المرء صلابة فتّتَتْهُ، ولكنّها إن وجدت في عقله جهلاً علّمَتْهُ. وما دمتُ عوّدتُ نفسي على الصّراحة، فإنّي زاعمٌ أن التّاريخ اختار أمثالي للعيش في هذا الزّمن اليسير في حركته وفي منطقه وفي لغته وفي الأفكار المتحرّكة في كبِده، لأنّ عقولنا متواضعة ومُكْنَتَنا محدودة وأحلامنا صبيانيّة وآراءنا متهافتة، والأمر لا يدعو إلى الاستغراب إذا ما سلّمنا اليومَ بخضوعنا التّام لثقافة "الأزرار" ولسحر "الشاشات" وإغراء النقر والتصفّح السّائل السّهل، وهي -في رأيي- أعرافٌ جديدة تصنع الكسل والخمول، وتورث البلادة وقلّة الفطنة، وتصرِفُ العقل عن الجِدّة والسّداد وتُعجِزُهُ عن إفراغ الدّواة من المداد، خاصّة إذا تعرّض لزحوف من المعارف من هنا وهنالك، وداهمته "المواقع الالكترونيّة" بكل معلومة كانت نائمة في بطون الكتب، دون بذل أدنى كُلفة أو مؤونة أو جهد، إلى أن بلغنا من حياتنا "التقنية الآليّة" أن المرء متّا لا يكاد السؤال يستيقظ في نفسه حتى تأتيه هذه "الآلات الذكيّة" بالجواب الشافي قبل أن يرتدّ إليه

طرفه، كأنما استُودِعت جماجمُنا عقولا غير عقولنا وأذهانا غير أذهاننا! وهل ثمّة على الأرض عجبٌ عُجاب أعظم ممّا يسحر العين ويُدهش الألباب؟

واستمر العالم إذن في سيره السّريع نحو غاية لا ندري معالمها وملامحها، فإذا بموقع اسمه (فيسبوك/Facebook) يأتينا على غرّة من الغرب الأمريكي، فيمنح لكلّ منّا جداراً على حاسوبه أو هاتفه، يثبّت عليه بـ"مسامير" إلكترونيّة كلّ ما يختلج في صدره وما يتفصّدُ به ذهنه، معبّراً عن حاله، كاشفاً للجميع ضميره. إن الأمر في رُمّته غير مَمْجوج وغير مرفوض شكلاً ومضموناً، بل صار العكس، وبات لكلّ امرئٍ مِنبر ومِرقاةٌ يصعد عليها ليراه النّاس وليسمعوه، باثًّا عليها ما شاء، وبأيّ لغة شاء، وفي أي وقت شاء، فاتحةً -أي المرقاة- مِصراعي الباب أمام كلّ مَن عَدِم مطبعة تطبع أو مجلّة وصحيفة تنشر أو دار نشرٍ توزّع، دون أن يخضع هذا المكتوب أو ذاك لأدنى قراءة تحكيميّة أو يمرّ من غربال نقديّ، أو على الأقلّ أن يتلقّى توجيهات للتّصويب وملاحظات للتسديد والتّقويم؛ فبات من حقّ الناس أن يكتبوا دون مصادرة مكتوبهم من أحد، والجميعُ - بقدرة قادر- ناثرٌ وشاعرٌ وروائيٌّ وقاصٌّ وعالِمٌ في الفيزياء وفي علوم الفضاء، مادام كلّ واحد من هؤلاء يملك حساباً / صكّا فيسبوكيا، وإن لم تستوِ الجملة/الفكرة السليمة في ذهنه ولسانه بعدُ، تماما كالجِراءِ إذا صَأْصَأَتْ ولم تُفَتِّحْ ! فلقد كان المرء في الزمن الغابر، كما جاء في بيان الجاحظ، يُقصِّدُ قصيدة، أو يحبّر رسالة أو خطبة، ثم يعرضها على شاعر أو علماء بالشعر والنثر، فإن رأى الأسماعَ الخبيرة أصْغَتْ له، والعيون تحْدِجُ إليه، ورأى من يطلُبُه ويستحسنه، ولم يحلّ عندهم محلّ المتروك، آنئذ يمكنه إعادة الأمر مع إضافة تصويبات من هم أخْبرُ منه، مستعينا بتوجيههم، بعد ذلك يمكنه نشر مكتوبه بين النّاس واثقا رافعا رأسه أنه شاعر أو خطيب؛ أمّا إذا وجد الأسماع عنه منصرفة، والقلوب لاهية، والعيون عنه زاهدة، نُصِحَ بالخوض في صناعة أخرى غير تلك المشتهاة، وقيلَ له دون مجاملة وحرصٍ على مصلحة:

ولا تُنبِتُ المرْعَى سِبَاخُ عُراعِرٍ ولو نُسِكَتْ بالماءِ سبعةَ أشْهُرِ[1]

أو يُقالُ له:

فَدَع عنكَ الكتابةَ لستَ منها ولو لطّـخْتَ وجـهـكَ بالمِـدادِ

فكلّ صناعة مهما كانت، لا تُطلب، كما جاء في تذكرة الذّهبيّ، إلا بإدمان الطلب والفحص عنها، وكثرة المذاكرة والسهر والتيقظ والفهم والإنصاف، والتردّد إلى مجالس العلماء والتّحرّي والإتقان، لتجتمع قواعدها في الذّهن وتتجلّى في الكفّين.

1- والمعنى الظاهر باقتضاب أن الأرض المالحة لا تُنبت زرعا ولا نباتا برّيّا ولو غُسِلت وطُهّرت مدة سبعة أشهر، والمعنى الباطن واضح ولا يحتاج تجليّةً ربما...

ولكنّ "الفيسبوك" كفى طُلاّب الصنائع مؤونةَ الطّلب والفحص والسّهر والمذاكرة، وكلّ مداخِلِ التّعب والشقاء، و"إنفاق" الوقت و"إنهاك" الذّهن في ما يُتيحه هذا الجدار الأزرق بضغطة زرّ واحدة، وإنّ من العجب أن يبيت المرء جاهلا، فيستيقظَ مفتيا في فقه المذاهب الأربعة، وفي نحوِ الكوفة والبصرة، بل، إنّك لتفتحُ عينيكَ كلّ صباح على ولادة ألف شاعرٍ وأديبٍ ومفكّرٍ وفيلسوفٍ، دون أن يقطع مسافةً من النّشوء والارتقاء، ويعبر زمنا من السقوط والوقوف، وتالله إنّ الطبيعة الصّمّاء ذاتَها لتخجل أن تدّعي يوماً أنّ الجبال قامتْ فجأة هكذا ونبتت في الأرض دون أن تكون في بادئ أمرِها حصاة صغيرة ! كيف لا يصحُّ هذا وكلُّ مُجْرٍ في الخلاء مُسَرٌّ[12]؛ وصدق طَرَفَةُ مُعبّراً بما درَجَ مثلاً بعدئذ، قائلا:

قد رحلَ الصّيّادُ عنكِ فابْشِري
ورُفـعَ الفــخُّ فمـاذا تحـذري؟
خلاَ لكِ الجوُّ فبِيضي واصفِري

وبعد، فقد خلا لي الجوّ مثل من خلا لهم داخل هذا الفضاء الأزرق وقضوا فيه بعض الوقت، وكتبتُ ما كتبتُ، مثبّتاً إيّاه بمسامير ضوئيّة على جداره، دون أن يُردّه أحدٌ عليّ، أو يغمز قناته بكلمة، وهذا لأنني محظوظ في زمن خلاَ من العقّاد واليازجيّ والرّافعي والزّيّات ومحمود شاكر وغيرهم، ولعلّ عطسةً واحدةً من أقلّهم شأناً، في ما كتبتُه وما سأكْتُبُه، ستجعله -بلا شكّ- غباراً تذروه الرّياح يمنةً ويسرةً؛ فأين صناعتي من صناعة أولئك؟ وأين فهمي من فهمهم؟ وأين فطنتي من فطنتهم؟ وأين قراءتي وحجم مطالعاتي من حجم قراءاتهم؟ وهل يطيقُ ابنُ اللّبونِ صَوْلَةَ البُزْلِ القناعِسِ؟... ولكنّي أملك اليوم جداراً أعبّر فيه كما أشاء، وأُخَرْبِقُ فيه كما أشاء، مُطمئنّا إلى ما أنشره، صائباً كان أو مغلوطا، وأنا شاعرٌ اليوم، وفيلسوف غداً، وفقيهٌ بعد غد، ومن يستطيعُ أن يقول: لا؟ والفضاء الأزرق يسمح -دون موانع- بتقلّد الألقاب وتقمُّص الصّفات وصناعة المجد في طرفة عين؛ فاملَئي كنانتك يا نفسي بمسامير تثبّتين بها بنات أفكارك على الجدار الأزرق مادام سيّاف الرّقابة غائبا، ومادام العالم غارقا في جهله...

إبراهيم أوحسين
الثالث من يوليوز/ تموز 2024
قصبة الطّاهر / المملكة المغربية

2- وأصل المثل أنّ الرّجل يجري فرسه في المكان الخالي لا مُسابِقَ له فيه، فهو مسرور به بما يرى من فرسه دون امتحان واختبار !

حاذر ممن لا يعشق الجمال !

كتب الأديب الروسي ديستوفسكي قائلا: "الجمال هو الكفيل بإنقاذ العالم". ولعله بهذا الكلام أدرك حقيقة الوجود العام للكون والوجود الخاص للكائن البشري، موقنا أن كل شيء يحمل صفات " الجميل" و"الفني " و"المُعجِب" قادر على التسلل عبر نوافذ النفس الإنسانية بلا استئذان.. والغريب استصغارنا وازدراؤنا نحن المدرسين - ولا أعمم - مادة "الفن التشكيلي"، معتبرين إياها في أفضل الأحوال مادة ثانوية لا تشكل في حياة التلميذ التربوية والنفسية الشيء الكثير، هذا وقد بلغ الطب الحديث الحد الذي بدأ يستعين فيه ب "الرسم" كوسيلة من وسائل علاج المرضى !!

قلم مُلوّن وورقة بيضاء قد يصنعان في أغوار النفس أحيانا ما لا تصنعه آلاف الكتب والمواعظ... فلربما أسعفنا الفن في إنقاذ ما يمكننا إنقاذه في عالمنا الحالك..

2 ابريل 2017

الفنّ بالوراثة...

إذا جازت الأنانيّة في الجينات البشريّة بتعبير ريتشارد داوكينز، فقد يجوز في حقها كذلك، بطريقة أو بأخرى، توريث صفات مكتسبة -غير بيولوجية- للأجيال اللاحقة؛ فأمكن للرّسّام أن يُنجب رسّامين كالرّوسيّ إيغور ماكوفسكي الذي أنجب أربعة أبناء تعاطوا الرّسم فأصبحوا رسامين كبارا؛ وأمكن للممثّل أن ينجب ممثّلا كما أنجب - على سبيل المثال- الراحلون أحمد زكي ومحمود عبد العزيز وسمير غانم أبناء نقشوا أسماءهم في السينما المصريّة؛ وأمكن للمغنّي أن ينجبَ مغنّياً كالرايس عبد الله أوتجّاجت -في السياق السّوسي- أباً لسعيدٍ وأخيه إبراهيم الفنّانين الشابّين... فإذا انتفى أمر الوراثة بيولوجيا مع كلّ هذه الأمثلة باعتبارها حالات شاذة طفرويّة، فسيكون احتمال اعتناق اهتمامات "الأب الفنّان" واتباع طريقته- بوعي أو بدونه- أمرا أقرب إلى الإمكان.

في هذا السّياق، أهنئ مجموعة "أمود أودادن" في شخص صديقي الشابّ أنور الفوّى ابن الفنّان الحسين الفوّى أحد المؤسسين الأوائل لمجموعة "أودادن" المعروفة، وذلك بمناسبة إصدار عملها الفني الخامس الموسوم بـــ(أُوركيسْ ئِلّي باسْ) بصيغة الفيديو كليب؛ والمجموعة، انطلاقا مما اختارته اسما فنّيا لها، كأنها تؤكّد لجمهورها قدرتها على السّير على نهج المجموعة الأمّ (أودادن) في إيقاعاتها وألحانها، بل قدرتها على طرق المواضيع الحياتية المعيشة بحكمة الكبار.

نذكر أن مجموعة أمود أودادن تأسّست سنة 2006، لكنّ انطلاقتها الفعليّة كانت سنة 2009 على منصّات المهرجات المحليّة والوطنيّة، وقد استطاعت طرح ألبوم (مرحْبا بيكْ أزّينْ) سنة 2017 من إنتاج شركة (Production Disco)، ليعقبه ألبوم (بخيرْ وعلى خيرْ) سنة 2019، ثم أغنية (أشكيدْ أوا) سنة 2023، ثم أغنية (لْبوهالي)، ففيديو كليب (أوركيسْ ئيلي باسْ) سنة 2024.

فإذا صحّت ثنائيّة (الأصل والفرع) أو (البذرة والثمرة)، ف"أمود أودادن" فرع من أصل وثمرة من بذرة، ومسار الامتداد في الزمن والاستمرار فيه كفيل بالإثبات أو النّفي. مع تمنّياتنا لهذه المجموعة الفتيّة التوفيق في عطاءاتها الفنيّة بالوراثة أو بدونها.

10 ابريل 2017

إلـــهـــي!

لـولاكَ مـا كنـتُ أبصرـتُ الحيـاةَ هُـدَى
ربّي، فخُـذْ بيـدي واجمـعْ يـداً ويَـدَا
روحي تـــراكَ عـــلى غيـــبٍ وفي ثقـــةٍ
أنِّي الشـــقيُّ إذا مـــا نـــورُكَ ابتعَـــدَا
جرَّبْـــتُ رحمـــةَ خِـــلاَّني وعطْفَهُـــمُ
وقـد وجـدتُ السَّـنَا مِـنْ سَـاحِهِمْ طُـرِدا
عـــوَّدْتُ نفـــسي عـــلى أفْيـــائِهم زمنًـــا
حـتى ظننـتُ الـثَّرى مِـنْ تَحْـتِيَ ابـتَرَدَا
همْ كالسـحابِ إذا جَفَّـتْ منابعُـهُ
لا قَطْـرَ يَسْـقيكَ مَهْـما فَـرَّحَ الـوَلَدَا
أرْضُ الشَّـآم ولـو طالَـتْ جـداوِلُها
مـا نفْعُـهُ الطَّـولُ إنْ لم يَسْـقِها بَـرَدَى؟

28 اويل 2017

أيها الكبار، دعوا الصغار يكبرون !!

قد نقبل - تجاوزا وبحذر شديد - أن يكون في حقل الإبداع الإنساني عموما، والأدبي خصوصا، كبير وصغير؛ أو بتوصيف آخر، محترف ومبتدئ. لكننا على العكس تماما، نرفض رفضا باتا وصاية هذا "المحترف" أو ذاك "الكبير" على أي مبتدئ، كما نرفض استتباعه بأي شكل من أشكال الطاعة والولاء، كيفما كانت سرعة هذا المبتدئ وقوة بداياته وانطلاقته في مضمار الإبداع الإنساني بأنواعه.

من بداهة القول التأكيد على حقيقة تشعب وتفرع وتنوع طرق الإبداع في شقه الأدبي، نثرا كان أو شعرا؛ فيكون من الطبيعي إذن أن يشق كل ذي قلم الطريق المناسب لميولاته الذاتية، ويختطّ لنفسه الصيغة والنهج اللذين يناسبانه ثقافيا واجتماعيا وأيديولوجيا، بما يضمن له تأطير كتابته ضمن سياقات محددة ومفهومة أمام القارئ. لكن، لا يسع الكاتب أن يبلغ مرحلة "النضج" الأدبي، واحتراف لغة "الكبار" - إن صح التعبير- إلا بعد قطعه بلا شك مرحلة "الطفولة" و"المراهقة" الفكريتين، حيث لايزال الكاتب في مراحله الأولى من استكشاف عالم القلم والأوراق البيضاء، والاستعلام عما يمكن للقلم أن يحُطَّه من شعر ونثر. مازال في بدايات قراءاته الطفولية لشعر «نزار قباني» و«نازك الملائكة»، وروايات « أغاثا كريستي » و« نجيب الكيلاني »؛ ولم يبرح بعدُ ساحَ بدايات ترصيف الكلام وتنضيد المعاني وشطب الفكرة وتعويضها بأخرى؛ أما تمزيق الأوراق فظاهرة لم يسلم منها أي كاتب مهما بلغ حجمه وذاع صيته. يمكننا الدمغ إذن بأصابعنا العشرة على مجمل ما قيل، وتشبيه الإبداع بكرة ثلج، تزداد سرعةً وحجماً كلما مضى زمن على تدحرجها في منحدر ما، لتبلغ أقصى ما يمكنها بلوغه نهاية السفح المائل، حيث ترتطم بالسطح المستوي، هنا فقط تبلغ كمالها الأقصى ويتوقف كل شيء. فعلامَ هذا الكلام كله؟

وأنا أطالع بعض ما يُكتب على صفحات الإنترنت من تقارير لجان التحكيم في العديد من المسابقات الأدبية، يسوؤني حقيقة ما يقدمه بعض الذين يحسبون أنفسهم من كبار الأدباء والشعراء من ملاحظات عامة على إنتاجية بعض المبتدئين في ميدان الكتابة، معتبرين إياهم عالة على الإبداع، بل ووصمة عار على جبينه، وهنا أتذكر موقف أحد المشاركين في مسابقة "أمير الشعراء" الإماراتية، حين انتهره الناقد المصري « صلاح فضل » بقوله: "من قال لك أنك شاعر ؟!"؛ ومثل هذا الحكم يقترب كثيرا من سابقه المتوغل في الماضي، حيث أوردت بعض كتب الأخبار أن النحوي البصري « أبو عثمان المازني » سمع مقاطع من أحد المبتدئين في تقريض

الشعر، فرد عليه « المازني » قائلا:" الحمد لله أن أخرجته من جوفك، فلو تركته لقتلك !!". فما عساه يا تُرى يكون إحساس من يُقصف بهذه اللغة وبمثلها أمام الملأ؟ وما عساه يكون مستقبل هذا الذي يتلقى من الشحنات السلبية ومن العبارات الهدَامة ما يجعل الجبال الراسيات تستحيل غبارا متطايرا؟

لست الآن طبعا في مقام تقديم إجابات، فالأجوبة تبدو واضحة ولا تحتاج لكثير تفصيل، ولست أرى ناجيا من عقابيل تلك التساؤلات ومن تداعياتها إلا مُستثنىً تولاه الله بعناية خاصة؛ ولقد صدق «شوقي» حين قال:

قُــوّةُ الله إنْ تَوَلَّتْ ضعيفـــــا تَعِبَــتْ في مِراسِهِ الأقويـَــاءُ

في مستهل القرن العشرين، عزم شاعر ألماني شاب لم يبلغ ربيعه العشرين بعد، يُدعى «فرانتز كابوس»، على إرسال شعره إلى الشاعر المعروف وقتئذ «راينر ماريا ريلكه»، سائلا إياه النصح والرأي في قصائده، وهل بإمكانه مواصلة الكتابة أو التوقف تماما عن حمل القلم. فكانت المفاجأة أن يتلقى الشاعر المبتدئ ردا من العظيم « ريلكه » قال فيه: " (...) لقد أعدت – مثلما تلاحظ – كتابة رباعيتك، لأنني وجدتها جميلة وبسيطة، ووليدة شكل تنامت فيه بانضباط أخلاقي هادئ. إنها أفضل أبيات لك، تمكنت من قراءتها، وإني أسلمك الآن هذه النسخة، لأني أعرف جيدا أنه أمر مهم وتجربة جديدة، أن يجد المرء عمله الخاص مكتوبا بيد غريبة. اقرأ هذه الأبيات كما لو إنها ليست لك، وستشعر من أعماقك كم أنها أبياتك أنت. لقد كانت قراءة هذه الرباعية ورسالتك سعادة لي، فشكرا على هذه وعلى تلك."؛ ولنا أن نتأمل هذا الرد مقارنة بسابقيه، ومدى الأثر النفسي الإيجابي الذي سينبعث في نفس «كابوس» الصغير، خاصة إذا تمت إعادة كتابة مقطع من قصيدته بقلم شاعر بحجم «ريلكه» !!. وغير بعيد عن هذا النهج والمستوى الرفيع من الخطاب والتواصل، ساهم العديد من "كبار" الأدب في إسداء النصح للمبتدئين وفي تشجيع الجيل الناشئ على الاحتكاك بالكتابة؛ أمثال «تولستوي» و«تشيخوف» و«غوركي» و«والت وايتمان» و«طه حسين» و«ميخائيل نعيمة».. وآخرون بلغوا من الكبر الأدبي عتيا- بمعيار جائزة نوبل -كالبيروفي «ماريو فارغاس يوسا» في رسائله الشهيرة إلى روائي شاب، حيث كان يردد عبارته:" كونوا وحيدين ولا تصدقوا الإطراء !"، بعيدا عن كل خطاب تقزيمي وأحكام تبخيسية قاتلة وعبارات الاحتقار والاستهزاء.

لاشك أن الكتابة الإبداعية الرصينة مرتبطة باستيفاء شروط عامة، تجعلها مقبولة التصنيف في حقول الأدب المختلفة؛ ولا شك أن الرداءة والركاكة و"الشخبطة" سرطانات بدأت تنخر

جسد الإبداع الأدبي من أعلاه إلى أسفله، وذلك مردُّهُ لعوامل شتى يحتاج بسطها لمقام آخر؛ ومن المؤكد أن كل أديب بدأ يخطو خطواته الأولى في درب الكتابة الطويل والشاق، يحتاج لمن يدله على ما استُغلق أمامه من أبواب تستدعي أقفالها مفاتيح خاصة. فلكل لعبة قواعد خاصة وخارطة ينبغي اتباعها، وما الأدب بمعزل عن تلك القواعد، بالرغم مما يتيحه من فسحة منداحة من الحرية والاستقلالية. لكننا نؤكد على ضرورة مخاطبة الأجيال الناشئة بلغة محقونة بجرعات كبيرة من التشجيع ومن التفاؤل ومن تذليل الصعاب، كي لا نخسر المبدع بقتله مرتين - كما كان «بيسمارك» يدعو جنوده الألمان بشأن الجنود الرُّوس -، أولا بإلقاء مسودات حروفه في أقرب قمامة على أنها لا تستحق القراءة ؛ ثانيا بدعوة هذا الناشئ باحتراف شيء آخر غير الكتابة. هنا يتناسى أديبنا " العظيم " أنه ذات يوم كان يقضي الساعات الطوال جالسا على أعتاب بيوت "الكبار" يستجدي قراءة عمله وتلقي ما يرضيه من ملاحظات !!

قد يغتر بعض الكتاب بإصدار مؤلف أو مؤلفين، وبتداول أسمائهم على إعلانات بعض الأماسي الأدبية هنا وهناك. كما يمكن للعُجْبِ أن يُساوره بلقاء إذاعي أو تلفزي، معتبرا نفسه قد ملأ الدنيا وشغل الناس، لكنه ومع ذلك، يفترض به النأي عن لغة الأبراج العاجية المتعالية، خصوصا إزاء مبتدئ يتلمس حظوظه الأولى مع الكتابة؛ ومهما بلغ امرؤٌ منا درجة من درجات الكمال، فالتمام لا يعقبه سوى النقصان، والكمال نفسه - بتعبير الفرنسي «بليز باسكال» - لا يخلو من عيوب.

10 ماي 2017

كثرت المصائب واليد واحدة !

بعضهم يدعو لرفع اليد دفاعا عن مطلب رفع نفقات التعليم إلى أربعٍ في المئة، وبعضهم يدعو لرفع اليد لمساندة إخواننا في الريف لتحقيق مطالبهم الاجتماعية المشروعة؛ وبعضهم يدعو لرفع اليد احتجاجا على وضع رجال التعليم المتضررين من " ظلامية" المذكرات الخاصة بالحركات الانتقالية؛ وبعضهم يدعو لرفع اليد لمقاطعة مهرجان موازين وإخوته؛ وبعضهم يدعو لرفع اليد احتجاجا على ما احتقبه "ابن الدرهم" من تعسف وبغي... فكم عدد الأيادي تكفينا إذن لمشاركة المتضررين هنا وهناك، تحقيقا لمبدأ التضامن والمشاركة والنضال ؟

لا أظن أن مسالة رفع اليد تجدي إزاء مكونات بشرية لا تؤمن بالأساليب السلمية الحضارية المعروفة على الصعيد الأوربي والغربي، لأننا فقط، دون أن نختط لأنفسنا جسر حوار هادف يروم تبادل وجهات النظر، في أفق تحقيق الانتظارات الشعبية. إذا كنت بصدد محاورة مسؤول ألماني، يحاول جاهدا إقناعك بمقولات "غوته"؛ والبريطاني بمقولات "شكسبير"؛ والفرنسي بمقولات "هوجو"... أما حين تسعى في إقناع مسؤول عربي فإنه فورا يأتيك بدبّابة، طالبا منك إقناعها!

لو كانت لنا أيادٍ بعدد أرجل "أم الأربعة والأربعين" لما كفتنا في محننا اليومية، خصوصا مع تنامي المعضلات الاجتماعية يوما بعد يوم، وتراكم ملفات وقضايا تتعلق بمصير شرائح متعددة..

18 ماي 2017

شاخ الشباب

شمـــسُ النهـــار بَـــدَتْ لي وهْيَ مـــشرقةٌ
منهـــا اســـتفاقَ شـــعاعُ الضـــوءِ وانفلَتَـــا
وغـــاديًا أرمُـــقُ السَّـــماءَ ســـاكنةً
وفي التفاصـــيلِ مُقْلَتـــايَ حلَّقَتَـــا
حـــتى التقيـــتُ بطـــيرٍ أبْـــيَضٍ عَرَضًـــا
يـــبكي وقـــد أنْكَـــرَتْ عينـــايَ مـــا رأَتَا
بادرتُـــهُ مُـــسْرِعًا فقلـــتُ مندهشًـــا:
يا صـــاحبي هـــلْ سُـــقِيتَ الهَـــمَّ والعَنَتَـــا؟
أشـــبَاهُكَ الطّـــيْرُ للجـــوزاءِ ناطحـــةٌ
رعـــدٌ جناحـــاكَ مســـموعٌ وإن صَمَتَـــا
أجـــابني وهْـــوَ يـــرثي حـــالَهُ حـــزَنًا
الحـــربُ تُـــوهِنُ مِقْـــدامًا ومُنْصَـــلِتا
أنا غُـــــرابٌ أيَا أُخَيَّ بيَّضَـــــهُ
غـــدْرُ الرّصـــاصِ إذا مـــا نحْـــوَهُ التفَتَـــا
بـــكى دمشْـــقًا ولم يشـــعُرْ بـــه أحـــدٌ
بـــين المَـــواتِ وهـــذا شـــأنُ كُلِّ فَـــتَى
شـــاخَ الشـــبابُ وشـــابوا قبـــل شـــيْبَتِهم
أضحـــتْ تُنـــاديهمُ الأعـــمارُ: يا أبَتَـــا!
للدّهـــرِ أســـئلةٌ تُطْـــوى عـــلى حُجُـــبٍ
لا تسْـــأَلَنْ فيـــهِ مـــا الذي جَـــرَى ومـــتى

23 ماي 2017

الريف وحائط المبكى !

سألني أحدهم عبر الفضاء الأزرق: لماذا لم تُبْدِ رأيك بالتصريح أو بالتلميح حول حراك الريف وما استجد هناك من تطورات؟

أجبت السائل قائلا: لسنا يا سيدي في عصر فولتير، آنَ كانت الآراء تقلب الدنيا بطنا على ظهر...من ذا الذي يهتم للآراء ونحن ندعي مظهرا وكذبا عبر ما ننشره من مقاطع فيديو أهل الريف أننا حقيقة نهتم لأمرهم وأننا أحسسنا حقا بآلامهم؟ هل يمكن أن ننكر أن مجمل كلامنا في النهار يمحوه الليل، والعكس بالعكس؟ هل ننكر أننا ننشر يوميا تدوينات تعاطفية مع الجائعين والمحرومين والمكروثين بقول شاعر أو بعبارة فيلسوف، وحالما نكون ببيوتنا ننسى كل شيء، الريف والجائع والوطن والله كذلك؟ هل ننكر حقا أننا ننشر يوميا آيات قرآنية تحث على التضامن والتعاون والتسامح، ونحن خلف الفيسبوك كائنات زواحفية تعشق دماء الآخر وتصبو لمحوه من لائحة الكائنات البشرية، حتى ليكاد أبو الحكم وأمية بن خلف أرحم منا بكثير؟

ثم بماذا أردت أن أجيبك؟ وعلى أي حائط مبكىً تريد أن أبكي؟

لو قلت إنني أبارك الحراك بصيغته تلك، لنُعتُّ بالانفصالية والتحريض على الفتنة !

لو قلت إن الربيع المغربي بدأت إرهاصاته، لقيل على الفور إنني أحرض على الثورة، وما حال سورية واليمن وليبيا عنا ببعيدة، وليعتبر من يعتبر !

لو قلت إنني أدعو المغاربة أن يخرج صغيرهم وكبيرهم من الشمال إلى أقصى الجنوب مالئين الشوارع، لعل حوائجنا تُقضى، لقيل هذا مجنون، ولتمّ إعدامي أمام شاشات الجزيرة والبي بي سي والفوكس نيوز !!

لو قلت إننا نرضى بالجوع وبالمهانة وبالذل وبالاحتقار المؤسسي، ملتقطين من فتات الموائد ما يفيض على كلاب الأغنياء، مرددين -كاذبين - " نحمد الله ونشكره "، لقيل على الفور أنت لا تهتم لفقراء الوطن ومستضعفيه !!

لو قلت إننا في جنة الفردوس من العدالة الاجتماعية ومن العيش الكريم، لقيل إنك مسيلمة هذا العصر !!

فبأي الإجابات تريد أن أرضيك أخي السائل؟

الجمال ما سينقذ العالم !

آمنت دائما ومازالت أومن بالهامش وبقدرته على رفع رأسه وإثبات ذاته مهما تكالبت عليه سياسات المركز الإقصائية حد الإفناء أحيانا. وهنا، أبعث بالتحية الخالصة، رافعا قبعتي لشباب منطقة المزار الواعد والطموح، القادر على صناعة الاستثناء والاختلاف، والمدرك أن التغيير الآن ينبت من الضواحي والهوامش بعيدا عن أضواء المركز الزائفة وماكينته الإعلامية التي لا تفرق بين الغث والسمين...المزار مرة أخرى تصنع الحدث وتمزج الشعر الإنجليزي والإسباني والأمازيغي والعربي في توليفة قلّ من ينتبه إليها.. في عوالم الشعر تجدون الإنسان استحال روحا صافية تبحث عن مواضع الجمال على هذه الأرض التي مُلئت حرسا شديدا وشُهُبا وحروبا دامية... لقد صدقت يا "ديستوفسكي" حين قلت: "الجمال ما سينقذ العالم ".

تحية تقدير لكم شباب أبعاد المزار، وإنني أفتخر بكم كما افتخر الفرزدق بآبائه، وأقول:

أولئكَ أصحابي فجئني بمثلهم إذا جمعتنا يا جريرُ المجامعُ

6 يونيو 2017

بين "آيات" ترامب وآيات القرآن !!

للسياسة أهلها وعرّابوها، ولا أحب سماع خطاباتها وحتى اشتمام روائحها أينما كانت...لكن بالمقابل يحز في النفس ما تبثه بعض الأنظمة من فُرقة وقطع أرحام وتناكد، في الوقت الذي يسعى الآخرون من الطرف المقابل من الكرة الأرضية إلى التجمع والتعاون والاتحاد....

الأزمة ليست أزمة قطر بالدرجة الأولى، فالأخيرة اقتصادها يمنحها حصانة ضد الجوع والعطش، إنما الأزمة أزمة "فكر" الطغمة الحاكمة، التي سعت إلى تنفيذ أجندات غربية دون استحضار ما يجمع الشعوب العربية من أواصر المرجعيات المختلفة على امتداد تاريخ طويل، حتى وإن افترضنا خروج "قطر" عن النهج السليم والخط السياسي العام.

يذكرني موقف المقاطعة بموقف يوسف عليه السلام مع إخوته، فلقد سعى أولئك إلى إفنائه، بل إلى إعدامه جملة واحدة، وكذا بوقف "وثيقة" قريش التي حاصر بها القرشيون أتباع النبي (ص) في شعب أبي طالب، وكذلك سعت الدول الخليجية بقيادة سعودية ودول أخرى فقيرة إلى رفع لواء الحصار الاقتصادي تجنبا للغضب الأمريكي!!

فماذا عساه يقول السديس وأئمة الحرم المكي في جُمَعِ هذا الشهر الفضيل، شهر الغفران والرحمة والتسامح وكل الكلام المعسول هذا؟ وبأي خطاب سيقنعوننا بعد الذي حصل؟ أم أن لوعاظ السلاطين "آيات" أخرى غير آيات القرآن يستشهدون بها؟

12 يونيو 2017

أعياد كاذبة !!

كيف تُراه يحتفل بالعيد من:

1 - لم يجد لعياله طعاما طيبا وكسوة لائقة؟

2 - يطوي كيلومترات ليستسقي من بئر أو من مجرى مائي؟

3 - لازال يستضيء بالشمع والقنديل؟

4 - يتعثر ببغلته في فجاج غير معبَّدة؟

5 - لم يجد لأمه العجوز مستشفى لتضميد عجزها وشيخوختها وآلامها؟

6 - لم يجد لعياله مدرسة تجعل منهم بشرا متعلما؟

7 - يعاني إخوانه الآن ويلات التشرد والموت والنزوح والحصار جراء الحرب والسياسة؟

ملاحظة: التساؤلات ليست معروضة للبحث عن إجابات، فكلنا يعرف الجواب سرّا، إنما هي من باب من يعرضها على النفس التي تأبى إلا أن تأخذ دور الممثل على خشبة مسرح اسمه الحياة.

24 يونيو 2017

على خطى MR BEAN

مستبشرا بانتقال مفاجئ من المناطق القروية النائية إلى منطقة محسوبة إداريا على المناطق الحضرية في إطار عملي في التدريس، ظننت لأول وهلة أن الموقع الجديد سيكون بلا مثنوية أفضل حالا من سابقه المنعوت بالقروي؛ فمجرد الحديث عن القرية وعن المدينة في بلادنا يعطيك القصة كلها، دون اللجوء إلى إحكام صنعة السرد والوصف. إلا أن ظنوني ذهبت أدراج الرياح، وما زاد بصري على أن اندهش من هول ما بلغته مدارسنا من حال دراماتيكي يؤسف له ويُخجل من وضعه قيد النعت والوصف...

لن أتحدث كعادة العرب عن " نظرية المؤامرة" مؤكدا أو مفندا إياها، ولن أعيد قراءة " البكائيات" على أطلال الماضي المجيد والتليد، ولن أتقمص دور القاضي لأحمّل معرّة واقعنا الأليم للدولة تحديدا دون سواها، لسبب بسيط، كون الدولة باختصار شديد مجموعة أفراد ومؤسسات، أي ما معناه " أنا وأنت " بأشد ما يكون الاقتضاب.

فلا تجعلوا مقرات عملكم "مزابل" و"إسطبلات" مُخجلة بدعوى أن الدولة لم تقم بواجبها نحو رعاياها كما يجب، كأن ما نقوم به نحن المدرسين بلغ مثابة الكمال والتمام... كن ذاك الرجل " الرشيد "، الساعي إلى إصلاح محيطه بما تسعفه به الظروف والإمكانات، حتى وإن اقتضى الحال ابتداع حلول غير متوقعة من قبيل ما جاد به ذكاء الممثل البريطاني " روان أتكينسون " الشهير بـ" مستر بين " خلال مسلسلاته الكوميدية، دون إنفاق الوقت في نظم قوافي ذمّ وشتم هذه المؤسسة أو تلك... اعمل وغالب النوم، فلعل الدولة تستيقظ يوما !!

26 يوليوز 2017

إلى صديق...

أمازلتَ في خِدْرِ الفِراق تُحادِثُ
دموعَ الأسى والدّمعُ للهجرِ وارِثُ؟
أَكانَ الذي بين الخليلينِ كِذبةً
أم اختلطتْ بالصّافياتِ الخبائثُ؟
إذا كُنتُ بين الصّحْبِ خِلاً مُقصِّراً
فللناسِ أخطاءٌ وللعهدِ ناكثُ
لعمْري ليبقى الوُدُّ وُدّاً بلا جفًا
وإن فرّقت بين الرجال الحوادثُ
وما مَزّعَ الأوراق غيرُ غُصونها
ألمْ يفترق سامٌ وحامٌ ويافثُ؟
فما كنتُ أنسى عهدَ خِلّيَ لحظةً
لأنّكَ ما بين الجوارحِ ماكثُ
عرفتُ أُلوفَ الخلقِ والدَّهرُ شاهدٌ
فَستَالله ما بيني وبينَكَ ثالِثُ

18 غشت 2017

أحبُّ شيء إلى الإنسان ما مُنعا !

سُئل المفكر السعودي إبراهيم البليهي ذات مرة: من هم أحطُّ الشعوب؟ فأجاب بلا تفكير: العرب، ولما سُئل: لماذا؟ أجاب على السّجيّة: لأنهم أحرقوا مؤلفات ابن رشد !

ارتباطا بهذا الموضوع القديم والجديد في الآن نفسه، استغربت - ونحن في زمن الغرابة حقا - منع توقيع كتاب "صحيح البخاري، نهاية أسطورة" للأخ الصحفي رشيد أيلال من لدن عمدة مراكش، مع العلم، أن الكتاب يحمل رقم إيداع قانوني ككل المؤلفات التي تصدر تحت وصاية الخزانة الوطنية.

ينبغي على عمدة مراكش أن يدري جيدا أنه يخدم صديقنا من حيث يدري أو لا يدري، وهنا أذكره بقول قيس بن الملوّح:

مُنعتَ شيئا فأكثرت الولوع به أحب شيء إلى الإنسان ما مُنعا

هل تعلم أيها العمدة المحترم أن المنع قد منح كتبا " مغضوبا عليها " دعاية عكسية وشهرة غير متوقعة؟؟ أدعوك لقراءة كتاب " أشهر مئة كتاب منعت عبر التاريخ " لمؤلفه نيكولاس كارولبدس لتدرك ما أقوله. أوليس المنع ما أعطى الشهرة الواسعة لرواية الخبز الحافي؟ وبنات الرياض؟ وآيات شيطانية؟ وغيرها كثير..

خلّوا بين الرجل وبين الناس، فالأفكار، وإن حاولتم مصادرتها اليوم، لها أجنحة تستطيع التنقل بها أينما شاءت كما عبّر عن ذلك الراحل يوسف شاهين.. اتركوا الرجل يفصح عن أفكاره، أنصتوا له واستوعبوا مقالته، بعدها ردّوا على ما أتى به بفكر آخر وقناعات أخرى، في جو من الحوار الهادف والجاد...

رحم الله الماغوط الذي قال: إذا أراد الألماني إقناعك برأيه استشهد بغوته، والإنجليزي بشكسبير، والفرنسي بموليير، والروسي بديستوفسكي.. أما العربي إذا أراد إقناعك، أتاك بدبابة مدججة بالقنابل المدمّرة !!!

دمية جميلة خالية من الحياة !

عندما تغدو المقررات الدراسية مجال تَنَدُّرٍ وتنكيت، فاعلم أن الوضع يحتاج إلى أكثر من وقفة تأمل في النتيجة والمآل..

لما تحدث "رولان بارث" عن لذة النص وعن ضرورة ضخ الحياة في الخطاب، كان واعيا تمام الوعي بوجود قارئ ينتظر قبالته، يبحث عن غواية ما وعن "متعة" ما يستطيع بواسطتها الاسترسال في قراءة المكتوب مستمتعا بكل جملة وبكل مقطع. فيكون النص المقروء بلذة حتما قد كُتب باللذة ذاتها.. ومن هنا أتساءل، هل حققت النصوص المقررة في المنهاج الدراسي ما يسمى بلذة النص؟

إن على المشتغل بالنصوص التميز بين مفهومين: الأول معمار النص (بنية النص)، وهو بشكل عام ما يعرض له التحليل البنيوي أو العلاماتي من أنظمة سردية وبلاغية وأسلوبية.

والثاني: تَخَلّق النص بما يمثله من علاقات متبادلة بين الكاتب والنص وبين القارئ والنص من قبيل استكشاف المعنى والدلالات والتأويل واللذة.. طبعا لا تنتهي القصة هنا، فالنص يدخل مباشرة إلى فرن المتلقي، حيث يتلقاه شارحا إياه، متأملا ما يختزنه من قيم جمالية، حسب ما تؤكد عليه نظرية جمالية التلقي.

على هذا الأساس، كان من المفترض على الوزارة الوصية البحث عن لجان تأليف يدري أعضاؤها كيف يكتبون نصوصا "ممتعة" و" لذيذة"، مستحضرين متلقيا عنيدا اسمه "الطفل"، هذا المتلقى القادر على قتل المؤلف من السطر الأول !! ومن الغريب اقتصار الوزارة في كل ما صادقت عليه من مقررات على لجان تأليف غاصة بمفتشين وأكاديميين يجيدون لغة التقارير الجافة فحسب، إلا من كان ذا دراية بالكتابة الأدبية وهم قلة.

النصوص الأدبية المدرسية هي اختصاص الأدباء والمثقفين، أولئكم الذين تدربوا بما فيه الكفاية على صياغة الجمال بلغة ماتعة.. وليس بلغة تقريرية جافة مذيلة بكلمة " المؤلفون "، لتصبح النصوص بعد خروجها من عنق الزجاجة مجرد دمية جميلة خالية من الحياة، فمتى يفهم " المؤلفون " إذن أن النص لغة ومعنى ولذة؟؟

29 أكتوبر 2017

سبحان من يُحيي العظام وهي رميم !

لم يكن لهذا الكتاب[1] أن يرى النور يوما لولا مشيئة الله، ولولا إصرار أديبنا العربي بنجلون على عرضه للنشر، مؤكدا عليّ كونه، أي الكتاب، ينقل إلى القارئ بعضا مما يمكن التعرف عليه حول ما يحيط مهنة التعليم - خصوصا في قطاعه الابتدائي- من إكراهات وتحديات يعرفها الممارس فحسب.

الكتاب ثمرة مجهوذات بُذلت في بيروت وفي فلسطين...أسأل المولى عز وجل أن يجازي اصحابها كِفاء ما تحملوه من مكابدات في الطبع والإخراج والنشر في مرحلة ثالثة.

شكر خاص أخص به اتحاد الكتاب الفلسطينيين في شخص الدكتور علاء نعيم الغول، القائم على الكتاب طباعة ونشرا وتوزيعا... كما لا أنسى الأخ المبدع محمد أوحسين، الذي أشرف على تصميم غلاف الكتاب.

للإشارة فقط، الكتاب كُتب آخر سطر فيه سنة 2013، ولولا تأكيد أستاذنا بنجلون على تسليط بعض الضياء عليه، لبقي سطورا منسية ورميما لا محل له من الحياة...

30 أكتوبر 2017

1- المقصود كتابنا المعنون بـ: مدرس تحت الصفر.

كن مطمئنا، فلازلت صغيرا !

في حديث مُعجب مع أحدهم، أصَرَّ على أنني حاصل على شهادات أكاديمية عالية، لكنني أحجبها وأخفيها عن الملأ، درءا للحسد أو خوفا من مغبة السقوط في العُجب.

أقول لك يا أخي: ما عساه المرء يجني من طمس بعض معالم هويته الشخصية؟ وما العيب في حيازة بعضهم إجازة أو دبلوم دراسات عليا أو شهادة دوكتوراه أو "بورد" أمريكي حتى أو... أو.... هذا، ولعمري، غاية المراد من العباد، وأفضل ما يطمح إليه كل واحد يحمل عقلا بين جنبيه، كيف لا، والطموح أهم ما يميز الإنسان عن الكائنات الأخرى؟

فيا أُخَيَّ، وليطمئن قلبك، فمساري التعليمي توقف أكاديميا منذ سنة 2000، أي، السنة التي حصلت فيها على شهادة الباكلوريا (شعبة العلوم التجريبية)، بمعنى، أن قدميَّ هاتين لم تُعتِّبا قط جامعة أو مؤسسة مشابهة منذ سبع عشرة سنة...لهذا، يمكنك أن تطمئن على مستواك وعلى ما تحصّلت عليه من درجات على المستوى الأكاديمي، فإني مُكتفٍ ههنا بمعرفتي المجهرية، وببعض قراءاتي العشوائية غير المُؤطَّرة، فهي، على بساطتها، تُؤمّن لي بعضا من قوت، يجعلني ولله الحمد لا أتكفَّفُ الناس، ولا أقف على أعتاب بيوتهم...

زادك الله رفعة وزادك مثابة وقدرا... ولا تنس أن المرء لا يضيره صغر حجمه، فبعض الأشياء لا تحظى بقيمة إلا إذا كانت صغيرة !

5 دجنبر 2017

أبو ك صاحبي !

(...) ومما يلفت النظر كذلك في خضم مقابلات ولوج مركز التكوين تلك، بعض مظاهر الاحتيال والمكر والخداع، بل وأحيانا امتدت "طفولية" بعض المُمتَحِنين و"دناءتهم" إلى استعراض عضلات معارفهم وعلمهم، وفي أحايين أخرى تجدهم يستهزؤون بنا ويقهقهون من مداركنا الهزيلة... فمن تقدم منا بشهادة علمية سُئل عن "داحس والغبراء" ولامية "الشَّنْفَرى" وعن البلاغة والبيان في خطبة "الحجاج بن يوسف" في أهل الكوفة !!، أما من تقدم بشهادة أدبية فيُسأل عن "أصل الأنواع" لـ"داروين" ونسبيتي "أينشتاين" العامة والخاصة وعن البنية الذرية من منظور "شرودنجر"!!

أما الفئة الأخرى، ذات الحظ العظيم، فكانت ممن أفاء الله عليها بنعمه الواسعة، فكانت المقابلات معها في العموم برداً وسلاماً. بعضهم لم يُسأل إلا عن حال الوالد والوالدة، وفي أعسر الحالات وأشدها حرجا، يُطلب من المترشح التمييز بين العواشب واللواحم الحيوانية انطلاقا من صورة!! مغادرين قاعة الاختبارات الشفوية بابتسامات مِلْؤُها الرضى والغبطة؛ مُحَمَّلين سلفا بأسمى تهانئ القبول في الوظيفة الجديدة؛ أما الحسناوات، ذوات الصولة والصولجان، فهن اللائي يستجوبن المُستَجوِب، ولا يجدن حريجة في ذلك...

مقتطف من كتاب: مدرس تحت الصفر.

26 دجنبر 2017

العام الجديد والإسلاموفوبيا !!

حُقَّ للدول الغربية، وهي في غمرة الاستعداد لاستقبال عام جديد، أن تملأ شوارعها ومرافقها العمومية الحساسة " حرسا شديدا وشُهُبا "؛ وقد أعربت العديد من تلكم الدول عبر ماكيناتها الإعلامية عن تخوفها الكبير من الجماعات الإرهابية النيكروفيلية السَّافكة للدماء بمباركة سماوية محتومة. والواقع على كل حال ليس بجديد، فمنذ مطلع الألفية الثالثة، بدأت دول العالم الأول بتغيير سياساتها إزاء الأقطار المعتنقة لدين متطرف، يعتبر الآخر، ذاك "الكافر" الملعون، الذي لا يستحق الحياة، كونه لا يدين بإسلامه هو... حبكة القصة ليست هنا في الحقيقة، هذا مما لاكته الألسن منذ عقود؛ الداهية، أن ترسل لأحدهم بطاقة معايدة وتهنئة بحلول عام " غريغوري" جديد، بمعنى، تذكيرك إياه بأن الكرة الأرضية قد أتممت دورتها الكاملة حول الشمس، لا أقل ولا أكثر؛ فإذا به يصدمك ب" شناعة" ما قمتَ به، وبفداحته خصوصا لتزامن ذاك الفعل مع احتفالات " المسيحيين" بميلاد المسيح عليه السلام !! وخلاصة ما أومأ إليه، أن التهانئ محرم تبادلها، وهي رجس من عمل الشيطان.

إذا كان الوضع هكذا لدينا، أفلا يحق للآخر المُفارق أن يحشد صواريخه وترساناته الحربية اتقاء شرّنا المستطير؟ مع إيماني الراسخ أن الفكر النشاز لا يمثل الفكر الجمعي، وأن التشدد والتطرف شذوذ عن النمط العام، لا يُعتبران حُكما يُقطع به. فإن كنت قد أسأتُ التصرف ببعث بطاقة تهنئة، فكيف يكون التصرف السليم إذن؟ بنشر بطاقات التعازي، وصور أشلاء جثث ضحايا الحروب، وصور بقع الدماء الحمراء هنا وهناك؟ أم بنشر الفكر الداعشي يمنة ويسرة، وتثبيته في النفوس والوجدانات المتهالكة؟

أدري جيدا، وانا ابن هذا الوطن، أن السنة المقبلة لن تكون إلا كسابقاتها وصولا إلى سنة حصول المغرب على استقلاله " الرمزي "، وأدري جيدا أن الواقع لن يتغير مادامت الأجيال تعيد إنتاج نفسها فكرا وثقافة وقيما، بل، لست أجازف إذا ما تشاءمتُ - والمؤشرات كلها لا تدعو للتفاؤل - وقلت: إن ما ينتظرنا غدا سيكون أسوأ مما شهدناه ومررنا عليه، وكل شيء يزداد فيك سوءا يا وطني كما أنشد درويش.

فعلى الأقل، ونحن في قفص مقفل، دعونا نغرد، وإن كان التغريد لا يضمن لنا مفاتيح لأقفاصنا وسجوننا، هذا من التغابي المحمود، وتقبل أُخَيَّ بطاقات " سعادة" مزيفة، فعلى الأقل ستضمن لك سعادة في لُحيظة ما. ولعلنا نختم قائلين:

لا تنتـظرْ فـرحاً يأتيـك في بلدٍ
باعِ السماءَ وباع الأرض والفرَحَا
وفرَّخ الحـزنُ في أعشـاشه عُمُرًا
وكُلُّ فــردٍ عـلى أحـلامه ذُبِحا
واعـلمْ بـأنّكَ مـنسِيٌّ ومُـحتقرٌ
كالكلـبِ يحـظى بعظمٍ كُلّما نَبَحَا

31 دجنبر 2017

يا نفسُ صبراً فعُقبى الصَّبر صالحةٌ...

لم يكن في الحسبان قطّ أن نبلغ ما بلغناه اليوم، عقب اختتام فعاليات ملتقى "في حضرة الضاد" الثقافي في دورته الأولى، خصوصا وأن الفكرة في أصلها سباحة عكس التيار، أما وضعها في حيز التطبيق والأجرأة، فأمر دونه خَرْطُ القتاد كما قال العرب الأُوَل... فالانخراط في نشاط ثقافي مجازفة بكل المقاييس، في ظل اهتمامات البشر الراهنة والمعروفة على كل حال.

فتحية لكل من تجند في كواليس النسخة الأولى فردا فردا، وتحية كذلك لكل من تجشم عناء التنقل والسفر، وتحية أزكى لكل المشاركين، أولئكم الذين أنكروا ذواتهم بما حملته من وهن ومرض، مثبتة أن الرياح أحيانا ينبغي أن تجري بما تشتهي السفن... تحية كذلك لكل من حضرت ظلالهم وغابت أجسادهم لظرف ما...

أخيرا أردد مع القائل:

قـفْ بي فبعـضُكَ محـزونٌ ومُنْصَرفُ
قفْ بي فما زالَ في أحْشائِكَ الشّـرَفُ
يحـــتازُنا الـــرّمْـلُ لا أذكارَ يُـنْجِـبُها
وحـــوْلَك الحَرّ مـدفـوعٌ ومخـتَلِفُ
قِفْ بي فألْـــفُ مَساءٍ كادَ يَخْـنقُـني
بلعْـتُهُ وانْـتَـشى في صـدريَ الألفُ

إلى لقاء آخر...

7 يناير 2018

أساتذةَ الجامعات، رفقا بطلابكم !

لما أراد " أدولف هتلر" أن يتقمص دور التربوي الحكيم في كتابه اليتيم "كفاحي" قال:" إن الطفل في المدرسة يجب أن يتعلم كيف يكون صامتا، ليس فقط عندما يُوجَّه إليه اللوم حقا، بل عليه أن يتعلم أيضا - إذا دعت الضرورة - أن يتحمّل الظلم في صمت." ؛ طبعا لا يُستغرب أن يصدر هذا الكلام الداعي إلى التذلل والتصاغر من سفاح دموي لا يتقن سوى لغة الموت والدم، لكنني مع ذلك أقتبس من كتابه هذه الكُليمة لأنها تنطبق على طلابنا في رحاب جامعاتنا الوطنية.

تعالت شكاوى الطلاب والطالبات كما كانت دوما من "فوضى اللغات" التي يصطدمون بها عند ولوج مسالك خاصة في التعليم العالي؛ والحديث بداهة عن الفرنسية وعن الإنجليزية، أما اللغة العربية فهي لغة جمل ولغة زوايا كما يدعي بعضهم. لكن وللأسف، تبقى سياسة الأذن الصماء ذاك العُرف الموروث ما الدائم الذي تجابه به مشاكلنا وصيحاتنا. فهذا يستحسن إلقاء محاضراته بالفرنسية، وذاك بالإنجليزية، وبينهما من يزاوج بين اللغتين، أو تراه يُعَرِّبُ تارة ويُعَجِّمُ أخرى، ظنا من أولئكم أن مقاعد المُدرَّجات ملأى بأشباه موليير وزولا وديدرو وشيكسبير وديكنز وأورويل وغيرهم، مُتَناسين أنهم، أي الطلاب، مجرد صنيعة نظام تعليمي هش متهالك، اعتمد ولازال يعتمد على شحن الذاكرة بقواعد وبمعارف جافة خالية مما يسترعي انتباه التلميذ مهما كانت درجة تركيزه. فمن أين يستسلف الطالب "فرنسيتك" و" إنجليزيتك" أيها الأستاذ، وهو لازال يتخبط في لغته العربية التي طفق يدرُس بها ثِنْتا عشرة سنة؟ وكيف تُراه يستوعب محاضرة " مُفَرنسة " من ألفها إلى يائها أمام عجزه التام وجهله بأبسط قواعد لغة يعتبرها جسما غريبا يسمعه لأول مرة؟

هذه تدوينة قصيرة لا تسع لمناقشة مشكل التعريب ومختلف حيثياته، أكتفي فيها بتنبيه البعض، ممن اعتلوا كراسي الأستاذية، إلى ضرورة الرفق بطالب تكالبت عليه الأنظمة التعليمية من جهة، والظروف المادية من أخرى، وإلا فمستويات بعض " الأساتيذ " - باستثناء من طوروا أدوات اشتغالهم - المعرفية والتواصلية لو وُضعت على المحكّ، لأسالت الكثير من المداد، والمقام الآن ليس لذلك الموضوع الحرج على كل حال...

فلا بأس إذن من السَّير سيرَ الأضعف، دون السقوط في حوارات " الطرشان" كما يقال، فلا الطالب يَفهم لغة الأستاذ، ولا الأستاذ يتحدث بلغة يفهمها الطلاب، فيضيع الطالب والمحاضرة معا. وعلى كل حال، لست هنا متقمصا دور محام يرافع عن طلبة الجامعات، إنما أنا

ناقل شكوى فقط، كي لا يستمر إذلال أولئكم الضحايا مزيد إذلال لمجرد أنهم لا يتقنون لغة شكسبير ولغة موليير، وكي لا يصدق عليكم أيها الأساتيذ المحترمون قول أنيس منصور: " إذا أردت إفساد دولة، فسلّمها لأساتذة الجامعات !!".

16 يناير 2018

ثورة الهامش... الجامعة الشتوية نموذجا

أمام كل أشكال تجريف الوعي الإنساني وتغييبه، بل وإفنائه في مرحلة نهائية، الممارس من لدن جهات تحمل أجندات مسمومة وبرامج قاتلة؛ ووسط كل هذا الركام من الشحنات السلبية المطبقة على وجداناتنا هنا وهناك، سعت بعض الفئات المتنورة من هامش أيت ملول (منطقة المزار تحديدا) إلى المجازفة والسباحة ضد التيارين الفكري والقيَمي العامين، في محاولة منهم إلى نفخ روح جديدة في الحياة الثقافية بالمنطقة ككل، وضخ دماء سائلة في مسار التنمية والحركية الجمعوية المعهودة على شباب وشوابّ المزار عموما.

إن قدرة أولئكم على الصبر والثبات لستّ سنوات متتالية، ومجابهة كل صنوف التعذيب والإرهاب " البيروقراطيين" الممارسين على جمعيات المجتمع المدني، خصوصا إذا تعلق الأمر بأنشطة ذات بعد تنويري وتكويني، مقابل أنشطة " الرصيف" الفاقدة لبوصلة الهدف والمعنى؛ كل ذلك يدل على "الاستثنائية" التي بدأ الهامش يصنعها - كما كان دائما - ويطل منها على مركز يملك كل شيء ولا يساهم في أي شيء !! كما يدل على اعتقاد ترسخ لدى تلكم الثلّة، مفاده أن التأثير الإيجابي في الوعي الجمعي لا يتأتى سوى من مداخل وأبواب الثقافة والفكر، وهنا التقى تفاؤل الإرادة مع تفاؤل الفعل. وإذا كان الفيلسوف البريطاني " برتراند راسل" يقول: "إن تقدم الحضارة الإنسانية كله مدين فقط لبضعة مفكرين ومبدعين"، فالقول نفسه ينطبق بشكل أو بآخر على شباب صنعوا لنا أملا يمكن الاستئناس به - على الأقل حاليا - في خضم السواد العارم والجارف لكل بياض محتمل.

27 يناير 2018

صديق في زمن القحط !!

قال الشاعر جميل الزهاوي:

عاشِـــرْ أُنَاساً بِالـذَّكَـاءِ تَمَيَّـــزُوا

واخترْ صديقكَ من ذوي الأخلاقِ

وممن كان ينطبق عليهم هذا القول، الصديق والأخ وأستاذي "رشيد بن بيه"، الأستاذ الباحث في مجال السوسيولوجيا. قد جمعتني بفضيلته فترة الصبا والدراسة، مذ كنا ننتعل أنصاف النعال، ونأكل ما لا يُؤكل، ونشرب ما لا يُشرب... كان الزمن زمن قحط طالَ كل شيء، حينها عدِمنا "يوسُفًا " آخر ينتشلنا من سِنِيّ عجاف جعلت كل سنابلنا تتيبَّس... ابتلعنا الماضي بكل مرارته وبقي الصديق الوفي صامدا أمام كل إغراءات الحياة التي تغير أحوال النفوس والأفكار والسلوك... علَّمني في الصغر ولازال يعلمني في ما بلغته أعمارنا، ومن ههنا أدعو له بموفور الصحة والعافية وبالتوفيق الدائم في حياتيه الشخصية والعملية.

30 يناير 2018

مسبحةٌ ومذبحة...

مُجَـــرَّدُ كـــرسيٍّ يُحِـــلُّ المُحَرَّمَـــا
ويُعْـــلي مقـــامَ المـــرءِ أنَّى تَكَلَّمَـــا
وأعْجَـــبُ مِـــن هـــذا العُجَـــابِ ومـــثلِهِ
إذا أطْلَـــقَ المِنْطِيـــقُ قـــولاً مُسَـــمَّمَا
يقـــولُ وقَـــدْ هَشَّـــتْ أســـاريرُ وجْهِـــهِ:
ســـتَكْفيكَ يا جـــوْعانُ "عـــشرونَ دِرْهَمـــا"
ستَضْـــمَنُ للعُـــريانِ ثـــوبًا ومَلْبَسًـــا
وتضـــمَنُ للظَّمـــآنِ في الحَـــجِّ زَمْزَمَـــا
وتُـــدْفِئُ مَنْكُـــوبي الـــبلادِ إذا أتَـــتْ
علـــيهم زُحُـــوفُ القَـــرِّ تَعْقِـــدُ مَأْتَمَـــا
وتَـــدْرَأُ عَـــنْ شَـــيخٍ عَليـــلٍ ســـقامَهُ
وتَجْعَـــلُهُ في النَّائبـــاتِ مُكَرَّمَـــا
فقـــد تشـــتري للزَّائـــرينَ قِـــرَاهُمُ
وقـــد تَشْـــتَري للجـــاهِلينَ مُعَلِّمَـــا
أبَانَـــتْ لنَـــا الأيَّامُ يا بُـــوقَ مِنْـــبَرٍ
بأنَّـــكَ طـــينٌ بالصَّـــلاةِ تَعَمَّمَـــا
تَسَـــلَّحْتَ بالتَّســـبيحِ بـــينَ جُمُوعِنَـــا
ومُنْفَـــرِدًا حـــتى ظَنَنْتُـــكَ "مَرْيَمَـــا"
رأيتُـــكَ في المحـــرابِ أشْـــعَثَ أغْـــبَرًا
شَـــبيهَ مَـــلاكٍ حـــينَ صَـــلَّى وَسَـــلَّمَا
وَلَمَّـــا رَأَتْ عَيْنَـــاكَ مـــالاً ومَنْصِـــبًا
جعَلْـــتَ وُعُـــودَ الأمـــسِ ظهْـــرًا وسُـــلَّمَا
إذا كانَ هـــذا مِـــنْ تَـــدَيُّنِ زاهِـــدٍ
ســـيَغْدُو أبـــو جَهْـــلٍ نَبِيًّـــا مـــن السَّـــمَا
ظَفِـــرْتَ بِجَهْـــلِ الحـــالِمينَ وجَنَّـــةٍ

مـــنَ الصَّـــمْتِ، فـــاتْرُكْ للعِبَـــادِ جَهَنَّمَـــا
أَتَى الشَّـــعْبُ نَهْـــرًا للوُضُـــوءِ فَـــإِذْ بِـــهِ
بُعَيْـــدَ جَفَـــافٍ بالسَّـــرَابِ تَيَمَّمَـــا

2 فبراير 2018

العنبرُ الخامُّ رَوثٌ في مواطنه..

" أمة تجهل ماضيها، حتما ستضيع مستقبلها "، هكذا قال مفكر الجزائر مالك بن نبي متوعكا مما أصاب الأمة من فقدان بوصلاتها، وضياع أهدافها المستقبلية. واليوم كان للأستاذ الباحث خالد ألعيوض شأن آخر، آنَ أعادنا خمسة قرون خلفًا، متحدثا في عرضه " إيكودار: الذاكرة والمكان" عن المخازن الجماعية (إكودار) المبثوثة في إقليم اشتوكة أيت باها، كأحد أقدم الأنظمة البنكية على مستوى العالم، مشيرا إلى وظائفها الاجتماعية والاقتصادية.

في ظل غياب الاهتمام الرسمي اللائق بهذا التراث الإنساني النفيس، ستلقى هذه الذخيرة التاريخية مصير كل تراثنا المهمل، كما أُهملت ذاكرتنا الجماعية، منتظرين غوث منظمات أجنبية تحمي ما خربته أيدينا وعقولنا. ولله در الشافعي قائلا:

العنبرُ الخامُّ رَوثٌ في مَواطنه وفي التغرُّبِ محمولٌ على العُنُقِ

25 فبراير 2018

خطأ شائع يا أستاذ؟؟

دَرَجَ في كلام الحكماء قولهم: إن خطأ الطبيب يُدفن في الأرض، وخطأ المهندس يسقط على الأرض، وخطأ المعلم يمشي على الأرض... والمعنى لطيف حقا، كونه يشير إلى فداحة خطأ المعلم مقابل أخطاء أصحاب المهن الأخرى، رغم أننا لا نستصغر أي خطأ يتعلق بمصير الكائن البشري.

سألني أحد تلاميذ المرحلة الثانوية عن (أي) الاستفهامية (وتأتي بصور إعرابية أخرى، والمقام ليس مقام تفصيل)، واستعمالها في صيغة التأنيث (أيّة)، مؤكدا أن أستاذه جزم أن لفظة (أيّة) محض خطأ شائع، ولم تستعمل قط في لغة العرب...كان أن أجبت التلميذ الحائر على الفور بأن استعمال اللفظتين وارد، وأعطيته مثالا واحدا آنذاك، ولم يحضرني غيره تلك اللحظة، وهو قول البحتري:

رحلوا فأيّةُ عَبرةٍ لم تُسْكَبِ أسَفاً وأيُّ عزيمةٍ لم تُغْلَبِ.

وبعيد بحث يسير وجدت اللفظة مُوردة في قول الفرزدق:

بأيَّةِ زِنْمتيكَ تنالُ قومي إذا بحري رأيتَ له عُبابا ؟

وفي قول الكُميت الأسدي:

بأيّ كتابٍ، أم بأيَّةِ سُنَّةٍ يُرَى حبُّهم عارًا عليَّ، ويُحسَبُ؟

وفي قول وَدَّاك بن ثُمَيل:

إذا استنجِدوا لم يسألوا من دعاهمُ لأيَّةِ حــربٍ، أم بـأيّ مـكانِ

وفي قول زهير بن أبي سلمى:

بانَ الخليطُ ولم يأوُوا لمن تركوا وزوَّدوك اشتياقًا أيَّةً سـلكوا

(أيةً بمعنى أيّةَ طريق سلكوا).

فلا يتعلق الأمر إذن بخطأ شائع، أو بلفظة لم ترد في لغة العرب، إنما الأمر يا أستاذي متعلق بالاستعمال الدارج والشائع للفظة (أي) في مقامي التذكير والتأنيث كليهما، والقرآن الكريم نحا هذا المنحى كذلك، مقتصرا على (أي) دون (أية)، مستعملا إياها في صور متعددة، فقد قالَ تعالَى (مع المفرد المؤنث): "وما تدري نفسٌ بأيّ أرضٍ تموتُ"، وقالَ (مع الجمع): "فبأيّ آلاء ربّكما تكذِّبان"... وغيرها. والله تعالى أعلم.

5 مارس 2018

"ستيفن هوكينغ" وألسنة العرب !!

لم يخلق عالم الفيزياء النظرية الأمريكي "ستيفن هوكينغ" في حياته المهنية زوبعة مثلما خلقها حادث وفاته، خصوصا بين إخواننا العرب، فبعضم بلا شك لم يسمع باسم هذا الفيزيائي إلا عبر صفحات مواقع التواصل الاجتماعي، جاهلين أصل الرجل وإنجازاته وتوجهاته العلمية أو العقدية على السواء.

لئن كان الناس لا يتحدثون عن الأشياء كما هي، بل كما يريدونها كما قال "عبد الله القصيبي"، فالعجب أكبرُه أن تجد بعض إخواننا للأسف يحتطبون ويشعلون مشاعلهم لينصبوا نارا عظيمة - كنار النمرود - ليحرقوا جسد "هوكينغ" قبل أن تبلغ ذمتُه خالقَه سبحانه وتعالى لينظر في شأنه، وهو الأعلم عز وجل بما وراء سُجُف الغيب، وله الحرية الخالصة في اختيار أي الموازين التي يجدها ملائمة لمعيرة أعمال عباده.

تأسفت حقيقة حين قرأت على صفحة أحدهم المسمّى "داعية مغربيا" -ومتابعوه بالمئات- عبارة: نفقَ الملحد هوكينغ... على أن "نفق" كما هو معروف في لغة العرب تعبر عن موت "الدواب" وليس الإنسان !!

خلاصة القول، أن يسعى المرء منا إلى الاهتمام بشأنه الداخلي، محاولا إصلاح أعطابه، ساعيا إلى العمل وإلى إعمار الأرض بما يخلفه من أثر في هذه الحياة. فالناس قد عملوا وسعوا جاهدين لتقديم النفع والصالح للبشرية، أما العقائد الشخصية فلها ربٌّ يتولاها، ولا أحد وضع الله مفاتيح الجنة والنار في كفه.

إلى أزمة أخرى...

16 مارس 2018

سقَطُ القريض !

مادام للشعر عيد، سأنقش على هذا الجدار الأزرق ما كتبته قبل ثلاث سنوات...

سَـــقْطُ القـــريضِ أتى عليـــه المـــاءُ
مُـــذْ قالـــتِ الآياتُ "والشُّـــعراءُ"
والتَّـــابعُ الغـــاوِيُّ جـــاءَ يزُدُّهـــا
صـــدْحًا بمـــا لمْ يصـــدَح الفُصـــحاءُ
يـــبكي قُمامـــاتِ الحـــروفِ كـــما بكَـــتْ
صخْـــرًا بُعيْـــدَ فراقِـــهِ الخنســـاءُ
أسْمـــى القداســـةِ حَرْفُـــهُ لكأنّـــما
قـــد باركَتْهـــا مـــريمُ العـــذراءُ
ظـــاتاً عـــلى ثقـــةٍ بـــأنَّ حُـــداءَهُ
شَـــدْوٌ وشَـــدْوُ العـــالمينَ عُـــواءُ
كالسّـــامريّ غـــوَى الجميـــعَ بعِجْـــلِهِ
والعجـــلُ فـــيهم معـــدنٌ وهـــواءُ!
عطسَـــتْ أُنُـــوفُ الشِّـــعرِ ألْـــفَ شُـــوَيْعِرٍ
إذْ ضُـــــيّعتْ يا آدمُ الأســـــماءُ!
حشَـــدُوا عِصِـــيَّهُمُ العجيبـــةَ كلَّهـــا
ألْقَـــوْا بهـــا فاخضرَّـــتِ الصّـــحراءُ
سَحَـــرُوا عيـــونَ صِحـــابهِمْ بقصـــائدٍ
تهْـــذي كـــما تهـــوى "الأنا" وتشـــاءُ
زمـــنُ الـــرَّداءةِ قـــد أطـــلَّ بقَرْنِـــهِ
فـــوق الـــورَى فاسْتَأْسَـــدَ الجُهَـــلاءُ
آنَ الرحيـــلُ إلى الهـــوامِشِ بعـــدَما
حِصْـــنَ الأصـــالةِ هَـــدَّهُ الأعْـــداءُ
بعـــضُ الحماقـــةِ أنْ أظَـــلَّ مُـــرَدِّداً:
منـــذُ الرَّضـــاعةِ يُعـــرفُ الشُّـــعَرَاءُ!

إلى أزمة أخرى...

21 مارس 2018

كمثل الأسفار تحمل حمارا !!

لطالما يطالبنا المراقبون التربويون، ونحن نزاول مهامنا في فصولنا، بتحيين أدوات اشتغالنا، بل، ومعارفنا أيضا، بغية التطلع إلى كل ما استجد في ساحة الشأن التعليمي عموما... لكن، ماذا لو كان ربُّ البيت بالطبل ضاربا ؟

لازالت مدارسنا - للأسف - تدرس تلامذتنا ما يتعلق بموضوع الفلك والأجرام السماوية، على أن عدد كواكب المجموعة الشمسية تسعةٌ، دون أن تدري لجان التأليف - ربما - أن كوكب بلوتو قد تم استبعاده من قائمة الكواكب السيارة حول الشمس، باعتباره كوكبا "قزما" (حوالي سدس كتلة القمر وثلث حجمه)، بقرار صدر في 24 من غشت سنة 2006 من لدن الاتحاد الفلكي الدولي، بُعيد إعادة تعريفه لمصطلح "كوكب "، لتغدو الكواكب الشمسية ثمانية منذ ذلك التاريخ...

فيا عضو لجنة التأليف:

إن كنتَ تدري فتلك مصيبة

وإن كنت لا تدري فالمصيبة أعظمُ !!

إلى أزمة أخرى...

6 ابريل 2018

أسواق النخاسة !

إن الشهرة والشهادة هما شيئان لا قيمة لهما في العلم والأدب، فبناء العلم على نجاح التجربة واستواء المنطق وإقرار العقل، وبناء الأدب على صدق الإحساس وحدة الإدراك وسمو العاطفة وقوة الحشد وبراعة العبارة والأداء. فإذا لم تكن الشهرة من هذا تستفيض وعنه تَشرع، فما غناؤهما على صاحبها إلا بعض الأباطيل التي تنفش في عقول الأمم الضعيفة والأجيال المستعبدة بالأوهام والتهاويل. والشهادة ما هي إلا إجازة الدولة لأحد من الناس أنه قد تحرر من طلب العلم والأدب على القيود التي تتقيد بها المدارس والجامعات في أنواع بعينها من الكلام، وأنه قد حصل في ورقة الامتحان ما فرض عليه تحصيله بالذاكرة، ثم ترفع الشهادة يدها عن معرفة ما وراء هذا التحصيل وما بعده وما يصير إليه من الإهمال أو النسيان أو الضعف أو الفساد. فحين يغادر أحدهم الجامعة حاملا شهادته مندمجا في زحمة الجماعة تفقد الشهادة سلطانها الحكومي - أو هكذا يجب أن يكون - ولا يبقى سلطان إلا للرجل وأين يقع هو من العلم أو الأدب أو الفن؟ وهل أصاب أو أخطأ؟ وهل أجاد أو أساء؟ وهكذا فهو لا ينظر إليه إلا مغسولا غفلا من مكياج الدبلوم والليسنس والماجستير والدكتوراه.. وما إليها، وإذن، فأولى ألا ينظر إليه عن شهادة قوم لم يكن سبيلهم إلى التحكم في أسواق العلم والأدب إلا الشهادات المستحدثة، والشهرة النابغة على حين فترة وضعف واختلاط وجهل كان في الأمة حين كان أقل العلم وأشف الأدب يرفعان صاحبهما درجات من التقدير والإجلال والكرامة.

مقتطف من مقال: أسواق النخاسة للعلامة محمود شاكر.

21 أبريل 2018

حرب بلا سلاح !

ما كنت حقيقة ناشرا هاته التدوينة لولا سؤال بعض الأصدقاء عن موقفي إزاء حملة مقاطعة سلع (سيدي علي؛ سنترال؛ أفريقيا)، وإلا فالبدَهيات من السلوكات تُؤتى فعلا دون الحاجة إلى إكثار الحديث عنها.

إن أقوى إرادة عرفتها البشرية إرادة الجماعات(الشعوب)، خاصة إذا تأسست على نضج تام ووعي بما يمكن تحصيله من نتائج إيجابية تخدم مصلحة المواطن، بعيدا عن الأدلجة المُراوِغة والسياسة الخائنة والمُضللة، والتاريخ حافل بالشواهد ولا داعي لذكرها. وهنا أستسلف عبارة لجمال الدين الأفغاني مخاطبا الهند المستعمرة قائلا:" أيها الهنود، لو كنتم سلاحف لاستطعتم بعددكم أن تجروا بريطانيا، ولو كنتم ذبابا لزعزعتموها بطنينكم !".

لست أدعي الفهم في مجال الاقتصاد، ولا فيما يحوم حوله، ولكن لست إلى حد أن يُغلب على عقلي ولا أستطيع النظر في أمور لا تُوزن إلا بنتائجها، وحقا من ثمارهم تعرفهم كما قال المسيح عليه السلام. هنا أشير إلى بعض " الخائفين" من تردي الأوضاع الاقتصادية للدولة إذا ما استمرت حملة المقاطعة إلى مدى غير محدد؛ السؤال المطروح الآن: عن أي اقتصاد تتحدثون ؟ أين نتائجه إن كان حقا موجودا ؟ فالاقتصاد الذي لا يتيح للمواطن الاستشفاء والتطبيب للفقير ليس اقتصادا، والاقتصاد الذي لا يستطيع ضمان تعليم لائق لأبناء الوطن الفقراء لا يسمى اقتصادا... اختصارا، الاقتصاد الذي لا يعير أي أهمية للمواطن البسيط ليس اقتصادا. وفقكم الله يا شباب المغرب، وحقق مسعاكم، وسدد خطاكم، فإذا الشعب يوما أراد الحياة، فلابد أن يكون له ما يريد.

26 ابريل 2018

علبة الكبريت...

" إنكم باستعمال المواد المغربية، ستساهمون في اقتصاد البلاد"؛ من منا لم يَتَحَفَّظ هذه العبارة المثبتة على ظهر علب الكبريت الصفراء المنتهي تداولها تقريبا منذ عقد من الزمن، بعد أن داهمتها القداحات الصينية الرخيصة والعمليّة في نفس الآن؟

إن منطق عجلة التطور دائمة الدوران ليحتّم علينا الانقياد أحيانا لاشتراطات ولإملاءات واقعية، لا يمكن تحت أي ظرف ما أو إغراء ما الادّعاء إزاءها – عنادا أو جحودا – بقدرتنا على تجاهلها ونكرانها، سواء بدوافع خارجية (الوطنية والهوية)، أو بدوافع نفسية داخلية (التعصب)؛ إلا إذا أردنا التغريد خارج السرب والعيش في برميل على مذهب اليوناني ديوجين !!

" السجن أو استهلاك المنتوج الوطني"؛ ليس هذا كلاما مجتزأً من تحفة النظار في غرائب الأمصار لابن بطوطة أو من أخبار الحمقى والمغفلين لابن الجوزي. ببساطة هذا ما استطاعت الحكومة المغربية "العبقرية " أن تخرج به كأنجع تدبير فوري لحملة المقاطعة التي أغضبت أباطرة المال والأعمال، بعد إحساسهم بانخفاظ وتيرة الربح المعتادة. هكذا تنتفض الحكومة ضد شعب حاول لأول مرة أن يقول كلمته ويبدي قناعته بكلمة واحدة منذ قرون !

فيا أيتها الحكومة المحترمة،

لا تنسي أن من أردت سجنهم هم الذين ملأوا الصناديق الانتخابية برموز أحزابكم، وقرعوا طبول نصركم، ورفعوا شعارات الثناء والولاء لكم !

لا تنسي أن من أردت سجنهم هم المسجونون أصلا ومنذ زمن، في غيابات الإذلال والاحتقار والعنف المادي والمعنوي اليومي !

لا تنسي أن من أردت سجنهم هم " المداويخ " حقا، أي من سُلّط عليه الدَّوخُ والتدويخ، ولقد أحسنت اختيار اللفظ والمعنى، وقد قالت العرب: دوخ فلان البلادَ، أي: استولى عليها وأخضع أهلها !

لا تنسي أن من أردت سجنهم، هم أبناء مقاومي ومجاهدي وجنود هذا الوطن، الذين ناضلوا بدمائهم وبسواعدهم وبأموالهم، ليتسنى لرعاياك أن يناضلوا بالكلام خلف الشاشات !

لا تنسي أن من أردت سجنهم هم من ألبسوا رعاياك البدلات الفاخرة، وأركبوهم السيارات الفارهة، وأجلسوهم حول الموائد العامرة !

يا أيتها الحكومة المحترمة، لا تسقطي من حساباتك أن الأجيال الحالية قد خُلقت لزمان غير زمانك، فتهيَّئي للتخلي عن أساليب (الضرب، السجن، التعذيب...)، الذي ينطوي حاملها - في زمن الحقوق والحريات - على رجعية وتخلف لا نظير لهما؛ إنها أساليب الضعفاء والعاجزين عن التواصل والحوار... وكأن الزمان قد بعث من القبور أنظمة تشاوسيسكو وموسوليني وهتلر من جديد... رحم الله عليّا الورديّ قائلا: " الأفكار كالأسلحة تتبدل بتبدل الأيام، والذي يريد البقاء على آرائه العتيقة، تماما كمن يريد أن يحارب الرشاش بسلاح عنترة بن شداد !! ".

إلى أزمة أخرى...

11 ماي 2018

قرد تـــربوي !

تَرَاني أتيتُ اليومَ أُمْطره وَرْدَا وقبل قليلٍ كنتُ أرجمُهُ عَمْدا
كأني بطفلٍ سُرَّ باللهو والدُّمى وكيف لعقلِ الغِرِّ أن يَبْرَحَ المَهْدَا ؟
أليسَ الذي يبني العقولَ مُغَفَّلاً ومن ضيَّعَ الأيّـــامَ قد فتح اللَّحْدا ؟
بطبشورتي البيضاء قوَّضتُ مجدَه وكم قيل إن الفأرَ قد هدَّم السَّدّا !

****** ****

تُنكَّسُ هاماتُ الرجالِ وتُشترَى ويحدثُ أن يأتيكَ حُرُّ الورَى عَبْدا
فيا يوسفَ الأحزانِ حظك سَيِّئٌ قميصكَ من كُلِّ الجوانبِ قد قُدَّا
ولازلتَ ترضى المذلَّةَ صامتًا كأنكَ مولودٌ لتَسْتَسْلِفَ الرَّدّا

**** ****

نبيٌّ إذا أشعارُ " شَوْقِي" تحدَّثَتْ ولكنهُ بينَ الرِّعَاعِ غَدَا قِرْدَا !

إلى أزمة أخرى...

24 ماي 2018

إنما النشيد على المَسَرَّة

هكذا قال الشَّنفَرى لما تم إلقاء القبض عليه، وطُلب منه الإنشاد. والحقيقة أن الإنشاد لا يكون إلا على مسرّة وغبطة... فهل يستوي منطقا الرقص فرحا على مقابر ملأى بجثث تُدافع مصائرها المجهولة !

إننا في زمن الخسارات شئنا أم أبينا، وقد تجاوزنا زمن الأخطاء - بتعبير محمد شكري- بمراحل فلكية ترهق العقل بمجرد التفكير في تخيلها. فالثابت أن الخطأ يُستدرك بالتصويب وبالتعديل، أما الخسارة فلا تستدرك بالعودة خلفًا، إلا بتفاديها مستقبلا.

في وطن يزداد فيه كل شيء سوءا يوما بعد يوم (الصحة، التعليم، القضاء، الثقافة، الرياضة...)، لا يسعك فيه، وأنت محتجز في زنازينه الضيقة، إلا أن ترفع أكُفَّ الضراعة إلى الله، داعيا إياه سبحانه إلى الإسراع بالإفراج عن مخلوقاته، مُلقيا عليهم من فيوضه عبر سماواته العُلى، لعلها ترفع جوعة الجائع وعُري العاري ومرض المريض وفاقة المحتاج وجور الجائر...أما هذه البقاع من الأرض، فقد مُلئت حرسًا شديدا وشُهُبا، وسئمت جلود ظهورنا على متنها سياط بُغاتها وجلاديها... وكأن نزاراً كان يقصدنا حين أنشد:

أَدْمَتْ سياطُ حزيرانٍ ظهورَهمُ فأَدْمَنوها وباسُوا كَفَّ من ضَرَبَا

فيا من ملكوا مفاتيح أبواب الوطن، إننا ندرك أن القاع قدر أرضي محتوم، وأن الإفلاس خبز يومي، يعرفنا ونعرفه، أما التهميش والإقصاء فلا نعرف أبوين غيرهما مذ فتحنا أعيننا وصرخنا أولى صرخاتنا... لذلك لا نطلب منكم سوى فتح الأبواب، بحثا عن هواء آخر تظفر به رئاتنا على تراب آخر، فقد مللنا الشهيق بهواء فاسد، ولا عتاب عليكم ولا تثريب.

يا من ملكوا مفاتيح أبواب الوطن، أشرعوها من فضلكم لعلنا نعيد الاستمتاع بطفولتنا وبشبابنا المسروق على رمال أخرى ممزوجة بالحرية.

يا من ملكوا مفاتيح أبواب الوطن، إنا ههنا قاعدون، ننتظر متى يُقال لنا: "اذهبوا فأنتم الطلقاء !".

28 يونيو 2018

شكرا تارودانت !!

بعد خمس عشرة سنة من العمل بعيدا عن الأهل والأحباب في ضيافة مدينة تارودانت الشامخة، شاءت الأقدار أخيرا أن أحوم حول الحمى، وأن أعود أحادي منكبي بمناكب أهلي وأصدقائي وعترتي، حامدا الله على نعمه المبطنة في الغربة والمنفى.

شكرا لك "تارودانت"، قد علمتني الكثير مما يمكن أن يتعلمه غر مثلي، مازال يشدو حروف حياته الأولى... شكرا للقدر الذي شاء أن تكون هذه المدينة سببا في تطفلي على المطالعة وقراءة الأدب، بل والتطفل على كتابة بعض منه... شكرا تارودانت، فأنت ما جعلني أعيد ترتيب صحائف حياتي مذ وطئت قدماي ثراك أول مرة، فاتحة عيني على ما كنت غافلا عنه في فترة العشوائية والحماسة المتدفقة... شكرا لك، فقد كنت السبب في التعرف على أناس يوزنون بالذهب وبكل معدن نفيس، اختلفت مهنهم وثقافاتهم وأحلامهم، لكنهم كانوا معينا لم ينضب من المعرفة والرقي الأخلاقي...

إلى لقاء آخر يتجدد بحول الله بمن أسعفتنا السنون بمعرفتهم، وليعلموا يقينا أن جوانحي لا تستضمر لهم إلا خالص الحب والتقدير والإجلال...

6 يوليوز 2018

إجازة أم صك غفران؟

قبل ست عشرة سنة تقريبا، وبعد أن ساقني سوء التقدير نحو غيابات تارودانت، حاملا على كتفي وزرتي البيضاء ومُعتجرا عمامة صفراء اتقاء لفح الشمس، قررت إتمام دراستي الجامعية، عَلَّها تنتشلني مما كنتُ فيه من جهل وفقدان بوصلة... لكن، جامعة ابن زهر للأسف رفضت طلبنا - وأمثالي كُثر- المتكرر والملحّ على مدى أربع سنوات، بدعوى أننا موظفون !! وكأننا حقا موظفون سامون في قمة هرم إدارات الدولة، بينما كنا سِفَلَة نقع موقع الحافر من الدّابّة !! بمعنى أن زادكم المعرفي المُحصّل يكفيكم لدسّ الحروف الهجائية في جماجم الصغار، ولتأمين قوت عيالكم...فلا تطمعوا في المزيد...

هكذا، توالت الصفعات على خدودنا سنة بعد أخرى، حتى تَرَجّل الفارس وخلع لأُمَةَ الحرب مُكرها، ناسيا شيئا اسمه " الجامعة " و" الإجازة "...

لن أبكي على الأيام الخوالي حقيقة، ولن أتحسّر، ولن أعيد الحرب جذعة، مُقلّبا في ملفات التهمت الأَرَضَةُ مُعظمها...إلا أنني أتمنى أن تتحرر عقول القائمين على تسيير وتدبير شؤون جامعاتنا من الإقصائية والانتقائية من أجل وُريقة اسمها " إجازة " تحولت بقدرة قادر إلى صك غفران في كف قسيس !!

فيا رئيس الجامعة، أشرع الأبواب لكل مخلوقات الله العاقلة والناطقة، فهي "جامعة" وليست " مُفرِّقة"، واجعلها تنشر المعرفة بما تملك من وُسع ومقدرة، ولا تجعل أمامها غرابيل تسمح لبعض وتمنع بعضا لاعتبارات جُلُّها غير مفهوم...

3 يوليوز 2018

حين يزور الشيطان موسكو !!

تصدرت رواية "المُعلم ومارجاريتا" للروائي الروسي ميخائيل بولجاكوف قائمة أكثر الروايات مبيعا في روسيا بين أوساط مشجعي بطولة كأس العالم لكرة القدم المقامة حاليا في روسيا، وارتفعت مبيعات الرواية بنسبة 30%. وقد أكدت ناديجدا ميخائيلوفا، رئيسة "دار الكتب" في موسكو، أن الطلب انصب بالدرجة الأولى من قبل زوار روسيا على رواية "المُعلم ومارجاريتا" في نسختها الإنجليزية، بالإضافة إلى الطبعات المترجمة إلى الإسبانية وإلى الألمانية وإلى الإيطالية.

الرواية الصادرة سنة 1967 تحكي وقائع زيارة افتراصية قام بها الشيطان للاتحاد السوفيتي المُلحد، اعتبرها النقاد أهم ما أُلِّف في الرواية الروسية في القرن العشرين.

قبل أن تكون روسيا بلاد رائد الفضاء يوري غاغارين، وقبل كونها بلاد أندريه ساخاروف، صاحب القنبلة الهيدروجينية، وقبل كونها بلاد الزعيم فلاديمير أوليانوف (لينين)، فقد كانت بلادا لبوشكين وبولجاكوف وتولستوي ودستويفسكي وغوغول وغيرهم كثير. ولن نستغرب من كلام الزعيم جوزيف ستالين، حين داهم النازيون أعتاب موسكو خلال أحداث الحرب العالمية الثانية، مخاطبا الجيش الأحمر، صائحا: " دافعوا عن وطن بوشكين وتولستوي !".

8 يوليوز 2018

تأبَّطَ جهلا...

صادفت أسماعي اليوم حديثا دار بين ثلة من شباب الحي، حام حول " جهل المعلمين"...أجل كما قرأتَ: جهل المعلمين !! فهل يجوز حقا اجتماع النقيضين؟ فلا تعجل علينا إذن، وأنْظِرنا نُخَبِّرْكَ اليقينَ...

ما إن تناهى إلى سمعي ما تناهى إليه من حديث تلكم الثلة، حتى استسلمت للأمر الواقع ملء البصر والسمع؛ أو ليس الحق ما تثبته الأغلبية، لا ما يثبته المنطق والعقل؟ ولما كان من بدهيات التفكير توارد الأفكار والمعاني من نفس الحقل والمجال المعرفيين، فقد تبادرت إلى ذهني مقالة عنونها صاحبها ب " المعلم الجاهل"، بعدها كان من اللازم أن أعود قسرا إلى الخلف متذكرا قول الجاحظ المعتزلي: " المعلمون أقل الناس عقلا، إنهم يعاشرون الصغار نهارا، والنساء ليلا..."؛ مارّا بالضرورة على نوادر أبي الفرج ابن الجوزي في أخباره عن الحمقى والمغفلين من المعلمين، ساخرا وهازئا بهم على مدى عشرات الصفحات... وكأن الجهل والحماقة بنتا هذا الرجل شاء أم أبى.

لا يستغربنّ أحدكم إذا ما واطأتُ الشباب على ما أغلب ما أوردوه، ووافقتُ على ما ألصقوه بالمعلم من نعوت، لأن الرجل بكل بساطة ينبغي عليه، في ما يقارب أربع ساعات تقريبا - لكثرة ما يدرسه -، التعريج على المعارف الكونية جملة وتفصيلا؛ حينا يتقمص دور سيبويه وحينا دور باستور وفولتا وغاليلي؛ حينا يلبس وزرة بيكاسو وفان غوخ وحينا يعتجر عمامة علماء الأزهر؛ حينا يجوب العالم الجغرافي كأنه ماجلان وابن بطوطة وحينا يجاري سعيد عويطة ومارادونا في ساحات الملاعب؛ حينا يسعف المرضى وحينا يطعم الصغار تماما كمتطوعي منظمات الإغاثة الدولية؛ حينا يرتدي بزة المحامي وحينا بزة شرطي وعسكري... يصدق فيه حقا قول القائل:

تكاثرت الظباءُ على خراشٍ وما يدري خراش ما يصيدُ !

فكيف لا يُوصم هذا المخلوق بالجهالة، والواقع أن من يعرف كل شيء لا يعرف شيئا؟

أضف إلى هذه الأحمال والأكلاف، النظام الجامعي الذي أمعن في تجهيله بمنعه من متابعة دراسته الجامعية والترقي المعرفي والأكاديمي، كأنما من أقداره سجنه في حفريات الماضي وبعض الفتات مما سرقه من مقاعد الدراسة؛ بعدها نأتي إلى قصة العمل في غيابات المغرب العميق وما يكتنفه من ظروف لا تسعف أحيانا حتى في تركيب جملة مفيدة !!

فيا شباب الوطن ويا أبا الفرج، لقد مات جحا وأبو دُلامة وماتت طرائفها، لكنكم محظوظون أن أتاكم الدهر بـ" تأبط جهلا "، تصفونه بما شئتم وترمونه بما رمى به سفهاء الطائف " معلمهم "، في حين، تقدمون القرابين لسكّير يتمايل عليكم فوق المنصات، راشقا مسامعكم بأنصاف كلمات سافلة. فما عساك تنتظره من سَقْط المتاع وسقط البشر؟

يا شباب الوطن، تَنَدّروا كما شاء لكم هذا الوطن البائسُ المُبئس، واستمتعوا بما تجود به قرائحكم الفيّاضة من نكتة وتعليق تلطّفون بها أجواء بؤسكم اليومي...

يا شباب الوطن، اذهبوا أنتم وعلماؤكم فقاتلوا، إنا هاهنا جاهلون...

إلى أزمة أخرى.

25 يوليوز 2018

لولا اعوجاج الأصل !

عرفناكَ قرداً عهدُهُ السَّطوُ والقفزُ ... خُلقتَ كشوكٍ ليس يُتعِبه الوخزُ
تشابهتِ الأزلامُ شكلاً وقيمةً ... وما عادَ يُغْني في نظائرها الفَرْزُ
إذا سمعوا شكوى العباد رأيتَهم ... كمن باعَ قولاً كان أمْسِ به يغْزو
ولستُ أرى "المسؤول" يأتي بصالحٍ ... لئن لم يجدْ غُنْمًا إذا فُتح الكنزُ
وخلفَ زفير الصَّدرِ مليونُ كذبةٍ ... يُزيحُ بها عهدًا وديْدَنُهُ العجْزُ
فلا عجبًا إن قلَّ مخزون طَحْنِنا ... ولا أسفاً إن عزَّ في دارِنا الخُبْزُ
عجبتُ لمن يسْطو على كَدِّ مُعْدَمٍ ... ويطرَبُ أنْ يسْمو ويُعزى له الفَوْزُ
بِذا قَضَتِ الأيَّامُ يا حَامِلَ المُنَى ... فلَوْلاَ اعوجاجُ الأَصلِ لَمْ يُعْرَفِ المَوْزُ!

21 يوليوز 2018

البيت الذى تدخله أشعة الشمس لا يدخله الطبيب

اشتكى بعض الغربان إلى القاضي بأن حبة قمح تخالف القواعد العامة للمزرعة، وأن الغربان كلما همّت بالتقاط حبة القمح الناعم المذهّب رفضت الحبة ذلك وطالبتهم بحرية العيش؛ فحبة القمح تحلم بأن تكون يوما ما منتجة لسنابل تتمايل مع نسمات هواء المزرعة العليل.

هنا وقفت القاضية "الدجاجة " في حيرة من أمرها، سائلة نفسها: كيف من الممكن حل هذه المعضلة الفريدة من نوعها في تاريخ المزرعة الهادئة..؟

(...) انتهت المحاكمة بالتهام الدجاجة " القاضية " حبة القمح، واضعة الحد لتمرّدها ضد أسيادها الغربان !!

كذلك المحاكمات في أشباه الأوطان...وكذلك منظوماتها القانونية والعدلية، وموضوعنا بالذات يومئ إلى قضية الطبيب الشاب المهدي الشافعي، الذي استأثرت قصته بعدد من المواقع الإلكترونية، والتي أشارت لنية الرجل الثابتة في مغادرة المغرب، واستقالته من قطاع الصحة وإحلاله بالتالي من قَسَمه المهني.

هي خسارات توالت سراعا وتباعا على هذا البلد الواقف على شفا ثقب أسود، لا يُدرى لقصته لا بداية ولا نهاية؛ المهم أن الواحد منا لا يسعه سوى رفع كفيه لقاضي السماء، أما قاضي الأرض فقد التهم حبة القمح !! وعليه، ينبغي أن يكون المثل الإنجليزي في نسخته المغربية: " الوطن الذي لا تدخله أشعة العدالة لا يدخله الطبيب !! ".

فافسحوا له الطريق ليغادر إلى أرض لا يُظلم فيها أحد، إذ يستحيل لحبة قمح الشكوى في بلد كل قضاته دجاجات...

إلى أزمة أخرى.

25 يوليوز 2018

وتَحْدُثُ بعد الأمورِ أُمورٌ...

بدعوة من أعضاء المكتب السابق لجمعية مدرسي اللغة الفرنسية (amef)، حضرنا فعاليات اختتام الدورة الرابعة للمؤتمر الدولي المتعلق براهن وآفاق تدريس اللغة الفرنسية في الدول الفرنكفونية؛ بعدها التزمنا بانتخاب مكتب جديد،من خلال التصويت السري...

ما أعجبني حقا انتخاب الرئيس بنسبة 100% من الأصوات، أمام انسحاب منافسه الأوحد بطريقة درامية مُعْجِبة، وهنا تذكرت قولة أبي الحكم: "هذا أمر دُبِّر بليل !"...

أن نعيِّر العامة بكاريكاتورية انتخاباتهم، فذاك جائز لمجموعة من الاعتبارات، ولكن أن ترسم النتائج قبل المنافسة، وبين صفوف رجال التعليم، فهذا يعني أن الصيد لم يعد في جوف الفَرا، وما يومُ حليمة بِسِرٍّ !

29 يوليوز 2018

عبقري من أهل الكهف !

لم تسعفه الظروف أن يجلس مكان "بوانكاريه" أو "بيرلمان" أو "برتراند راسل"، حائزا مكانه الحقيقي تبعا لمؤهلاته العقلية المذهلة، أو على الأقل، أن يقتعد لنفسه مكانا في الجامعة كأستاذ للرياضيات.

إنه الصديق، ابن منطقة المزار، الأستاذ محمد زنتوري، أرسلته الأقدار للتدريس بين جبال ووديان تارودانت لمدة تنيف على أربع عشرة سنة، تاركا عشقه الأوحد، الرياضيات، ليفتي صغارا في أمور حيواتهم...وهذا حال كل عباقرة الوطن !

محمد زنتوري، أول من حصل على معدل 20/22 في اختبارات الرياضيات، وأول من ينهي واجباته قبل الجميع، تماما كعالم الرياضيات الألماني فريدريش غوس، كما أحرج أساتذته مرات عدة بما يقدمه من حلول غرائبية لتمارين الاختبارات أو بما يبتكره من تمارين وحلول ذاتية، وكان الأول في دفعته الجامعية كذلك، لكن المسيرة توقفت ههنا بحثا عن الخبز ودواء للوالدين الشيخين... نفس الموال الفيروزي الذي يردده أبناء الشعب للأسف.

لو كان الأمر بيدي يا صديقي لمنحتك وسام فيلدز للرياضيات، فلست أقل شأنا من جون ناش وبيتر لاكس وغيرهم ممن طوروا بعض مفاهيم الرياضيات. فلو أتيحت لك الفرصة، وأنا أدري يقينا ما يخرج من رأسي، لرفعت رؤوسنا عليّا بين العالمين كما فعل أحمد زويل رحمه الله، لكنك في مستنقع كثير البعوض، ولا يسعك إلا أن تعيش حياتك تتقي لسعاته وضرباته.

أمدك الله بالصحة وبالعافية وبالتوفيق، وأدامك لنا أستاذا نتعلم منه كيف تكون العبقرية.

13 غشت 2018

عيد الأضحى والبؤساء...

(طرقٌ على الباب)

- من على الأعتاب أمي؟

- السيدة إياها تلح على مقابلتك...

- مرحبا سيدتي، بم أخدمك؟

- بني، أنا أرملة... (والقصة ذاتها).

- إن شاء الله سأحاول ما في مُكنتي، على الأقل لترتسم الابتسامة على شفاه بناتك، فلو طرقت باب غني لتيسر الأمر، ولكنك طرقت باب الأسافل من القوم، والآن سأكفيك مؤونة الوقوف على الأعتاب، وأنت في أرذل العمر، وسأقوم بالدور عنك...

كلما حل العيد، إلا ووجدت نفس السيناريو يتكرر كل حين، وكأن العيد مناسبة لإحراج المُعدمين لا اقل ولا أكثر، أو أن العيد خاص بفئة ال (vip)، أي، أصحاب الجيوب الملآى...

قد يسألنا سائل: التقرب بالذبيحة سنة، وليس على الأرملة السائلة أصلا إحراج نفسها أمام الأعتاب، هي في حِلّ من ذلك كله، فلمَ هذه المشهد الهوليودي كله؟

نجيب: السيدة الفاضلة تدري جيدا مقالتك، ولكن فلسفات الكبار لا مكان لها في ساحِ الصغار، أولئكم الذين لا يعرفون إلا أن أقرانهم من الجيران قد حظوا بما يجعل لهذا اليوم قيمة في أذهانهم الطرية. وعوض إقناع المعدوم بصرف النظر عن التضحية ببعض الأحاديث وببعض الآيات، فالأولى مساعدتها، ومنع الدموع من الاشتباك على صفحات خدود صغارها، الذين لا يعرفون الصحاح ولا الأئمة الأربعة ولا مناطات التكليف ولا مراتب الاجتهاد!!!

ومن هنا ندعو وعاظ المنابر ألا يدلفوا مباشرة إلى وصف الذبيحة الصالحة للتضحية (الذبيحة الشرعية) كعادتهم، بل إلى حث الناس إلى التكافل وإلى التضامن، ليكون العيد عيد الغني وعيد الفقير على السواء...وهنا نذكّر كل فقيه أَمَّنَ الناس ثمن أضحيته، بأن من يخاطبهم من على منبره الخشبي اللامع، منهم كذلك الموقوذ والمنخنق والمتردي والنطيحُ وما أكل السبع، تماما كالأنعام !

حضارةٌ من جلود خراف !!

سألته: ألا يمكن الاحتفال بالعيد بطريقة أخرى غير ارتداء جلود خراف؟

أجابني واثقا: هذا طقس مجتزأ من حضارتنا وتراثنا الأمازيغي، إننا فقط نُبدئُ ونُعيد.

حدثتُ نفسي بهذا الرّد، وتساءلتُ: ماذا لو كان هذا "المَجلودُ " مشاركا في أحد المؤتمرات الدولية، وحدثه اليوناني عن سقراط وأنكسماندريس، والألماني عن أينشتاين وغوته، والإيطالي عن غاليليو وتوريتشيلي، والروسي عن غاغارين وتولستوي، والفرنسي عن هوغو وديكارت، والأمريكي عن أبولو 11 ومايكروسفت، والياباني عن مسبار هايابوسا والقطار النفاث وغيرهم... ممن لا يتحرجون من الصّدح بأمجاد أجداده وآبائه، خلاف ذاك الذي لم يجد من تراث سابقيه إلا جلود خراف يتقمصها مرعِبا المارة من الأطفال والنساء، ظانا أنه أتى بما لم تستطعه الأوائل !!

تراث أجدادك أكبر من هذه التفاهات المُخجلة يا صاحبي، وأكبر من جلد يليق بذوات القوائم الأربع وليس بك، أما وإن جررتنا إلى الحديث عن الجلود، فسَل آباءك عن أناملهم ماذا صنعت منها... حقا كان الأديب السوفياتي جنكيز إيتماتوف صادقا حين قال: " المعدة أذكى من المخ، لأنها تتقيأ ما لا يعجبها، أما المخ فيبتلع كل القاذورات ".

إلى أزمة أخرى

25 غشت 2018

عسكرة المغرب العميق !!

كان وائل بن ربيعة (كُليب)، زعيم قبيلة تغلب في الزمن الجاهلي مؤمنا أقوى الإيمان بأن المجتمعات لا يمكن أن تبلغ الاستقرار والأمن والرخاء إلا بتفييء المجتمع إلى فئتين: فئة عليا تأمر وتنهى، وجنود يحمون حمى الفئة الأولى.

وكأن الحكومة المغربية اليوم اختطت لها مسار كُليب حذو القُذة بالقُذة، حتى أنها لم تترك موضعا لا لاجتهاد ولا لابتكار أسلوب جديد لامتصاص الاحتقانات الشعبية المتناسلة والإخفاقات المتكاثرة على أكثر من صعيد (البطالة، الاعتصامات...).

إذا كان خيار عسكرة الشعب وتجنيده في مطلع الستينات مقبولا "إلى حد ما"، نظرا للرهانات الموضوعة أمام حكومات ما بعد الاستعمار وقتئذ، فلا نظنه اليوم مستساغا بالمرة، بعد دخول المغرب - كما يُدّعى - عهد إرساء الدولة الحديثة، دولة الحق والقانون، ودولة الاستقرار السياسي والمُصالحة، ودولة الريادة الأفريقية ووو... لكن، سنقبل - على مضض - أن الأمر الذي أردنا الاستفتاء بشأنه قد قُضي، والتقى الماء على قد قُدر، وكان ما كان من أقدار السماء والأرض؛ فالسؤال المتبادر إلى الأذهان اللحظة كالتالي: من ستصطاده مصائد وشباك العسكرة؟

طبعا، لا يقتص الذئب إلا من الشاة الضعيفة القاصية، أو كما قال الشاعر:

تعْدو الذئابُ على من لا كلاب له وتتـقي مـربض المستأسدِ الضّاري

بمعنى أن شباك الحكومة لن تصطاد إلا مواطني الدرجة " الرخيصة " من الفقراء والمعدومين، من لا حَسَبَ ولا جاهَ ولا درهمَ يُدافع عنهم، إذ كيف يمكن للوطن ان يخلو من أبناء الأغنياء والوزراء والأعيان، من تجتهد الدولة في إعدادهم لتقلّد مناصبها وتوجيه دفّتها غدا أو بعد غد، في حين يغادر الأسافل إلى صحاري الجنوب لتعداد حبات رمالها... وإن غدا لناظره قريب.

يا مسؤولي البلد، فكروا بعقل حديث، واطلعوا على تجارب جيراننا الناجحين، وحاولوا إنقاذ هذا الوطن الغريق بحلول تنطوي على إبداع وابتكار، فعلى أرضه ما ومن يستحق الحياة.

يا مسؤولي البلد، دعوا فكر كُليب في بطن بكائيات وفخريات المُهلهل، فإنه لا يصلح ليوم يعيش فيه الناس في السماء أكثر مما يعيشون على سطح الأرض، وإلا فقد يصدق فيكم قول علي الوردي: " الأفكار كالأسلحة تتبدل بتبدل الأيام، والذي يريد البقاء على آرائه العتيقة، كمن يريد أن يحارب الرشاش بسلاح عنترة بن شداد !!".

30 غشت 2018

وجاء رجل من أقصى البادية...

لا تُحنى الرّقاب والهاماتُ إلا لقلة قليلة، ولا تُكتب المدائح المُطوَّلاتُ والقصائد العصماء إلا لمن جاوزا عتبة "الإنسان" بأشواط وبمراحل كما زعم ج ج روسو؛ ولا يُلتزم الصمت إلا أمام من اختلطت دماءهم بدماء الأنبياء والعارفين بالله.

في زمن وفي مكان لم يكن فيهما من يأخذ بأيدي صغار مازالوا يشْدون حروفهم الأولى في الحياة، تائهين، يظنون الكون كله بضعة أحجار وشمسا وقمرا... صغارٍ لم يكن في حُسبانهم أن ثمة اختراعات اسمها الكتابة والقراءة والحساب؛ جاء رجل من أقصى القدَر، حاملا همًّا تنوء به جبال بحيالها، عازما على إضاءة الزمن والمكان المُظلميْن اللذين كانا من حظنا.

بمجهودات ذاتية بسيطة وبنفس كبيرة، وفي كُتَّاب بلغ من التواضع تمامه، استطاع سيدي ومعلمي عبد السلام بن بيه انتشال ثلة من الأحداث من براثن الضياع والتيه، مبدّدا بألواحهم الخشبية المُخطَّطة بالصمغ التقليدي جهلا كان بالإمكان أن يحملوه على أكتافهم مدة طويلة.

سرني حقيقة بعد مرور هذه السنين العجاف، وهذا الماضي المُخجل، أن ألتقي بمعلمي الأول متجلببا كعادته، ومحتفظا على حزمه وجديته المعهودة في إسداء النصح وبذل المشورة، دون أن ننسى خلال حديثنا التعريج على استذكار أبرز الأطر خريجي الكتاب العتيق وبيداغوجيا العمامة والجلباب.

إن على هذه الأرض رجالا أغلى قيمة وأنفس معدنا وأشرف عملا وعطاءً، ولكن، وأسفاه على وطن أعمى لا يبصر إلا المعتوهين وأنصاف البشر، ولا يكرم إلا النطيحة والمتردية وأنكر الأصوات...

أمدك الله سيدي بصحة وبعافية تعينك على نوائب الشيخوخة والكبر، وحسبي ما هو ثاوٍ بين الجوانح من إجلال وتقدير، ولا تنس أن حروفي هاته إنما هي وديعة استودعتني إياها وأنا حديث عهد بالحياة، ها هي ذي الآن تعود إليك، ولا بد يوما أن تُردَّ الودائعُ.

5 شتنبر 2018

اذهب أنت وربك فقاتلا !

سعدت اليوم بقضاء بعض يومي مع الفنان بايح حميد، المعروف شهرةً بحميد إنرزاف، بعد دعوته الكريمة للمشاركة في عمل أدبي وفني سيرى النور قريبا، وسيُعلن عنه في حينه.

أما عن حميد إنرزاف، فهو الرجل الذي زاوج اللحن والكلمة بشغف بالمطالعة والتنقير والبحث، بالرغم من مغادرته صفوف المدارس مبكرا...وتلك شكاةٌ ظاهر عنك عارُها يا صديقي حميد !! فقد تسلب منا الحياة شيئا، لكن الأقدار تمدنا بأشياء أثمن من المسلوبة...وهذا شأن فناننا الأمازيغي الذي سارت الركبان بمقطوعاته الغنائية شرقا وغربا، وليس لنا إلا أن نمد له يد العون في مشروعه الثقافي والسهر على إنجاحه؛ هو ابن لغتنا وهويتنا وخبزنا، منه المبتدأ ومنا الخبر، ويحرم علينا إجابته بجواب بني إسرائيل " اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون"...

18 شتنبر 2018

لمن نخط كتاب اللوم !

لِمن نُخُطُّ كتابَ اللّومِ والعَتَبَا
وكلُّ فاجعةٍ قد أَخْفَتِ السَّبَبَا؟
لمّا غَدَا الموتُ في جلبابِ سيدةٍ
كالعنكبوتِ أقامتْ دارهَا رَحَبَا
يومَ الحسابِ عرفنا الآنَ موعِدَهُ
كما عرفْناكَ يا مَن آثَرَ الهَرَبَا
يا لَعْنَةَ اللهِ صُبِّي فَوقَهُ حِمَمًا
ولْتَدْفِنيهِ على جَمرٍ لِيُحْتَطَبَا
جَمْعٌ كَفَيْلَقِ "هولاكُو" على ثقةٍ
أنَّ السماءَ عليهِم تُمطِرُ الذَّهَبَا!
أَسْلَمْتِ رُوحَكِ يا أُمَّا وَجُوعُكِ لَمْ
يَمُتْ، فليتَكِ لمْ تستطْعِمي العَرَبَا
كيسٌ من القمحِ يا للّهِ في وَطَني
لمن تمنّاهُ أُمًّا واشتهَاهُ أَبَا!!

28 شتنبر 2018

النبوغ المغربي...

كتب أمير البيان اللبناني شكيب أرسلان مُقرّظاً كتاب "النبوغ المغربي في الأدب العربي" للعلامة عبد الله كنون قائلا: "إن من لم يقرأه فليس على طائلٍ من تاريخ المغرب العلمي والأدبي والسياسي". والحقيقة أن عقول المغرب مطموسة ومغمورة ومدفونة تحت نعال التاريخ، كأنما الأم المغربية عقمت رحمها عن إنجاب من يتخيل ويتأمل ويفكر كما فكر الآخرون وحازوا قصب السبق في كل شيء؛ وكلما رِيزَ إبداع المغربي في محفل من المحافل إلا وأتى بالعجب. هذا بالضبط ما حدث يوم التقى خبير علم الإدارة الدكتور طارق السويدان أثناء زيارته مدينة أكادير قبل أيام، فلم يكن ثمة بُدّ من الخبير إلا الانحناء للمخترع المغربي الحسين أوزان انحناءة تقدير وإعجاب، اعترافا بما قدمه للإنسانية من إبداعات هامة، بالرغم من أميته "المدرسية".

نبّه عبد الله كنون المشرق العربي إلى أن المغرب الأقصى طافح بأقلام أدبية تخلب الألباب، والآن، جاء مخترعنا لينبههم إلى أن ثمة في أرض اسمها المغرب من يبدع ويفكر...

3 أكتوبر 2018

ما أشبه اليوم بالبارحة !

كتب العلامة المصري أحمد حسن الزيات في مقالة منشورة في العدد الثالث من مجلة التربية الحديثة سنة 1929،الموسومة ب "تجاربي في تدريس اللغة العربية "، مختصرا إشكالية تدريس هذه اللغة في ما يلي:

1- الاقتصار على كتاب واحد للمطالعة ؛

2- جفاف القواعد وعقمها بفصلها عن الأدب ؛

3- سوء تعليم اللغة ورداءة الكتب ؛

4- جهل التلميذ بالغرض مما يُدرس ؛

5- ندرة الكتب التي تحبب القراءة للتلميذ ؛

6- قرب الغاية الصغرى للنجاح في الامتحان.

هي نفس الأعطاب تقريبا تعيد خلق نفسها كل عهد وكل زمن، بالرغم من زحوف الإصلاحات التي تمر أمامنا دون أثر يذكر.

9 أكتوبر 2018

ألا سُحقا لهذا الوطن !!

أمسِ القريب، تأتيك رسالة من لا مكان، فتفجعك بخبر اعتداء اللصوص على الصديق العزيز محند إزكي اعتداء بشعا أدى إلى بتر ساعده إلى نصفين، تماما كما يحدث في أفلام هوليوود الأمريكية... من أجل دريهمات وهاتف نقال !!

في بلاد لا قيمة فيها لواو الندبة، ولا قيمة فيها لحروف النداء، ولا قيمة فيها للإنسان أصلا، ماذا عساك تكتب من أجلها؟؟

أضف هذا إلى ما فجع به المغاربة من خبر قطار بوقنادل مؤخرا، حيث استرخصت الدولة أرواح المواطنين هكذا كأنهم مجرد حشائش طفيلية... من يحمي المستضعفين على هذه الأرض؟؟

رحم الله البردّوني قائلا:

من مات يا ابني؟ من الباقي؟ أتسألني !
فصول مأساتنا الطُّولى بلا عددِ
فوج يموت وننساه بأربعة
فلم يعد أحد يبكي على أحدِ
بلا اعتقاد ... وهُم مثلي بلا هدفٍ
يا عمّ ... ما أرخص الإنسان في بلدي!

20 أكتوبر 2018

صُواعُ الملك !

نصح السياسي "نيكولو ميكيافيلي" الحاكم الإيطالي "لورينزو دي ميدتشي" بشأن الشعب وآلية التعامل معه بذكاء قائلا: " أيها الحاكم، لا تطلق يدك بالنعم وبالفضائل لشعبك دفعة واحدة، إنما احرص على تقديمها إليهم قطرة قطرة ليحسوا بطعمها ". هكذا استُغفلت الشعوب -العربية والإسلامية بالذات -على مدى قرون ولازالت تُستغفل، ضاحكة مستبشرة، مخدرة بحقنة " واصبر لحكم ربك " ! وإلى الآن مازالت صابرة تموت كل يوم مرات ومرات. على الأرجح، تجهل حكومتنا أن المغرب في وضعه الحالي اقتصاديا واجتماعيا، يعيش تماما نفس أوضاع فرنسا وروسيا قبيل ثورتيهما المعروفتين، لأن وزراءنا غالبا منشغلون بمصالحهم الذاتية وبالمسلسلات التركية؛ وفي غفلة عن ذلك، أبدت الحكومة نيتها في استمرار العمل بالتوقيت الصيفي لسنة كاملة، جاهلة مرة ثانية أن العامل البسيط يستيقظ فجرا ليلتحق بقوت عياله، معرضا لسيوف العصابات المسلحة، عكس الوزير الذي يستيقظ عندما تبلغ الشمس كبد السماء، محتميا وسط سيارته الفارهة بجيش من الحرس، ولا قياس مع وجود الفارق. إشغال الشعب بالتوقيت الصيفي ليس في نظري إلا صواع عزيز مصر، أو الطعم الذي يُلقى للطريدة كي لا تنشغل بشيء سواه، لنتناسى تحدياتنا الحقيقية ومعاركنا ذات الأولوية.

إلى أزمة قريبة...

26 أكتوبر 2018

ماذا لو لم يُخلق المبدعون؟

قال الفيلسوف الإنجليزي برتراند راسل: " إن البشرية على مر العصور مدينة لمئات فقط من المبدعين "؛ والحق أن الحياة ما كانت لتكون كما صارت الآن بكل تمظهراتها البراقة لولا أولئكم النخبة الذين نظروا إلى العالم عبر زوايا ما كان لها لتتكشف لإنسان عادي مازال متأثرا بالمنطق الثابت.

بدعوة كريمة من المبدع الأستاذ الباحث خالد ألعيوض، كنت ضيفا بمعية المبدع الصديق الفنان حميد إنرزاف بصالون ألعيوض الثقافي، حيث تداولنا شؤونا لا علاقة لها بما يتداوله الشارع في الآونة الأخيرة، فلكل مقام مقال كما قيل.

تحياتي للفاضل خالد على كرم الوفادة، وللفنان حميد الذي أطربنا بمقطوعات من ريرتواره الفني، ويبقى المبدعون كنز البشرية الأنفس.

29 أكتوبر 2018

واذكر مريمَ إذ انتبذَت من أهلها مكانا قصيّا !!

لم أشأ التعليق على خبر فوز الملاك الصغير " مريم أمجون " بجائزة تحدي القراءة العربي، فالمغاربة قاطبة، كبيرهم وصغيرهم، أشادوا بما صنع الصغار إزاء فشل الكبار الذريع؛ كما كفتنا مؤونة الكتابة ما نشرته القنوات الفضائية والمواقع الالكترونية وصفحات هذا الفضاء من تعاليق ومقالات ومقاطع مصورة، وكل هذا إيجابي إلى حد ما، بالرغم من كونه لا يتناسب مع سن الفتاة التي تحتاج إلى نوع من الهدوء والراحة بعد رحلتها الطويلة.

ما أثارني حقا وجعلني أدون هذه الحروف، تسجيل يظهر وزير التربية الوطنية المغربي مغتبطا ومسرورا باستقبال البطلة مريم، يبدو وكأنه يخطب ودها، حريصا ما أمكن أن تكون بجانبه لتستقيم الصور في عيون المغاربة، وكلٌّ - للأسف- يدعي وصْلاً بليلى...

يا وزير، ما قدمتَ لمريم وماذا أعددتَ لها؟

- إن مريم صنيعة أمها وأبيها، ولا تسرق عرقها الذي امتد منذ سِنِيّ طفولتها الأولى.

- إن مريم صنيعة مكتبة أبويها العامرة، وليست صنيعة مدارسك الخرِبة التي تفتقر للمراحيض، بَلْهُ المكتبات !!

- إن مريم صنيعة معلمها ومعلمتها اللذين أشرفا عليها طيلة مراحل المسابقة، وليست صنيعة الوزارة التي لم تُشبع مطاعمها الفقيرة حتى خُلّة وجوعة صغار جوعى!!

- إن مريم عاشقة لأشعار عنترة العبسي، فهل مقررات التعليم الابتدائي تتضمن أشعارا تخلب ذهن المتعلم، ناهيك أن تتضمن أشعار المعلقات !!

- إن مريم ليست صنيعة المدرسة المغربية التائهة، بقدر ما هي صنيعة مدرسة اسمها " الأسرة " أولا وآخرا...

لذلك، يا مريم، انتبذي لنفسك مكانا قصيا، طالعي فيه ما تشائين وارقي بخيالك قدر ما تستطيعين، ولا تعيري أي اهتمام لما تضمه هذه الكراريس الملأى بالإحباط... أما إذا أتتك أبواق الإعلاميين فقولي لهم ما قال المتنبي:

مَفْرَشِي صَهْـوَةُ الحِصانِ وَلَكِ ... نّ قَميصِي مسرُودَةٌ مِنْ حَديدِ

لا بقَوْمي شَرُفْتُ بل شَرُفُوا بي ... وَبنَفْسِي فَخَـرْتُ لا بجُـدودِي

إلى أزمة أخرى.

هكذا تكلم المفتش !!

مرت سنوات لم يزرني فيها "مفتش" في الفصل، أو تفد عليّ منه رسالة بسيطة عبر الوسائط المتاحة، تتفقد حالي المهني وحال الصغار على السواء... حتى أتى أمر الله أمس، فجاء الرجل واقتعد مكاني واجماً طوال مدة الزيارة- إلا من وشوشات سريعة-، وكأن على رأسه الطير!!

زعمتُ - مخطئا - أن الحال قد تغير طوال هذه المدة التي انكبت فيها الوزارة على إعداد برامج حديثة تلائم وتواكب معطيات المجتمع المغربي الجديدة، لكن حليمة تأبى الانعتاق من عادتها القديمة.

بدأ الرجل مباشرة بعدما سجل ما سجل في استحضار المثالب والنواقص والإخفاقات، دون أن يكلف نفسه بالإشارة -إيماءً حتى - إلى إحدى الحسنات، كأنه نموذج حي لقول القائل:

شرُّ الورى بعيوبِ الناس منشغلٌ << مثل الذبابِ يُراعي موضعَ الخللِ.

أثرنا مسألة التقويم والتقييم كأعوص ما يمكن الحسم فيه تربويا ومعرفيا، بعدما تَرَب ودمدم -بلغة الآمر- بزعمه كون إحدى التلميذات تستحق "صفرا" عوض أربعة من عشرة، موضحا موقفه ذاك بالحيادية وبالموضوعية المطلقة، دون استغفال التلميذ بنقطة لا تعكس مستواه الحقيقي.

طفقت أبين للرجل معنى "الصفر" الذي يعني الإعدام المباشر أو الموت السريري في أحسن الأحوال، مبرزا دواعي اعتماد تلك النقطة، التي تستبطن اعتبارات التفاعل الإيجابي مع أجواء التعلم، والانضباطية والسلوك، أما تقييم التلميذة على أساس المحتوى فقط، فهذا اختزال للكائن الإنساني إلى مجرد آلة تنفث ما حُشيت به من معرفة. أما إذا استدعينا المنطق، فأنا أعرف الناس بالتلميذة من أي زائر لا يُرى -كبعض الظواهر الفلكية- سوى مرة خلال مدة زمنية منداحة... والأغرب أن الرجل لم يقتنع !!

إن القناعة سجن كما قال نيتشه، خصوصا إذا كانت متصلبة غير قابلة للزحزحة، وتحولت فيما بعد إلى عقيدة راسخة لا تنال منها الحقائق ولا النقاشات ولا كل أسباب الإقناع، والأدهى، أن تتصدر هذه القناعات مواقف التربويين والمؤطرين، أولئكم المفترض فيهم احتواء كل رأي وكل نسق فكري مهما كان مخالفا لحمولتهم المعرفية والثقافية.

لست أدعي التوفيق التام فيما ذهبتُ إليه، أقصد بناء تقييمي لتلك الفتاة، لكني متيقن تماما من كوني أتعامل مع كائن آدمي لا يمكن النظر إليه من زاوية وحيدة، ولا يمكن إصدار حكم عنه إلا باستحضار الكلّ دون الجزء، ولا مجال لإخضاع الظاهرة الإنسانية عموما لمبادئ السببية والحتمية، بل، وحتى التجريب والإخضاع للملاحظة. إن كل مدرس ينتصب في الحقيقة أمام بُنى نفسية معقدة، وإن شئنا التدقيق أكثر، قلنا إنه أمام كائن هو أولا وآخرا صنيعة ذاته ومجتمعه وتاريخه، كائن حرّ تتراكب فيه أمزجة شتى، وتربيات شتى، وثقافات شتى؛ وأي محاولة لإخضاعه لحكم معين بناء على رواسبنا الداخلية، إنما هي في الحقيقة محاولة لتثبيت المتحول والمتغير، وتسكين ما لم يُخلق على نظام السكون طبيعةً وفطرةً. فتلميذ اليوم لن يكون بالضرورة تلميذ الغد، بل، تلميذ الصباح لا ينبغي أن يكون تلميذ المساء...وهذا منطق من تحمله الحوادث الشعورية والنفسية والحسية على التقلب الدائم والحركة غير المنقطعة. أما إذا تعلق الأمر بظاهرة ثابتة أو بشيء تسري عليه خصائص ثابتة، فساعتئذ لا جدال مع قطعيّ الثبوت.

لذلكم، اعتبرت خيار "الصفر" عودة إلى نظام الببغائية وترديد المحتوى، بل، عودة إلى البدائية التربوية التي تجعل التلميذ تحت سطوة وسلطان نقطة رهينة بما ستجود به لحظة الاختبار من أسباب نفسية، قد تحييه وقد تُميته، تماما كما يقيّم زائر تربوي الأداء المهني لمدرس خلال ساعة أو نصيفها.

إن المعضلة الكبرى في نظري ليست في تزايد جهل المدرسين بمتوالية حسابية، ولكن في تزايد جهل المؤطرين التربويين - ولا أعمم - بمتوالية هندسية تشبيها بقانون مالتوس المعروف.

إلى أزمة أخرى...

13 دجنبر 2018

وَمَنْ يَكُ ذا فَمٍ مُرٍّ مَريضٍ !

بعث إلي أحد الأصدقاء بمقطع تسجيلي لإحدى الجلسات البرلمانية، حيث وصفت النائبة من الاتحاد الاشتراكي أمينة الطالبي الحانوتي البسيط صاحب محل البقالة ب " ذاك الشَّلح "، في سخرية تامة، رغم ما أبدته من اعتذار محتشم بعد قصفها من النواب الآخرين بكلام جامد.

أدري بيقين راسخ أن النائبة المحترمة تجهل فلسفة الفكر الاشتراكي في أبسط أدبياتها، والعادة أن صندوق الانتخابات (بما يحيطه من فساد) صنع لأمثال أمينة الطالبي كرسيا وثيرا وراتبا جزافيا ولسانا سليطا هَجَّاءً، أما المبادئ والأفكار وعرق الجبين لو كانت هي الفيصل، لوجدت قبة البرلمان خاوية على عروشها. فلو حملت النائبة بعض دماء الاشتراكيين الأقحاح - ولا أعني المتحزبين - لما جعلت البشر طبقات يفضُل بعضها بعضا... والكلام كثير بهذا الصدد. ولك أيتها الفاضلة أقول:

لا فـــرقَ بـــين الرُّهَـــا والقـــدسِ والنَّجَـــفِ
مـــــدائنُ الله أوراقٌ مـــــن الصُّـــــحُفِ
فكيـــفَ أختـــارُ مـــن أَهْـــلِ الـــتُّرَابِ وَمَـــا
عَهِـــدْتُ أَفْصِـــلُ بـــين النَّخْـــلِ والسَّـــعَفِ؟
مـــــاذا تقـــــولينَ يا بنـــــتَ الأَكَارِمِ يَا
حمَّـــالَةَ النّـــارِ بنـــتَ البَـــذْخِ والـــتَّرَفِ؟
أنا ابـــــنُ ذاكَ الذي سَـــــوَّدْتِ سِـــــيرَتَهُ
حـــتى غَـــدَا "الشَّـــلْحُ " مســـكُوكًا مِـــنَ الطُّـــرَفِ
ذاكَ المُقَـــــزَّمُ في حَانُوتِـــــهِ نَبَتَـــــتْ
كَـــــفٌّ تُهَدْهِـــــدُنِي بالعِـــــزِّ والشَّرَفِ
وعَلَّمَتْـــــنِي دُرُوسًـــــا فِي أَصَـــــالَتِهَا
أنَّ السَّـــــواعِدَ لَـــــمْ تُرْفَـــــعْ بِـــــلا كَتِـــــفِ
فَـــــرُبَّ بَغْـــــلٍ تَمَـــــنَّى أَنَّـــــهُ بَـــــشَرٌ
ورُبَّ " فِعْـــــلٍ " تَمَـــــنَّى لَـــــوْ يُجَـــــرَّبِ "في"!
إنَّ الدَّوَابَّ إذا جاعَـــــــتْ بِمَعْلَفِهَـــــــا

قـــد تلتَـــقي حتْـــفَهَا مِـــن كَـــثْرَةِ العَلَـــفِ
حـــــذارِ أنْ يُبْـــــصِرَ الأعمـــــى فَفَعْلَتُـــــهُ
كفَعْـــــلةِ الثَّـــــورِ في مُســـــتودعِ الخَـــــزَفِ!

إلى أزمة أخرى...

22 يناير 2019

تنوير أم تزوير؟

تتبعت باهتمام بالغ فحاوي حلقات " التنوير"، البرنامج اليوتوبي الذي أطلقه أحمد عصيد قبل أشهر، زاعما في حلقته الترويجية أن البرنامج ممحوض " لتفكيك فشل شعوب شمال أفريقيا والشرق الأوسط". كنت أنتظر بشغف هذا "المتنور" وماذا بجعبته من جديد لم نقف عليه بعد، لكن، وكالعادة، الرجل شغوف بجلد الإسلام والمسلمين، دون الاقتراب من عمق المشكلة، ودون التزود بأدوات " التفكيك" !!

" الدين الإسلامي سبب كل البلاءات والأفشال"، هي مسكوكة واحدة يكررها الرجل في كل الحلقات تقريبا، سواء كان يناقش موضوع الدين نفسه، أو كان بصدد الحديث عن الاقتصاد أو واقع المجتمعات العربية أو السياسة أو غيرها من المواضيع ذات الارتباط بالإنسان، معبرا في مرافعاته عما يعيشه المسلمون من تناقض يطبع سلوكاتهم، بعيدا عن تعاليم الدين الذي يحملونه في صدورهم كما يدعون!!

إن الطروحات المبنية على أحقاد دفينة أو حسابات أيديولوجية أو خلفيات سياسوية لا تنتج في الحقيقة فكرا رصينا ثابتا، إنما هي أولا وآخرا سعي لإفراغ مسدس من رصاصاته دون هدف محدد. إن فشل دولة ما أو نجاحها أمام شعوبها مرتبط بمدى تطبيق وإنزال بنود والتزامات العقد الاجتماعي الرابط بين النظام الحاكم وبين الشعب؛ كانت الأنظمة مسلمة أو بوذية أو لادينيةً حتى، بمعنى كلما كانت المسافة بين الوعود الانتخابية وبين ما تجسد في الواقع شاسعة ومتطاولة إلا وكان الفشل لائحا وقائما. فهل يمكن تفسير نجاح التجربة الماليزية التي يتجاوز المسلمون فيها نسبة 61 في المئة، والتجربة التركية التي يتجاوز فيها المسلمون نسبة 96 في المئة بالدين الإسلامي؟

إن الديانات كلها ليست إلا عوامل فرعية وثانوية- إلى حد الضآلة - إزاء الإرادة السياسية والنية الحسنة اتجاه الشعوب، فكلنا يعرف لماذا فشلت الأنظمة العربية في تحقيق الإقلاعات الاقتصادية والتنموية أمام أنظمة في العمق الأفريقي كانت إلى البارحة تعيش على مساعدات المنظمات الدولية !! (رواندا وأثيوبيا نموذجا)؛ ولا نحتاج إلى إعادة طحن الهواء كل مرة.

إن اجترار طروحات جورج طرابيشي وفرج فودة وإعادتها مشوهةً، لا يضيف للمتتبع شيئا يا عصيد، ولا تنس أن النقد الذاتي يحتاج لموضوعية تامة متحررة من الرواسب الذاتية والنفسية، لأن اللحية والسجادة والمسبحة ليست دليلا على الصلاح وعلى إرادة رفع عذابات الشعوب اليومية.

17 فبراير 2019

عذراً أيّها الغُرابُ !!

أُثِر - قرآنيا- عن الغراب أنه علّم قابيلَ كيف يواري سَوأةَ أخيه هابيلَ ببضع حركات، كانت كافية ليفهم آلية مُواراة الموتى تحت التراب؛ فقُلِّد بصنيعه ذاك كمعلم أول أزاح عن الإنسان بعض جهالاته...

نعلم علم اليقين أن حروفنا على هذا الفضاء الأزرق لا تعدو كونها صرخات نملة في واد، أو زُحارَ متألم وسط صحراء؛ كما نعلم أننا فقط نتعب أصابعنا في كتابة ما لا يُقرأ، خصوصا من ذوي القرار وأصحاب الصولجان، العاكفين على تصفح مجلات الموضة والسيارات ومواقع البورصات العالمية !!

كانت مهنة التعليم قبل عقود مهنة شرف وجلال، حتى لكأنها تضفي على ممتهنها مهابة خاصة، بل ترفعه إلى درجة الأعيان وعِلية القوم، وحين يبزغ نجم معلم في قبيلة ما، فكأنما ظهر عنترة في عبسٍ والنابغة في ذُبيان سواء بسواء. لكن دوام الحال من المُحال بعدما غدت المهنة مهنة الفقراء من الشعب، يلجها معدوم العمل والوظيفة، ولقد كنت من أولئكم الذين سعوا خلف هذا الوهم المسمى "وظيفة "، بل، كنا نكذب على أنفسنا حين ادعينا أننا رغبنا في العمل كمعلمين بدافع حب المهنة لا بدافع الهروب من الفقر، فاللهم غَفراً.

بعد سبع عشرة سنة من الالتصاق بالميدان، تأكد لدي - بلا مبالغة - أن بائع البطيخ وسائس الحمار المنكب على جمع ما يعاد تدويره وعامل النظافة وناخ الكير وبائع الفشار وحفار القبور... كلهم كان أفضل مني على مستويات عدة، فهم على الأقل أبعد من أن يُسترخصوا ومن أن يواجَهوا ببنادق النظام وبهراواته السوداء وبخراطيمه المائية، وإن كانوا مكتوين كذلك بنيران أخرى. وعليه تكون هذه المهنة أخطر مهنة يمكن للشاب أن يُقبل عليها في هذا البلد، إلا إذا قَبِلَ مسبقا أن يتنازل عن جميع حقوقه، بما فيها حقه في الكلام !! لهذا أتحيّن شخصيا الفرصة تلو الأخرى لمغادرة هذا السجن المظلم قبل إحالتنا على مستشفى للأمراض العقلية.

لقد ضاعت أعمارنا على ترابك يا وطن، كما ضاعت عليه حقوقنا ونفوسنا وأرواحنا؛ ولأننا عهدنا أن نحكي ما بضمائرنا فإننا نصارحك بهذا القول، في حين أنك تخوننا في كل لحظة وحين، لأننا نعهد فيك الخيانة والمواربة والإذلال، لا أقل ولا أكثر؛ حتى أن تعريفك يستعصي علينا، فماذا نقول في حقك؟

يا وطنُ، إن كنت حقا تمتلك كل هذه الجيوش المقدونية وهذه المدرعات والمصفّحات والرشاشات، فلماذا لا توجهها إلى سبتة ومليلية، أو إلى صحرائك التي يحوم حولها المتربصون أو إلى فلسطين المحتلة؟ أم أن صدور العُزَّل من مستضعفيك أولى بعضلاتك؟!

عذراً أيها الغراب،

لأن أشجار الغابة احترقت واحترق معها عشك الصغير، فابحث لك عن غابة أخرى وعن شجرة أخرى، وحاذر أن تترصدك بنادق الصياد هنا أو هنالك؛ وسارع لأن تعلم فراخك ألفبائية الهجرة خارج الحدود، فقد قيل أن أحفاد النجاشي هناك لا يُظلم عندهم أحد !!

إلى مصيبة أخرى...

22 فبراير 2019

كل شيء قابل للكسر !!

كان شيخ المَعَرَّة يلعن اليوم الذي وُلد فيه، وكان يُعاتب رحم أمه التي أنجبته وأسقطته على هذه الغبراء؛ وإني على يقين أن قارئ مكتوبي هذا، لعله يسخط ويكيل لكاتبه ما وسع من لعنات؛ أما وإن كلف نفسه العودة إلى مظانِّ الكلام وعاش حياة المعري لاستغفر الله على ما تسرّع بالتفوّه به. ولاختصار الحديث، ليست النائحة الثكلى كالنائحة المستأجرة...

إن السواد والمزاج الملنخولي المطبق على المغرب من شماله إلى صحرائه، راجع في ظني إلى استقالة الدولة من كل التزاماتها مع الشعب، متنصلة بشكل أو بآخر من كل عقودها الاجتماعية الضامنة - في الغالب - للسلْم المجتمعي، متجاوزة كل عتبات الأمان والاستقرار بعدما كسرت كل القواعد الرسمية أو المتوارثة...

إن الكسر طال كل شيء تقريبا، والكسور لا تُشْعَبُ كما هو معروف، وإنها لتُعيي صاحب الحيل والحرفة والصّنعة، فليتّقِ حامل المطرقة الله والِجًا دكان الخزف!

- كُسرت القاعدة حين بدأ المغربي يسمع عن رفع الدعم العمومي عما يملأ بطنه ويدفع عنه جوعته...

- كسرت القاعدة حين أثقل كاهله بالأسعار المرتفعة الخانقة، حتى بلغت القلوب الحناجر، وكأنه يعيش نفس "سيناريو" 1984...

- كسرت القاعدة حين طفق يسدد فاتورة مضاعفة لتأمين تقاعده البسيط...

-كسرت القاعدة حين بدأت تُداهم بصره أشكال التدخلات الأمنية " النازية " التي تكبد أبناء هذه "البيداء" أكلافها وأوهاقها... وكأنهم من أشعل فتيل ثورة بوحمارة!

- كسرت القاعدة حين بدأ يسمع إهانات المسؤولين من نواب ووزراء صُراحا بَواحا عبر ميكروفونات البرلمان وعبر شاشة التلفاز وفي عقر داره...

- كُسرت القاعدة لما "زحفت" الخصخصة وأتت على كل شيء، حتى على المقابر والمدافن...

- كُسرت القاعدة لما أصبح التافهُ من أشباه الإنسان - بتعبير داروين- يعتلي المنابر والمنصات والرُّكوح...متلقيا أسمى التهانئ والتشريفات...

- كُسرت القاعدة لما كثر انتهازيو المناصب والمراتب الاجتماعية والأرصدة البنكية على حساب بسطاء يكملون وجباتهم اليومية بما يجدونه من خشاش الأرض...

- كسرت القاعدة لما سقطت هيبة العلماء والفقهاء والمثقفين ورجال التعليم وأصحاب التنوير الحقيقي في المجتمعات...

- كسرت القاعدة بعدما رأينا الشاب يلهث خلف وثيقة وحيدة، هي صك الانعتاق، أقصد جواز السفر!

- كسرت القاعدة لما بدأ الوليد يتحدث في المهد، زاحرا في وجه أمه بعد أول شهقة: سامحك الله يا أمي، كيف سأبتلع هذه الكسور كلها؟

- كسرت القاعدة بعدما أصبح كل شيء يحيلنا على الرثاء وعلى الهجاء في أفضل الأحوال... والحديث يطول...

26 مارس 2019

في الحاجة إلى زَمَّارِ هَامْلِنْ !!

تقول الأسطورة إن بلدة هاملن الألمانية ابْتلِيَتْ بزحوف من الجرذان، وذات يوم سار فيها رجلٌ يرتدي حُلَّةً ذات ألوانٍ كثيرةٍ، وعرض تخليص البلدة من هاتيك الآفة نظير مبلغ من المال، وعندما وافق العُمْدة سحب الرجل مزمارًا ومشى في شوارع البلدة يعزف عليه نغمةً ساحرة، فخرجت كلُّ الجِرذان تتقافز من البيوت، وتَبِعت الزَّمار إلى نهر الْوِيزَر، حيث غرقت فيه. وعندما طالب الزمار بمكافأتِه رفض العُمدة أن يدفعها له، فأقسم الزمار على الانتقام. ذات مرة سار في الشوارع يعزف لحنهُ العذب الغريب، وفي هذه المرة هُرِع جميع الأطفال من منازلهم، وتَبِعوه إلى كهف في تلّ كوين القريب، فانطبقت عليهم المغارة، ولم يرهم أحد بعد ذلك أبدًا.

كم يتعاظم إشفاقي على بعض المسؤولين الذين يتلهفون على الوقوف في الصفوف الأمامية، منتظرين لحظة التقاط الصور، آملين تصدُّر عناوين الجرائد والمجلات، سارقين مجهودات أولئكم الثّاوين خلف الكواليس المُعتَّمة، باحثين عن الأمجاد والانتصارات التي ينبغي أن تُثقِلَ كاهل التاريخ... تماما كالصورة التي جمعت الوزير بمريم أمجون، ونُلحقها اليوم بصورة المدير الإقليمي لمديرية إنزكان أيت ملول، حيث تُبديه عاكفا على جبر كسور " إضرابات" الأساتذة المتعاقدين، مؤكدا بشكل رمزي أن المسؤول مهما كانت رتبته مستعد لبذل الغالي والنفيس خدمة لأبناء هذا الشعب!

إن صناعة الصور التي لا تكلف سوى بضعة أجزاء من الثانية لا ترمّم الوضع المنخرق والمتشظي، بل الساخر إن دقّقنا التعبير؛ كما لا يسعها لملمة الجماجم المتهشمة على الإسفلت بعصيّ الدولة السحرية...فاهنأ أيها المدير وتمتع بكرسيك الوثير المريح في مكتبك المكيف، وعُد إلى مهدك الذي تُطيق، أما الفصول الدراسية - بما تضمه- فلها ربّ يحميها، عارف بخباياها، قادر على التكيف مع خيرها وشرها، أما أنت، لا تبرح مكانك حتى يحين موعد التقاط الصور !! وقبل أن يحين ذلك، ابحث عن زمّار يستطيع إفراغ الشوارع من المنتصرين لقضاياهم النضالية، والمدافعين عن لُقَمِ عيشهم المبثوثين في كل شبر من هذا الوطن... ولتعلم أن تاريخ العالم قد صنعه المجهولون ممن طواهم الزمن والتراب وليس من تفقأ صورهم أعيننا كل يوم كلما فتحنا صحيفة أو كتابا أو موقعا إلكترونيا...

إلى عرض أزياء آخر..

4 ابريل 2019

وَلَوْ لَطَّخْتَ وَجهَكَ بالمِدَادِ !

كلما حقق أحدهم حلما في هذا البلد حسبته حقا من أولياء الله الصالحين، أو - على الأقل- ممن تغمّدتهم العناية الإلهية بنفحات سماوية لا تتكشَّف لأحد... وأقصى تمنيات بعضنا، بقاؤه على قيد الحياة !

ارتباطا بالحلم، سَرّني اليوم تلقّي خبر حصول صديق الطفولة والأخ الأستاذ رشيد بن بيه على شهادة الدكتوراه بفاس العامرة عن أطروحته " الهجرات النسائية إلى المغرب، دينامية النشاط الاجتماعي والفعل المنظم / حالة مهاجرات من السنغال والكنغو الديموقراطية "، تحت إشراف الدكتورة أسماء بنعدادة. وقد مُنح " لقب " الدكتور بميزة مشرف جدا، مع توصية بطبع العمل.

تشرفت حقيقة أن أكون أول من اطلع على هذا العمل القيم مبنىً ومعنىً في مسودته الأولى، وإني أشهد - وإن كانت الشهادة لا تُقبل من نَكرة - برصانة الأطروحة وأصالتها في ما قدمته من تحليلات وأفكار غير مسبوقة في مواضع كثيرة... وحريّ بمن خبر الواقع من عمقه ومن تخومه المُظلمة أن تتسق كتابته بما يدّعيه، فعلم الاجتماع كما أزعم، لا يُؤخذ من الكتب ومن شاشات الحواسيب، إنما يُتعلم من الواقع ومن تجاعيد الوطن العميق، وإلا - كما هو الشأن لمجموعة من الكتابات غير المقنعة - فشيوخ الحاسوب والأيباد المغترّين بطيَالِسِ الجامعة، فعزاؤنا أن نقول فيهم قول الأول:

دَخيلٌ في الكِتَابَةِ يَدَّعيها كدَعْوَى آلِ حَرْبٍ في زِيَادِ
يُشَبَّهُ ثوبُه للمَحْوِ فيهِ إذا أبصرتَه ثوبَ الحِدادِ
فدَعْ عنكَ الكتابة لستَ منها ولوْ لطّختَ وجهَكَ بالمِدادِ !

شكرا لك أيها الصديق وهنيئا لك مِلء القلب بما يضمه لك من حب وتقدير ممتدين إلى جذور طفولتنا الأولى، حيث نحاذي مناكبنا في كُتّاب أخيك الأكبر، معلمنا الأول عبد السلام أطال الله في عمره. وشكرا لك، لأنك منحتنا مساحة من الفرح أنعشت الذاكرة والقلب... ولتمت الديناصورات غيظا، لأن سدرة المنتهى لست وقفاً عليهم فقط...

كيعقوبَ إذ يُلقى عليه قميص يوسف...

جاهلا لازلتُ كيف اصطفتني الأقدار من بين الكثيرين من الشعراء الذين تُرفع لهم القبعات وتُحنى لهم الهامات؛ أما وقد كان الرهان على الشعر، فلم أكن أراهن على هذا المتشاعر أن يصنع عجاجة وسط فرسان بَجْدَتِهِ وأعلام حلبته...وقد قال الأول:

وابنُ اللبونِ إذا ما لُزَّ في قَرَنٍ لمْ يستطِعْ صـولَةَ البُزْلِ القَنَـاعـيسِ

ما أصعب التحدث بلغة الشكر والمدح، خصوصا على من لا تطرق أسماعه إلا عبارات الاستصغار والتحطيم والتقزيم، ونحن أهل سوس نجيد هذه اللغة أكثر من غيرنا، وإن ساور أحداً شكٌّ فيما زعمته فدونه كتاب "سوس العالمة" للمختار السوسي فقد كفاني مؤونة الإسهاب في هذا الموضوع منذ زمن، مع فتح منافذ للاستثنائيين، مخافة السقوط في التعميم.

أما هيئة الحوار الثقافي الدائم / فرع المغرب، فإني تالله لا أعلم من أي الشطآن أغرف لها عبارات ثناء تكون كِفاءَ ما لمسناه من كريم ضيافة ورُقِيّ حفاوة ولين مَعْشر وفيض تواضع، وهذه الخصال لَعَمْري لا يُلقّاها إلا من أوتي حظا عظيما من ترويض النفس والخُلُق على التّصاغر أمام الآخرين مهما كانت أحجامهم الاجتماعية. فلكم الشكر مني بحجم ما هُو ثاوٍ بين جوانحي من تقدير وإكبار...

شكرا للدكتورة مينة قسيري رئيسة الهيئة...

شكرا للأديب الكبير تواضعا العربي بنجلون...

شكرا لأعضاء الهيئة فردا فردا...

شكرا لجامعة الفيوم من مصر على هديتها القيمة...

شكرا لأعضاء الهيئة المركزية بالجمهورية اللبنانية على دعمها الاستثنائي...

شكرا لكل من حملوا هلوساتي وسماديري في حقائب أسفارهم...

شكرا لأساتذة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط على " البطاقة البيضاء" لولوج الكلية على سجادة حمراء...

شكرا للقنيطرة مدينةً محظوظة بموقعها في المغرب النافع...

شكرا لكل من بعث بالتهنئة هنا وهناك وهنالك...

وألف رحمة على شاعر فاس محمد الحلوي

6 ماي 2019

الغش المقدس !!

أغلقوا أبواب الوطن ونوافذه، ولا تسمحوا لأحد بالشهيق أو بالزفير إلا بموافقة عُلوية... أطلقوا صفارات الإنذار وارفعوا أصوات أبواق الطوارئ... اليوم يوم الملحمة... شرطة وسيارات إسعاف وساحات مُلئتْ حرسا شديدا وشُهُبا... ما الطارئ؟ ثورة فرنسية أخرى أم بولشيفية أم ثورة عُرَابِيّ آخر؟ كلا... هذا يوم اجتياز اختبارات البكالوريا !!!

أتساءل حقا، لماذا تُزلزل الأرض زلزالها تحت أقدام هذه الفئة من التلاميذ بالذات؟ هل لأن هذه المرحلة من التعليم أكثر حسَّاسية من المراحل الأخرى؟ هل هي الفيصل بين النجاة وبين الموت؟ هل مستقبل المغرب رهين بهذه الفئة فقط، نجاته من نجاتها وغرقه من غرقها؟ هل الدولة تولي أهمية قصوى للتعليم إلى هذه الدرجة؟ هل الدولة تحارب الغش خوفا من عقوبة إلهية؟ ماذا سيحدث لو تُرك التلاميذ يفعلون ما يشاؤون في أوراقهم وحصلوا على درجات كاملة وانتزعوا تفوقهم من حراسهم وأصبحت نسبة النجاح مئة بالمئة؟ هل سيتراجع ترتيب المغرب العالمي في شتى المجالات، والكل يعرف أننا في ذيل هذا الكوكب؟ لماذا لا تشدد الحراسة على مسؤولي هذه البلاد، الذين انتهبوا صناديق الدولة صندوقا صندوقا، واختلسوا مقدراتها في واضحة النهار، أم هذا غش مقدس؟ كيف تمنع تلميذا من الغش وهو عارف أصلب معرفة أن وطنه مغشوش تماما، بل، هو غارق في الغش إلى أبعد الحدود... فقيهه يغش، وأستاذه يغش، شرطيه يغش، موظفه يغش، وزيره يغش، حكومته تغش، هواؤه وماؤه مغشوشان، خبزه مغشوش، إعلامه مغشوش، ثقافته مغشوشة...

إني طبعا لا أناصر الغش ولا أفرش له سجادة حمراء؛ إني فقط أنتظر هذا الثعلب متى يتخفف من جبة الواعظين !!

13 يونيو 2019

لَكُم العُتبى حتى تَرضون...

عاتَبَنا أحد الأحباب على عدم الحضور والمشاركة في الأمسية الشعرية المقامة يوم أمس على شرف الفائزين بالمسابقة الربيعية المنظمة من لدن منتدى الأدب لمبدعي الجنوب في تارودانت العامرة. أما وقد وجب الاعتذار، فإني أرى أن أزفَّهُ شعرا مادام الحاضرون إما شاعر وإما شاعر... فأقول لمن لم أَرَهُم:

أحـــارُ جـــواباً حـــين أَنعـــتُ بالصـــدِّ
وإنَّ مســـــافات الغيـــــابِ بهـــــا رَدِّي
أَبَى اللهُ إلا أن يَمُـــــدَّ بنـــــا النَّـــــوَى
وقـد تأخـذُ الأقـدار مـن مُشـتهى العَبْـدِ
تُـــديرُ صروفُ الدَّهـــرِ دفَّـــةَ هَمِّنـــا
أَ أَكْـــتُمُ أَحْمَـــالَ السَّـــرائِرِ أمْ أُبْـــدِي؟
وكلـــكُمُ صحـــبي عـــرفتُمْ مِـــن الدُّنا
نصـــيباً، وإنّي لســـتُ أعرفهـــا وحْـــدِي
زَبَـــرْتُم مـــن الأشـــعار كلَّ خَريـــدةٍ
كأن قوافيهـــا تُصـــاغُ مـــن الشَّـــهد
فمـــاذا يزيـــدُ الجمـــعَ مـــثلي إذا عـــوى
عُـواءً كـما تعـوي الذئـاب مـن الجَـرْدِ؟
كفـــاني مـــن الأمـــس القريـــب ســـماعُكم
فـــكل مُغَـــنٍّ بعـــدكم محـــضُ مُعْتَـــدِّ
فهـــل تقبلـــون العـــذرَ صحـــبي لأنـــني
أخـافُ مَلامَـاتِ المَجَـامِعِ مـن بعـدي؟
رجـــوتُ ولكـــنْ قـــضى اللهُ أمـــرَهُ
وبعـــضُ رجـــائي لا يُفيـــدُ ولا يُجْـــدي

لعنةُ سيبويه !

متصفِّحاً البريدَ الفيسبوكيَّ الواردَ كالعادة، فتحتُ إحدى الرسائل التي تقول: " أستاذي الكريم، هلاّ تكرمت وأعربت جملة " لَتَدْخُلُنَّ " في قوله تعالى: " لتدخلن المسجدَ الحرامَ "، وجملة " اكْفِلْنيها " في قوله تعالى:" فقال اكفلنيها وعَزَّني في الخطاب "... لا أعلم لماذا يصبُّ علينا المدرسون لعنة سيبويه هاته؟ " انتهى كلام الرجل.

في الحقيقة لم يزد هذا الطالب عن إفصاحه عما في النفس من خواطر وأحكام حول لعنة " الإعراب " التي تقشعر لها الأبدان كلما ذُكرت في موضع؛ وقديما أكّد أحمد حسن الزّيّات في كتابه " في أصول الأدب " على أن النّحو آفة اللغة، مشيرا إلى درجة تعقيده وإلى المناهج المعتمدة في تدريسه...وللموضوع شعوبٌ وذيولٌ لعلنا نتطرق إليها في موعد آخر...

أما إعراب الجملتين - للإفادة- فهو كالتالي والله أعلم:

- لتدخُلُنَّ: والأصل في الجملة: ل+ تدخُلُوْنْ+ نَ.

اللام لام التوكيد؛ تدخُلُنَّ: فعل مضارع مرفوع بثبوت النون المحذوف تقديرا لتوالي الأمثال (نون الفعل ونون التوكيد)، أما الواو المبنية فمحذوفة لالتقاء الساكنين ونون التوكيد حرف مبني لا محل له من الإعراب، وواو الجماعة المحذوف في محل رفع فاعل تقديره أنتم.

- اكفلْنيها: وللتبسيط نجزئ الجملة كالتالي: اكفِلْ + نِ + يْ + ها

اكفلْ: فعل أمر مبني على السكون والفاعل ضمير مستتر تقديره أنتَ؛ النون نون الوقاية؛ الياء ياء المتكلم، ضمير متصل مبني على السكون في محل نصب مفعول به أوّل؛ ها: ضمير متصل مبني في محل نصب مفعول به ثانٍ.

لي عودة إلى الموضوع بتفصيل مع هذه " اللعنة " في مستقبل الأيام...

7 شتنبر 2019

لا محل له من الإعراب !!

وأنا كالعادة أتصفح الكتب المدرسية " المنقحة " - بتعبير الوزارة-، أثارتني ملاحظة تكررت أمام ناظريَّ مرات ومرات، ولأن الأمر أضحى في حكم " الثبات"، فكأنه فتوى يوسف عليه السلام، وقد قضي الأمر الذي فيه تستفتيان...وإنني قاصد طبعا " استحواذ " السادة " المفتشين " على تأليف وإعداد الكتاب المدرسي، دون إخوانهم المدرسين الممارسين بين الجدران، كأن الموضوع لا يهمهم لا من قريب ولا من بعيد،

والظاهرة على كل حال فاقعة الوضوح والتجلي في قطاع التعليم الابتدائي بالخصوص.

أعطيتُ حقيقة الإشكالَ بعضا من وقتي، فلم أخرج بما يقنعني ويسكت خواطري المائجة، لكن مع ذلك لمست ربما ما يبرر للوزارة الوصية هذا الإقصاء السافر لأستاذ التعليم الابتدائي (مع عدم إنكار حالات شاذة ومكرسكوبية في بعض مواد التفتح الثانوية)، ومن المبررات ما يلي:

+ الأستاذ آلة تقدم الدروس فقط، وهذا دوره الواقعي (عكس ما جاءت به " تراتيل" الميثاق).

- الأستاذ يعجز عن إعداد برنامج مدرسي، لعدم أهليته وضعف تكوينه التربوي والأكاديمي، عكس السيد المفتش.

- هذا الأستاذ أقصى ما يجيده إعراب جملة بسيطة أو التعبير بتراكيب يشوبها لحن صارخ، فكيف نقلده مسؤولية إعداد مقرر مدرسي بحياله ؟

- المفتشون يبرؤون بأنفسهم أن يُجالسوا مدرسا مسحت سنون عمله المتراكمة المعرفة الإنسانية، قديمها وحديثها.

- الوزارة اطلعت على كتاب الفقيه الحنبلي أبو الفرج بن الجوزي، خصوصا الفصل المتعلق بأخبار الحمقى والمغفلين من المعلمين، فخشيت على أبناء الشعب من الحمقى!

- الوزارة اعتمدت قول الجاحظ: " قسم الله الحمق مئة جزء، فجعل منه تسعة وتسعين جزءا في المعلمين، والجزء الآخر في سائر الناس"... أو قول الشاعر:

وإن أحمقَ خلق الله كلهِمُ من كان بالفضل والتعليم مشتغلا
ذاعت حماقتهم في الناس واشتهرت بين البرية حتى أصبحوا مَثَلاَ

إن تعداد المبررات لن ينتهي مهما أسهبنا في ترصيفها على هذا الحائط، مع عجبي من تناسي وزارتنا تجربة الراحل أحمد بوكماخ الذي استطاع، بإيعاز من العلامة عبد الله كنون، تأليف كتاب مدرسي بسيط اخترق أجيالا تترى، صنع قامات فكرية وهامات علمية وأدبية عديدة.

ملاحظة: هذه سمادير المساءات وهلوسات السُّمَّار، ولا علاقة لها بالمفتشين الأفاضل. أردنا فقط إثارة هذه الملاحظة من باب تمثّل عبارة: لا محل له من الإعراب !

29 شتنبر 2019

دونك القبر !

ودُونَكَ القبرُ إذْ تُلقى المقاديرُ
بعد البلِيَّةِ لا تُغْني المحاذيرُ
لمْ يسْعَ بيني وبينَ الفَقْدِ مُفتَعِلٌ
فكيفَ فاحَ على ثَوبي المَغافِيرُ ؟
لمّا دَهتْني البَرايا قالَ أحْصَفُهُمْ:
ما ثُقِّفَ السيفُ إنْ لمْ يُنْفَخِ الكيرُ !
قَواصِمُ الظَّهرِ قد جاءتْ مُبَشِّرَةً
وليتَ تُسْعِدُني هَذي التَّباشيرُ !
مازالَ في رئةِ الزَّمَّارِ من نفَسٍ
يشْدُو وإن لم تعُدْ تشدو العصافيرُ
إنِّي وإن كنتُ مهزوماً أمامَكُمُ
وإن تراءَتْ لك الخيباتُ نِحْريرُ
أصُوغُ في الحكمةِ المِعْكاءِ صَوْغَ يَدِي
لا بارِئًا ما بَراهُ "القيسُ" و"الزّيرُ"
وأزْبُرُ الشِّعْرَ مِطواعاً وأُصْمِتُهُ
ولاتَزالُ على الهرجِ الأحافيرُ
وما سَرَقْتُ صُواعَ المُلْكِ من مَلِكٍ
ولوْ حَكَمْتَ بما قدْ تَشْهَدُ العِيرُ
لا تسْأَلَنْ كيفَ قَلَّ الماءُ في نُهُرٍ
وكيفَ غادَرَتِ العُشَّ العصافيرُ
لا تسألَنْ نَعْشَكَ المَقْدُودَ من خَشَبٍ
إنَّ التَّوابيتَ تكفيها المَسَاميرُ
لا ضيْعَةٌ سُوِّرَتْ، لا حنطةٌ حُصِدَتْ
فَلِمْ تَكاثَرَ من حَوْلي النَّواطيرُ ؟
أنا المُرَقَّلُ في الظَّلْماءِ قانِعَةٌ

عيْـــنِي بمـــا لمْ تُصَبِّـــــحْهُ اليَعَـــافيرُ
يكفـي مـن المـاءِ ضَحْضـاحٌ عـلى عطَـشٍ
ولـــيس تكفيـــكَ في الضَّـــعْفِ المعـــاذيرُ
كـــفاكَ ! مَـــن يَشْعَـــبُ الأيّامَ لـــو كُـــسرت
كـــذاكَ لـــو هُشِّـــمَتْ تـــلك القـــواريرُ ؟
أوْهـــاقُ صَـــدْرٍ زَحَرْناهـــا عـــلى كَمَـــدٍ
فهـــلْ ســـترشَحُ بالنـــورِ الدَّياجـــيرُ ؟
مـــاذا عســـاهُ يقـــول النَّخـــلُ مُحتَطَبـــاً ؟
حـــدِّثْ بمـــا صـــنعتْ فيـــه المناشـــيرُ
مـــاذا عســـاهُ يَسُـــكُّ المـــرءُ مـــن كَلِـــمٍ
مـــا عُظِّمَـــتْ في المقامـــاتِ السَّـــماديرُ ؟
لعـــلَّ قـــبريَ محفـــورٌ هنـــا سَـــلفًا
وهْـــوَ الحقيقـــةُ إن صـــاحتْ بنـــا: ســـيرُوا
لا ســـاحَ يأويـــكَ فلْتـــأوي إلى جبـــلٍ
فقـــد سَمَـــتْ في براريهـــا الخنـــازيرُ
تقْـــضي المـــوازينُ في الأحْـــمالِ إن قُسِـــمَتْ
ولـــيسَ تَقْـــضي إذا تُعْطَـــى الدَّنانـــيرُ

23 نوفمبر 2019

هذا أمرٌ دُبِّرَ بليلٍ !

كنا نود تسخير هذا الفضاء الأزرق، آخرِ معاقل الحرية، لنشر ما يفيد وما يجعل الرداءة المنداحة أرضاً وجوّاً وبحراً تنحسر وتتقلص قليلا، لكن وطننا يأبى إلا أن يعيدنا إلى عصر ما قبل اختراع العجلة، ليجعل كل متحركٍ ساكنا في مكانه، ميتا في مهده، فنقضي الوقت من جديد في مرافعات جوفاء، مطالبين بحقوقنا المهدورة، رافعين عقيرة الظلم والفساد، نادبين صارخين زاحرين: " وا معتصماه ! "... أُفٍّ وتُفٍّ على زمن أصبح فيه الإنسانُ كجورِبٍ وخُفٍّ... لقد بلغنا قاع الكون وقراره وما عاد أحد يشاركنا الأسافلَ والحُضُض، حتى غدونا أسياد التفاهة وعرَّابي البؤس وتحفاً نفيسة ما أتى الدهر قبلاً بما يضارعها.

سجنتم رجلاً يستيقظ صباحا مخترقا قَرَّ تارودانت وبردها المتوحش، وكله أمل أن يدفع عن أبناء هذا الوطن بعضا من جهلهم ومن بِدائيتهم السلوكية والمعرفية؛ سجنتم الرجل وسجنتم معه في الحقيقة كل رجل امتهن التعليم أو يفكر في امتهانه مستقبلا. ها هو ذا خلف قضبان سجونكم، مَثَله مثَلُ أباطرة المخدرات وسافكي الدماء وقطّاع الطرق وهلمّ جرّا. هنيئا لعدالتكم ولقضاتكم ولمحاكمكم ولدفاعكم، وهنيئا لكم لأنكم فزتم في حربكم ضد المدرسة التي أزالت لَحْنَ كلامكم وقوّمت كتابتكم، فصرتم تنسجون خطبا رنانة وتكتبون مذكراتكم العصماء لتطعنوا ظهرها، وقد صدق مَعْنُ بن أوسٍ قائلا:

أُعلِّمه الرّمايةَ كل يــومٍ ولما اشتدَّ ساعِدُهُ رَماني
وكم علّمتُهُ نظمَ القــوافي فلما قال قافيةً هَجاني

إننا لا نسعى في هذا المقام إلى تقمّص دور " مُحامي الشيطان"، ولا كنا أغرارا نصدق كلّ دم كذِبٍ يأتينا به إخوة يوسف، لكن على الأقل لو كان هذا المُدان مُخطئا وثبت الجُرم في حقه، فعلى الأقل أن تمر المحاكمة في جلسة سرية، حفاظا على مشاعر أسرته وعلى هيبة المدرسة العمومية، فإدانة فرد كإدانة جماعة تضمها مؤسسة واحدة.

قد لا نجزم في هذه النازلة برأي نهائي يحسم القضية، بيد أن إحساسا ينتابنا بأن خيوط المؤامرة حُرِّكت بليلٍ، والأمر له بداياتٌ معروفة في قضايا سابقة جعلت الأستاذ دائما في قفص الاتهام، ليأتي "التتويج" بجعل هذا الروداني عبرة لمن أراد العبرة، وكأن الدولة نفسها جعلت المدرسة العمومية في مرمى سهامها ورصاصها، وقد نجحت بالفعل في جعلها فريسة تنهشها ألسن

المجتمع والإعلام، بل، طالتها الأنياب والمخالب بعدما سقطت عاجزة عن الدفاع عن نفسها، تماما كما سقط بطليموس الأمازيغي في يد كاليجولا الروماني، والنعمان بن المُنذر في يد بَرْويز (كسرى فارس)، وسعيد بن جُبير في يد الحجاج بن يوسف، وبشار بن بُرد في يد الخليفة المهدي، وابن رشد في يد المنصور الموحدي، وصدام حسين في يد بوش الابن... والأمثلة على ثنائية الضحية والجلاّد بعدد حبات الرمال.

أخيرا، اعلم - رعاك الله - أيها المعلم الفاضل أنكَ - شئت أم أبيتَ - محض خرقة تمسح أدران جهالة الصبيان وسخام سلوكاتهم غير المنضبطة، وانسَ أنك رمز للتربية وللتعليم وللفضل، فمجتمع أبيك ليس مجتمع ابنك، وقيم ماضيك ليست قيم غدك؛ واعلم أن ابن الجوزي الفقيه الحنبلي قد ضرب بك المثل في الحمق والغفلة، مُفرِداً فصلا كاملا من كتابه " أخبار الحمقى والمغفلين" عنك وعن نوادرك حتى أصبحتَ أضحوكة القرن السادس الهجري، ف " معاشرة الصبيان تورث الغفلة "كما قال، فما عساها صورتك في أذهان العامّة تكون اليوم؟ فاطلق ساقيك للريح قبل أن يطلق عليك المجتمع سفهاءه وحمقاه وكلابه الضّالّة، واسمع كلام مجرّب قيل فيه ما لم يقله مالك في الخمر وما لم يقله جرير في الفرزدق !!

إلى قُمامة أخرى...

28 يناير 2020

" صابونُ " علاءِ الدينِ السّحريّ !!

عرفت البشرية منذ القدم أوبئة فيروسية شتّى، وكذا أنظمة جرثومية عدّة، ابتداء من الطاعون الأنطوني والهواء الأصفر أو الكوليرا (القرن الثاني م) وطاعون عمواس (القرن السابع م) وطاعون جستنيان (القرن السادس وعاود الظهور في القرن الثامن م) وغيرها مما اجتاح أوروبا بعد ذلك في أواخر العصر الوسيط، ثم إلى أفريقيا الموبوءة إلى يوم الناس هذا بالملاريا وأنواع الأنفلونزا القاتلة... وبما أن التدوينة لا تتسع للتفصيل في تاريخ الأوبئة ومناطق انتشارها، فسأحيل القارئ على عناوين قد تحيطه علما بما جرى، وتدفع عنه عِلما مخجلا صارت حتى قنوات ومواقع الرقص الشرقي تدعي التخصص فيه !!؛ وإني قاصدٌ:

كتاب " الفيروسات " لدوروثي إتش كروفورد، وكتاب " الفيض" لديفيد كوامن، وكتاب " الأمراض المعدية وعلاجاتها" لنخبة من العلماء، وكتاب " الموت الأسود" لروبرت س جوتفريد، وكتاب " علم الأوبئة " لرودولفو ساراتشي... وغيرها مما قد يسعفك البحث في الحصول عليه، أما لئن شئت الاطلاع على تاريخ المغرب المَؤُوف فعليك بكتاب " تاريخ الأوبئة والمجاعات بالمغرب " لمحمد الأمين البزاز.

هكذا وبلا مقدمات، من مدينة ووهان الصينية، جاءنا فيروس من فصيلة " الكورونا"، المسبب لمرض (كوفيد- 19)، مثيرا هلعا في الشعوب العربية بحدّة، حتى أصبح الموضوعُ موضوعَ نكتةٍ وتندّر؛ وهنا وَجب الترحُّم على ابن خلدون لأنه كان صادقا !

ناسين أو متناسين ضحايا نزلة البرد العادية والانتحار وحوادث الطرق ومرض فقدان المناعة المكتسب والملاريا والكحول والتدخين والمخدرات والسرطان والجوع، المعدودة بالملايين عبر العالم، وكأن الموت بالكورونا موت نوعي وأشرف من موت يأتي من طرق أخرى!! لكن، بما أن الأوهام - كما قال غوستاف لوبون- هي التي تقود الجماهير وليس العقل، فالأمر بات مفهوما.

وسط هذا العجاجة الإعلامية ألقى علينا وزير التربية الوطنية- الذي أُسرِيَ به إلى عوالم الاستهزاء والفكاهة - بمذكرة وزارية مفادها دعوة التلاميذ إلى استعمال " الصابون السائل " المُطهّر والمُعقِّم في المرافق الصحية الخاصة بالمؤسسات التعليمية عبر التراب الوطني، خشية تفشي هذا الوباء القاتل في صفوف التلاميذ، انسجاما مع خطة وزارة الصحة الوقائية التي لم يشهد الدّهر مثلها منذ الانفجار العظيم...

يا سيدي الوزير، هل اتصلت بمنظمة الصحة العالمية وبمنظمة أطباء بلا حدود وباليونسيف قبل التفكير في صابونك الوزاري؟

يا سيدي الوزير، هل تأكدتَ أن المدارس المغربية مزودة بالماء وتتوفر على مرافق صحية؟ أم كنت تتحدث عن بيتك الفاره؟؟

يا سيدي الوزير، هل تواضعتَ يوما وولجت حجرات الدرس كم تضم من تلاميذ؟ كيف يمكن منع العدوى في فصول تُبَطِّنُ 40 أَنْفًا وفَمًا؟

يا سيدي الوزير، هَبْ أن الصابون المطهر يفي بالغرض، وهو كذلك ولا شك، هل استقصيتَ ثمنهُ وتكلفته، والتلميذُ لدينا غلبتهُ كسرة خبز وقطرات إدامٍ في أكواخ مدرسية جافة لا توفر حتى إطعاما يحفظ كرامته؟؟؟

يا سيدي الوزير، الزم مكتبك المكيف وجنّد حولك جنود قياصرة روما وأكاسرة الفرس، واعتصم بمن حازوا جائزة نوبل في الطب، واحذر الموت لوحدك، أما نحن، فقد وُلدنا ميتين ولا نخشى الموت...

إلى صابون آخر...

6 مارس 2020

تَجاهَلهُنَّ... يأتِينَكَ سَعْيًا !!

كنتُ ومجموعة من أصدقائي الكرام، أيام الرّباط في العالم القروي، نقرأ ما تيسَّر لنا ونكتب على قدر ما نقرأ. فكنا إذا أُعجبنا بما زبَرناهُ ورأينا فيما خططناه ما يشبه الكمال، أرسلناه - حالمين- إلى مواقع ومجلات أدبية وفكرية، بغية الحصول على اعتراف ذاتي ما، أو ربما لنذكِّر العالم أن هنالك أشباحا خلف الشمس تكتب ما يشبه المقالة والقصيدة والرواية والخاطرة وكلَّ بُنيّات القلم... لكن الغريبَ أن نصاب بخيبة أمل بعد كل محاولة، وأن تُصادَرَ أحلامنا بالتجاهل وبالتعالي وبالإقصاء، وأحيانا بمطالبتنا ببيضة الديك !! وليس هذا بِدْعا على بني جلدتنا منذ قرون، حتى إذا اشتدّت الأعواد وأصبح حَبْوُنا ركضا وعَدْواً، جاءت تلكم المواقع تخطبُ الوُدَّ، وتدَّعي الصَّدرَ الرَّحب...لذا، قررنا، أنا ومجموعة من الفاعلين الإعلاميين، فتح موقع جديد، أطلقنا عليه، من باب شمولية الإبداع، موقع أقلام (www.aqlam.info)، موقع ينشر كل ما تجود به الأقلام في المعرفة الإنسانية عموما. والموقع حاليا عربيُّ اللسان، في انتظار إصدار نسخ منه بلغات أخرى.

الموقعُ صناعة محلية وبمجهودات ذاتية، متحرّرٌ من كل دعم خارجي يُطَوّقُ الخط التحريري بإملاءاته وبأغراضه.

الشكر موصول للأستاذ عزيز جنال المكلف بالجانب التقني، والأستاذ محمد أوحسين المكلف بالتصميم الغرافيكي.

مرحبا بكل قلم يتطلع إلى نشر الجمال.

28 مارس 2020

وخمرُ أبي الرَّوقاءِ ليستَتْ تُسْكِرُ !!

هذه ورطة أخرى ألقت وزارة التربية والتعليم آلاف المدرّسين والمدرّسات في حاقِّها، وما أكثر ورطاتها؛ وهذه بنتُ دهرٍ جاءت على جناح الفجأة داهمتهم مداهمةً جعلتهم في حيصَ بيصَ من أمرهم، أو أَدَقَّ من هذا، "كأنهم حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ فَرَّتْ من قَسْوَرَة " !! وكأن رَبَّ الطبشور في دَعَةٍ وفي بَحابيحِ الجَنَّة، ولا ينقصه إلا التّسَلّي بما أضحى يُسمى ب " التعليم عن بعدٍ " !!

أَبِنتَ الدَّهرِ عندي كلُّ بنتٍ فكيف وصلتِ أنتِ من الزِّحامِ؟

جَرَحْتِ مُجَرَّحاً لمْ يَبْقَ فيه مكانٌ للسّيُوفِ ولا السِّهام

لا أعلم تحديدا في أيّ غارٍ أُوحِيَ للسّيد الوزير بما هو مُمْعِنٌ وخائضٌ فيه إلى ما فوق الرُّكب، كما لم أفهم إلى حدّ الآن، كيف سَوَّلتْ له نفسهُ أن يجعل ما تلاهُ على ألواحهِ - مما سمّاهُ تعليما عن بعد - واجباً ضربةَ لازِبٍ؟ ولنفترض أن هذا التعليم قد أثبت نجاعته في دول الشمال، فماذا تُراكَ أعددتَ لهذا التحدّي؟ حوارات كاريكاتورية على قنوات عمومية دأبتْ على تعليمنا أن النّحل هو ما يحوم حول حاويات القمامة وليس الذباب؟ تقارير ملآى بأرقام أَلْفِيَّةٍ عن الموارد المُنتجة وعن عدد المستفيدين من الأقسام الافتراضية؟ الله الله، إنك حقّاً تستحق أن تُمدَح بما مُدِح به المُعِزُّ الفاطميّ، اللهم غَفْرًا، وأقصد مبالغة ابن هانئ الأندلسيّ:

ما شئْتَ لا ما شاءتِ الأقدارُ فاحْكُمْ فأنتَ الواحـدُ القَهَّارُ

هذا ثُلُثُ التلاميذ ملَكوا من الوسائل ما يُمكّنهم من المواكبة والمُسايرة (أنترنت.. اشتراكات.. بطاقات تعبئة... هواتف ذكية... ألواح إلكترونية...)، نقول لهم ملءَ الفمِ: هنيئا لكم ولذويكم، وزادكم الله من فضله، ولا يُلَقّاها إلا ذو حظ عظيم. أما الثُّلُثان ممن تُعوِزُهم الظروف المادية، ولا يملكون من حُطامِ التكنولوجيا نقيراً، فما مصيرهم؟ هل سيتم تعويضهم بطريقة ما " تدَّعي" الإنصاف وتكافؤ الفرص؟

لنفترض أن هذا المجتمع السفليّ سيُرحم بإعادة كلّ ما نُفخ في تلكم الوسائل التكنولوجية للمجتمع العلويّ، فلماذا نخنق المدرّسين بما لا يعلمونه، ونجبرهم أن يكونوا خبراء في نظرية " التعليم عن بعد" وفي تكنولوجيا الاتصال عبر تطبيق قاعدة "كُن فيكون"، إرضاءً للمنظمات الدولية، وتزيينا للتقارير الوزارية؛ إذا كان كل شيء سيستدرك بعد انقضاء الوباء؟ لماذا لا ندع الطفل يستمتع بوقته مع ذويه، مجنّبين إياه ضغطا مُضافا إلى ضغط الحَجْر الصحي والعُزلة البيتيّة؟ ما الذي

سَيُفوّتُهُ ويخسرهُ المغرب إذا أجّلنا كل شيء إلى ما بعد الجائحة؟ هل من المنطقي البكاء والعويل على فواتِ عامٍ دراسي إزاء العُقُود من السنين المُضاعة في الخواء وفي اللهو وفي التجهيل " عن بعد وعن قرب "؟

ثم، هل من المنطقي أن تستنجد الدولة بالمدرسين في هذه المرحلة، متناسيةً غزوات القوات العمومية في حقهم- بالأمس القريب- في شوارع الرباط، حتى أصبحت وزراتهم البيضاء حُمْراً قد رَوينَ، وما يومُ حليمةَ بِسِرٍّ؟ يا سيدي، إنهم يحملون ذاكرة ضعيفة، وهذا من حظك، وانخرطوا في عجينتك بما يملكون وما لا يملكون، فهل جزاء سِنِمَّارٍ أن تُجَمَّدَ ترقياتهم هكذا وحْيًا آخرَ أُلقيَ في رَوْعِكَ؟ لماذا لم تُجمّد عروقهم كذلك؟ ماذا عنك، هل جمّدتَ كلّ علاواتك الجزافية وسط مكتبك الفاره؟

إن خمر أبي الرّوقاء ليست تُسكرُ كما في المثل القديم، والتعليم عن بعد يحتاج لعمل تنخرط فيه الدولة في سنوات الرخاء، وليس استعجال الحكمة والذكاء والخوارق في الأيام العِجاف... ورحم الله بديع الزمان الهمداني قائلا:

سَتَعْلَمُ حينَ ينْجلي الغُبارُ أَ فَرَسٌ تحتكَ أَمْ حِمارُ !

4 ابريل 2020

تنبيهٌ وإضافة...

تتبعتُ كالعادة بعض المحتويات التربوية المبثوثة على وسائط التواصل الاجتماعي، فيما يرتبط بالدروس المصوَّرة في مواد اللغة العربية، في محاولة لتقريب العملية التعليمية إلى المتعلم المحجور صحيا في بيته. وأشهد أن زملائي في الميدان أتوْا حقًّا بكل عجيبة في عروضهم المميزة، وإن داهمهم هذا المُسمى ب "التعليم عن بعد" وأربك حساباتهم. لكن، وَجَبَ حقا رفع قبعة التقدير والإكبار لأولئكم الذي أغنوا المحتوى التربوي بكل تفانٍ وإتقانٍ، ونوافل القول لا تحتاج إلى تأكيد بدليل.

في هذه التدوينة أحببت الإشارة فقط إلى تنبيه إخواني وأخواتي إلى جزئية تمّ إغفالها بشكل عام في درس " العدد والمعدود" (المستوى السادس)، والمتعلقة بالأعداد المحصورة بين 3 وبين 9، والغافلُ في الحقيقة من زرعوا تلكم الكتب المدرسية بعوراتها في تراب المدرّس وليس هذا الأخير في حدّ ذاته؛ طبعا مع حثّ الممارس على الاجتهاد و"تجاوز" إملاءات المراجع التلاميذية كلما اقتضى الأمر ذلك.

أُلقيَ محتوى هذا الدرس في مجمل المواد المصوّرة بالتقليد المعروف، تبعا لما تمليه القاعدة العامة المعروفة: "مخالفةُ العددِ معدودَهُ تحت شرط التذكير والتأنيث "، وهذا مأنوسٌ به إذا تعلق المعدود بالأعداد (3,4,5,6,7,9)، أما العدد 8 فله قصة أخرى، والغريب أن لا إشارة إليه ولو بالغمز في مراجعنا التلاميذية، بالرغم من خضوعه لشرط المحصورية بين 3 وبين 9 !! اختصارا نقول:

العدد 8 يكتب بثلاث صيغ إملائية وهي: ثمانية؛ ثمانٍ ؛ ثمانِي، ويتحقق تأنيثه بإضافة تاء (ثمانية)، ويتحقق تذكيره بحذف التاء فقط وليس التاء والياء معا (ثمانِي). لذا، فكلمة " ثمان" في جملة " نصحتُ ثمانَ طالباتٍ "كلمة خطأٌ، إذ لا مسوغ لحذف الياء، والصواب قول: " نصحتُ ثمانِي طالباتٍ"، وعدم معاملة العدد 8 معاملة الأعداد 3....9 الخالية من الياء.

1- بالنسبة ل(ثمانية) المؤنثة، فيكفي أن يكون معدودها مذكرا لتُكتب كذلك ولا إشكال.

2 - نكتبُ ثمانِي أو ثمانِيَ:

أ - في حال كان العدد في مقام النصب (رأيتُ ثمانِي/ ثمانِيَ من الطبيباتِ).

ب - في حال كان العدد مضافا (نصحتُ ثمانِيَ/ثمانِي طالباتٍ). قال الله تعالى (على أن تأجُرني ثمانِيَ حِجَجٍ).

3- نكتبُ ثمانٍ:

أ- في حال كان العدد في مقام الرفع (حضرتْ ثمانٍ من الطالباتِ).

ب- في حال كان العدد في مقام الجرّ (سلّمتُ على ثمانٍ من الطالباتِ).

ملاحظات:

- يُعرب العدد 8 إعراب الاسم المنقوص النكرة في حالتي الرفع والجر (تُحذف الياء وتُقدَّرُ عليها الحركة)، أما في حالة النصب فيجوز التنوين أو عدمه.

- ما يسري على العدد إذا كان مُقدَّما يسري عليه إذا كان مؤخرا (اشتهر من الشواعرِ ثمانٍ / اكتفيتُ من الركعات بثمانٍ / شاهدتُ من البطَلاَتِ ثمانيَ أو ثمانيًا).

- في حال كان المعدود مؤنثا مع العدد المركّب 18، فيجوز إثباتُ الياء، وهو الأصل (كَرَّمَ الوطنُ ثمانيَ عشْرَةَ مُدَرِّسَةً)، كما يجوز حذف الياء تخفيفا (كرّمَ الوطنُ ثمانَ عشْرَةَ مُدرِّسَةً).

وحسبُ المدرّس مع العدد 8 ما أُدرج أعلاه تفاديا لحرجٍ يتورط فيه أمام تلميذٍ نابهٍ متسائل، أو أمام مسؤول تربوي كيفما كان، وإلا فقصّة هذا العدد كقصّة الكرة السوداء في لعبة البيلياردو الشهيرة. والله أعلم.

17 ابريل 2020

مِنَ القُفَّة إلى لِجامِ العِفّة !!

{وأنا لمسنا السماء فوجدناها مُلئت حرسا شديدا وشُهُبا وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجدْ له شهاباً رَصَدا (9) وأنا لا ندري أشرٌّ أُريدَ بمن في الأرض أم أراد بهم ربهم رَشَدَا (10) } (الآيات من سورة الجن).

لم أجد حقيقة أفضل من الآيات الكريمات أعلاه بلاغة وبيانا وإيجازا وتصويرا لمشهد الحريات، الذي يُنتظر أن يصفع الشعب المغربي بُعَيد المصادقة على مشروع قانون (20/22)، القانون السّالب للحريات، والنّاسف لكل جهود المناضلين والحقوقيين منذ فجر الاستقلال، وكل الشوط المقطوع من أجل مغرب، على الأقل، شبه ديمقراطي، لدى شعبه الحق في أخذ جرعات "إيحيائية" من أوكسجين الحريات، وأقصد بالذات حرية التعبير. أما المعاهدات الدولية بهذا الشأن وبغيره، فلا ينبغي الحديث عنه البتة، فالكلام فيه ممضوغ ومعروف، والواقع وسيلة إيضاح كافية. فكيف إذن يكون موقفك إذا كان هذا الفضاء الأزرق، آخر معاقل الحرية، قد مُلئ بين عشية وضحاها حرسا شديدا وشُهُبا؟ ماذا عساك تفعله إزاء "حزام عفّةٍ " أو لجامٍ مغربي الصنع، لو أُلجِمَ به فاهُك؟ اختصارا، ما الإنسان إن كان مسلوب الرأي، مقطوعَ اللسان؟

إن الدُّول النيوباترِمُونيالية، أو الغَنائمية بتعبير أديب نعمة، التي تتغنى بالحرية وبالعدالة الاجتماعية وبالكرامة الإنسانية، هي أول ما يصيب هذه الثلاثية في مقتل، وتجعلها نادرة ندرة الكبريت الأحمر، فإذا ما تحصّل المرء على النُّزُرِ القليل منها، فكأنما حصل على غنيمةٍ عظيمة ونَفْلٍ جزافي !! والأسوأ من كل هذا وذاك، استغلال الدولة ظروفا استثنائية ضاغطة يمر منها الشعب المحجور صحيا والمغلوب على أمره والمنتظر لكل إعانة بسيطة تطيل عمره البيولوجي بضعة أيام. فإن كانت الدولة قررت قطع ألسنة التعبير مقابل ما قدمته للفقراء من عطاياها الزَّمِرَةِ (القليلة) والمُزَلَّجَة (على تقتير) وإعانتها التضامنية، فالموت جوعا أهون من قفة زيت وسكر وحفنة دقيق نجرُّ بعدها أذيال العبودية عُمُراً بحياله، والسلطة السياسية على كل حال، كما قال المسرحي برتولد بريخت، لا ينبغي أن تستولي على أشكال التعبير كما تستولي على الرخص والتصاريح.

ما دمتُ مواطنا مغربيا، فمن حقي إذن، شرعا ودستورا (الفصل 25 من باب الحريات والحقوق) وعرفا، إبداء رأيي سلبا أو إيجابا في أي منتوج كيفما كان، مع تجنب التصاريح أو الكتابات الزائفة أو الأكاذيب والأغاليط، هنا نتفق تماما مع عرّابي التشريع والمنظّرين من مكاتبهم

الفارهة، الذين يرددون في كل محفل قولة عمر بن الخطاب: "متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً؟".

هي تدوينة كتبناها قبل الحَجْرِ الفعليّ على حرية التعبير، وقبل تحزيم أفواهنا وأقلامنا بأحزمة عفة تمنع كل رأي، وتُصادِر كل كلام، وتقطع الطريق أمام كل منبر حر ولسان حر... قبل أن تصير فضاءات التواصل الإنساني هاته مكانا لنشر حكايات الجدّات وسمادير المراهقين وأخبار الحمقى والمغفلين...

3 ماي 2020

في رحاب كتاب

"دراسات في التراث الشعري والغنائي الأمازيغي"

عثرتُ صدفةً على الشهادة التالية صامتةً في بطن أحد الملفات، وقد كُتبت قبل عام تقريبا حين كان الكتابُ مُسوَّدَةً أوّليّة؛ وحين يحولُ الحوْلُ على ما يُزكّى عيناً ونقداً وَجَب آنئذ إخراج الزكاة، وزكاة المعرفة نشرها.

" إن لليوم غداً، وإن في الميدان لأفراساً مطلقةً، وإن أبواب العمل مفتوحة على مصاريعها أمام كل من أراد أن يعمل في أي عمل من الميادين، وقد زالت الأعذار بالاستقلال."؛ لم تكن هذه العبارة حقيقة إلا مقطعا يسيرا من مقدمة كتاب سوس العالِمة للعلاّمة محمد المختار السوسي، وقد تبادرت إلى ذهني لحظة الفراغ من قراءة فحاوي هذا الكتاب الطافح بدراسات ماتعة وغاية في الإجادة والإفادة. وليس هذا بمستغرب من الباحث سعيد جليل، وهو الباحث الذي عرفناه منذ سنوات مسكونا بالموضوع وبالهمّ الأمازيغيين، حتى لكأنه ممن طوّقت وصيّة المختار السوسي رقابهم بَلهَ أقلامهم.

تأتي أهمية متن هذا الكتاب- في نظري- في تحقيق شرطي الرّاهنيّة والشموليّة؛ الراهنية متمثلةً في اشتغال الباحث على مواضيع تتجدد ذاتيا كلما اقتربت منها الأقلام النقدية والتحليليّة، هي مواضيع لا ينقضي النقاش حولها بانقضاء زمن الخوض فيها، خاصة وأن معظم التراث الأمازيغي الغنائي شفوي المنشأ ولسانيُّ العبور عبر العصور، غير محكوم بالثبات؛ كموضوع أصول ومصادر الشعر الأمازيغي، وموضوع شعر الهجرة والمهاجرين (شعر الرايس إبراهيم ييهتّي نموذجا)، وموضوع المقاومة والرفض في شعر الرّوايس، وموضوع المقاربة الاجتماعية والسياسية للشعر السّوسي. أما شرط الشموليّة فقد تمكن الباحث من تحقيقه بتضمين مؤلَّفِه أغلب القضايا التي تلامس من قريب أو من بعيد ثيمة الأغنية الأمازيغية السوسية، وكلّ مُتعلِّقاتها بشكل عام، وكأيّن من أغنية لا تخلو من متن لغوي ومن لحنٍ- يُشكِّلُه إيقاعاها الداخلي والخارجي- ومن موضوع يحمل رسالة الرّايس/الشّاعر. ويُحسب للباحث أمانةً إحاطته الجيّدة بمعمار القصيدة الأمازيغية وتمظهرها في آخر الشوط أغنيةً تتفاعل مع المتلقي، ونجد كل هذا مبثوثا في المواضيع الأخرى ضمن متن الكتاب.

إن قراءةً عَجْلى ومنضغطةً لا تمنحنا صدقا مساحة كافية لتثمين جهود الباحث سعيد جليل، وما بذله من عمل بحثيّ جادّ ومهم يندرج في سياق المساهمة في توثيق الأدب الأمازيغي السّوسي على وجه خاص، وفي سياق المشاركة - ولو بالقليل - في مسار التدّوين الذي عرفه الأمازيغ عبر ربوع الوطن متأخرين للأسف.

إن الكتاب إضافة نوعية وكيفيّة للمكتبة الأدبية الأمازيغية المغربية، ومكسب للدوائر الثقافية الجهوية والوطنية، وحريٌّ بكل متطلّع إلى الإمتاع والفائدة أن يتحصل على هذا المرجع الطافح بالدُّرر.

51 يونيو 2020

بيضة الديك !

في مطلع القرن العشرين، صفّقَ العالَم لأستاذ كرسيّ الآثار المصرية في الكوليج دي فرانس" جان فرانسوا شامبليون"، إثر تمكنه من فك رموز اللغة المصرية القديمة، بعد قصة طويلة من البحث والتنقيب...بعدها تمكن هذا الرجل من وضع معجم بحياله للغة القبطية، فاستحق التنويه مرة أخرى. وفي سنة 1960 ألّف عضو الأكاديمية الملكية الهولندية للفنون والعلوم "هانز فرودنتال" كتابا موسوما بـ: لينكوس/ lincos، واضعا بين دفتيه أسس وقواعد لغة جديدة خاصة بالتواصل الكوني، يستخدمها العلماء للبث الإذاعي بين النجوم، وهي مصممة كذلك لتحقيق التواصل بين سكان الأرض والكائنات الفضائية الأخرى من خارج الأرض! والأهم، أن العالم- مرة أخرى- رفع قبعة التقدير لهذا الرجل لقاء عقله الخلاّق.

إذا كان شامبليون قد حصد على الثناء الكامل عن " لغة بائدة"، أخرجها من توابيت الفراعنة الغابرين، وإذا كان فرودنتال ممن لقوا التقدير العلمي اللائق به لقاء تصميم لغة يمكنها ربط سكان الأرض بسكان السماء - إن وُجدوا -، فكيف ترتفع أصوات تحقيرية تصغيرية مستهزئة بمن طالبوا بإدراج الحرف الأمازيغي على واجهتي بطائقهم التعريفية؟ أليس ذلك من حقهم؟ أليسوا أبناء شرعيين لهذا الوطن؟ هل بالغوا في مطلبهم؟ أليست اللغة الأمازيغية لغة مدسترة كأختها العربية سواء بسواء؟ ما العيب في مقالهم؟ بالله خبّرونا فنحن جاهلون...

لا ننكر طبعا حجم الأمازيغي ضمن التركيبة البشرية على صفيح هذا الوطن، وهنا أقصد تحديدا السّوسيّ، الذي أصبح أيقونة للتّندّر وللضحك وللفكاهة كلما صدَرَ عن لَكنته السوسية المعروفة، ولكم في النكت وفي معروضات الإعلام الفيض الكثير، إلاّ أن يكون السوسيّ ذا منصب سام، أو ذا مال، أو ذا نفوذ كيفما كان... حينها يرتقي إلى الدرجة الأولى.

اختصاراً- لأن الخوض في الموضوع أصلا يُشعرني بالغثيان- دعوا الناس يعبّرون كما يشاؤون عن مطالبهم، عن شؤونهم، عن تاريخهم، عن خرافاتهم، عن خزعبلاتهم، عن أحلامهم... ولا تصادروا حقوق الناس في ما يحقّ لهم باسم القانون الأسمى في البلاد. واسعوا إلى اجتماع كلمتكم والتحامها، وفكروا جدّيّا فيما يفيد الوطن وأبناءه من شماله إلى جنوبه، وإياكم وحائط برلين آخر تنشئوه فتكونوا أضحوكة العالمين... هي بطاقة " وطنية "، والوطن لا يضيق بتعدده اللغوي واختلافه اللسني... وإن كانت لغة الجن والعفاريت مدسترة، وطالبوا بحقهم في إدراجها في بطائقنا الوطنية، فما عليك إلا الترحيب بمطلبهم بكل أريحية وسعة صدر دون التفكير مرة أخرى في بيضة الديك!

كعَصْفٍ مأكولٍ...

"كما ترون، فقد أردت وبشدة تخليد تلك اللحظة. لحظة هؤلاء الناس وهم يأكلون البطاطس على ضوء مصابيحهم الصغيرة بأيديهم الخشنة التي يزرعون الأرض بها. مطمئنين على أنهم حصلوا على طعامهم بأمانة. إن هذه اللوحة تخلّد نمط عيش مختلف كليا عن النمط الحضاري. لذلك فأنا لا أريد أي أحد أن يُعجب باللوحة بدون أن يعرف لماذا قمت برسمها..."؛ هذا ما قاله الرسام الهولندي فنسنت فان كوخ في إحدى رسائله واصفا أحبَّ لوحاته إليه، وهي لوحة " آكِلو البطاطا"، المرسومة سنة 1885.

زرت قبل أيام قرية تغجيجت، إحدى بُنيَّات الصحراء التابعة إداريا لمدينة كلميم. هناك، حيث تنتصب أشجار النخيل باسقاتٍ تُطاول شموخ تاريخ المنطقة الطافح بالنضال والمقاومة أيّامَ احتاج هذا الوطن لسواعد الرجال وبنادقهم المشتعلة. هناك تمتد إليك أعذاق النخل وعراجينه وسعفه، متطلّعة لمن تحكي له همّها الدفين وخبرها اليقين...

هناك، للأسف، توقفت عجلة التنمية وسَكَنَ الزمن، كأن إنسان النياندرتال لازال يشغل كهوفها ويسكن مغاراتها؛ كأنها قرية يتيمة، لا مسؤول يتعهّدها ولا لسان يُنافح عن مصالحها ويبدي أوجاعها !!

هناك عرفتُ صوت الصمت، ولمستُ قدرة البسطاء على الصبر، وهم بين فكَّي المناخ الصحراوي القاسي وإهمال القائمين على شؤونها. هناك، تذكّـرت آكلي
البطاطا، ذوي الوجوه المتفحّمة والأكُفِّ الخشنة...

لكن بالمقابل، رأيتُ كرم الناس وحسن ضيافتهم ولُطف وفادتهم، بل إنهم والله قد بلغوا في ذاك المضمار مبلغ القمة والعلوّ الذي لا يُناطح. هنا، أشكر أخوَيّ محمد جبور والحسن بومزوغ على كرمهما الجزل والمُوفي على الحاجة.

مازال النخيل الشامخ هناك يستغيث لعله يجد مغيثا، أو على الأقل مُصغياً لحشرجته و"زفير "سعفه الحار، ومازالت تلك القطعة من الوطن تنتظر من يعيد لها بريقها، نافضا عنها غبار وأتربة النسيان والإنكار؛ إذ من الدناءة والسفالة أن تُحصد هذه البلدة -المعزولة تنمويا واقتصاديا - زرعاً طيّبا، فتُرْمى كعصفٍ مأكول !!

8 يوليوز 2020

الحشرات!!!

على إحدى شرفات برجه العالي سنة 84م، عازفا على آلة طربيّة، مغنّيا أشعار هوميروس التي يصف فيها حريق طروادة، جلس نيرون، زعيم روما، يتأمل - بدم بارد- مشهد احتراق جزء منداح من روما، رمز العمران البشري الباذخ.

هكذا أرى حكومتنا "الرؤوم" بعد إصدار قرارها المفاجئ بمنع التنقل بين المدن ونحن على أعتاب عيد الأضحى المبارك. أراها تنظر إلى شعب كامل يسعى أبناؤه بكل ما أوتوا من حيلة ومنطق إلى لقاء ذويهم من أسرهم وعوائلهم، الأمر الذي سيسبب بلاشك حوادث طرقية وازدحاما في محطات الأداء وتجمعات في باحات الاستراحة... وهي النتائج غير المرغوب فيها حتما من لدن حكومتنا الرحيمة.

إن نيرون الذي أحرق روما مثله كمثل حكومة تقرر بوعي غائب خال من حس المسؤولية قرارا فجائيا فيه هلاك محتمل لكل من امتطى العجلات المطاطية، قاصدا أهله في مدينة معينة.

ما يضير البلد أن تحرق بعضا من حشراتها المزعجة، والأصل أنها في الدرك الأسفل من سلّم التطور؟ وما يضير البلد أن يخاطر بحفنة مواطنين لا يتذكرهم إلا حين يبزغ فجر الانتخابات، أو يحين موعد أداء الفواتير؟ سبحان الله؛ سبحان الله؛ سبحان الله...

ومُسْتَعْجِبٍ مما يَرَى من أَنَاتِنا ولــو زَبَنَتْهُ الـحَرْبُ لم يَتَرَمْرَمِ

26 يوليوز 2020

المُستطرفُ من كل حديثٍ مُستظرَف...

تَسَنّى لنا قبيل أيام اجتزاء لحظة زمنية من زمننا الموبوء العصيب، والواحد منا يخشى الاقتراب من صاحبه وخليله... لكن بعض الصداقات لا تخضع لقوانين الطوارئ ولا لحسابات فيروسية ضيقة. الدنيا مسرعة الخَطْو، ممعنة في ابتلاع الأرواح الطيبة، فإذن، لن نزهد في لقاء الأحبة حتى ولو اسودّت الأعالي بغربان الشؤم، فالحب أيضا كان ممكنا في زمن الكوليرا !!

بدعوة من الصديق خالد ألعيوض، التقينا في منتداه البحري - أو زاويته البحرية كما يدعوها مرتادوها - بعض الذين لا يُملّ حديثهم ولا تُستثقل طرائفهم ومُلَحُهم. كان اللقاء عفويا دون ديباجات مُعَدّة سلفا كالعادة، لكنه لم يخلُ من فوائد وغنائم فكرية وحياتية.

شكرا لك أستاذنا الفاضل على الدعوة، وشكرا لكل من زوّدنا ببعض ما علمته الحياة، والأهم أن ندرك أنّ الأوبئة العضوية أهون بمراحل من الأوبئة الفكرية والسلوكية.

6 غشت 2020

البائسون ...

سألته، ونحن جالسان في مقهى، عن حاله وحال شهادة الماستر التي حازها منذ سنوات... أجابني والغبطة تعلو وجهه والسعادة تقطر من عينيه: حصلتُ على عمل بأجرة 1200 درهم شهريا، والحمد لله... سمعت الإجابة فتذكرتُ مباشرة رباعية الفقر والمهانة: الفقراء لديستوفسكي والمساكين للرافعي والبؤساء لهوجو والمغفّلة لتشيخوف... توادعنا، فعدت أدراجي فكتبتُ - أسفًا-على ورق الحمّام (أعزّكم الله) هذه الأبيات، بالرغم من توديعي الشعرَ وتكاليفه منذ زمن...

لَـئِنْ أحْلَفَـتْني بالتَّقَدُّمِ أنْـفُـسُ
لقلتُ لها: لبَّيْكِ، فالدّهرُ مُفلِسُ !
وقلتُ: اقتُلونا الآنَ وأْداً برملكم
فيا سَعْدَنا الموتُ الرحيمُ سَيُلْبَسُ
على أيّ وجهٍ نختفي لا يُمُّكُمْ
فأصْلُ قِماطِ "الجَرْوِ" ثوبٌ مُدَنَّسُ
قرأتُ على هاروتَ سِحْري وطِلْسَمي
وعِلْمُ عصا موسى لَدَيَّ مُفَهْرَسُ
وَكِدْتُ أكونُ الخِضْرَ عِلْمًا ومَحْتِداً
ولكنَّ رأْسَ القومِ في القومِ يكْنِسُ !
تعثَّرَتِ الأيّامُ والغَدُ مُبْهَمٌ
وكُلُّ نصيبِ المرءِ ليلٌ مُعَسْعِسُ
فلولاَ افتقارٌ ما ذَلِلْنا لمثْلِكُمْ
ولكنَّها الدُّنيا تُذِلُّ وتُقْعِسُ
بَسَطْتُمْ وَثيرَ الفَرْشِ في كلِّ مجْلِسٍ
ونحنُ على سِنِّ المسامير نَجْلِسُ
لقد صدَقَ الصُّعلوكُ أنشَدَ حسْرَةً
ألاَ حبَّذا المصْحوبُ "سِيدٌ عَمَلَّسُ"

سيأتي غُرابُ الشُّؤْمِ يوماً لدارنا
أليسَ بقلبِ الدّارِ تأمُرُ مُومِسُ؟
فشُكراً لكمْ شكراً جزيلاً لأنَّكُمْ
سَمَحْتُمْ لأسْقاطِ الوَرَى تَتَنَفَّسُ

إلى حمّام آخر...

17 غشت 2020

أنْفُ بينُوكْيُو وأنفُ الوزير!!

حين نختار تجسيد قيمة " الكذب " للناشئة الصغيرة واليافعة، فإن أغلبنا يبحث عن أشهر شخصية أدبية كاذبة في التاريخ، وهي قطعا شخصية " بينوكيو" في قصة " مغامرات بينوكيو" للإيطالي كارلو كولّودي. وتأتي عبقرية هذا الأخير في جعل أنف بينوكيو، الدمية الخشبية، يستطيل كلما كذب على أحدهم...هكذا حتى يبلغ مبلغا محرجا.

ومع أن أنف البشر لا يستطيل مهما بالغوا في الكذب وأسرفوا، فهم مستورون إذن إلى حين تبدو الأمور على حقيقتها. ولعل السيد وزير التربية الوطنية أكثر المحظوظين من دوام الأنوف على حالها، وإن كان أكذَبَ من عُرقوب ومن سَجَاح ومن مُسيلمة أشهر كذّابي العرب...

لن أتحدث هنا عن كذبة "التعليم عن بعد"، ولا عن كذبة "الشبكة العنكبوتية"، لكني متحدث عن كذبة "التعقيم" و"البروتوكول الصحي" الصارم الذي وعدت وزارته بإنزاله من سماء الوعود إلى أرض الواقع الحي...فكان ما كان...تبخرت الوعود على أرض القرود لولا أن تداركت مدارسَنا جيوبُ المحسنين وبعض الغيورين من الآباء ورجال التعليم والفاعلين الجمعويين، وكأن الأمر كله يهم وزارة الأوقاف -المتعوّدة على التسوّل- لا وزارة التعليم والتربية!!

ماذا بعد استنفاد أولئكم " المحسنين " إمكانات جيوبهم وصناديقهم الجمعوية ؟ هل يستمر هذا المدرّس في الإنفاق على مؤسسات الدولة ؟ أدع للسيد الوزير ولوزارته الإجابة عن ذينك السؤالين ، فأنفه لن يستطيل على كل حال وإن اخترع ألف كذبة أخرى...

وقفة: من هذا المنبر نشكر جمعية أولاد ميمون للتنمية والتعاون في شخص رئيسها وأعضائها، التي أبانت عن حس تضامني لافت، منقذة الموسم الدراسي الحالي من كبوة حقيقية.

8 ستنبر 2020

إلى من يهمّه الأمر من المُدرّسين.

ابتُلِيَ المُدرّسون على مَرِّ العصور بمعرّة تعليم الصغير والكبير أموراً شتّى، وأقول " معرّة " بملء الفم لأن الرّجل، صاحب " الوَزْرَة " البيضاء، إنما يتحمّل " الوِزْرَ " ما أخفق في مهمّته، فهو وازِرٌ مُتّهَمٌ حين ينجز عمله على نحوٍ مُرْضٍ، فما بالكَ إذا ثبت قصورٌ ما في حقّه؟ ومما يُثقلُ الظّهر ويكسرُ العظمَ تدريسُ اللغة بناءً على قواعدها، وهذا مما يتماشى ضدّ منطق الأشياء، لأن القاعدة تَبَعٌ للغة وليس العكس، وكلنا يعلم أن علوم اللغة من نحو وصرف وبيان... استُنبطت بعد زمن طويل من كلام العرب المكتسب بالسليقة وبالمِران اليومي، وقد صدق القائل، والبيت منسوب لأبي مروان النّحويّ، حين أنشد:

ولستُ بنَحْوِيٍّ يَلُوكُ لسانَهُ ولكن سَليقيٌّ أَقولُ فأُعْرِبُ

لكن، وإن أبت البيداغوجيات الحديثة إلا أن تضع الرأسَ موضعَ الذّنَبِ، فلا أقلّ من إفهام التلميذ وتمكينه مما يزيل الغبش والغموض والإلغاز المحيط ببعض المصطلحات والعبارات، خصوصا ما يرتبط بالنحو بشكل مباشر؛ والنّحو حقا آفةُ اللغة كما ردّد أحمد حسن الزّيّات في مقاله الشهير في مجلة الرسالة المصرية.

إن المدرّس إذن مدعُوٌّ في نظري إلى فك "الطلاسم" المحيطة بالكلمة وبالجملة، بدءاً بتعريف " الرفع " و" الخفض" و"النصب" و" الجزم"، أولا من خلال تقديم معاني الضمة والفتحة والكسرة والسكون، لا أن يقحمها في جمجمة التلميذ إقحاما دون أن يدري أصل تسميتها ولا تأثيرها في الكلمة إذا اتصلت بأخواتها !! ثانيا، المدرّس كذلك مدعو إلى تبسيط المفردات المرتبطة بالظواهر الإعرابية، فلا يُعقل في الحقيقة أن تُحدّث التلميذ عن " نون الوقاية " دون أن يدري ما الوقاية؟ تقي ماذا مماذا؟ أو الحديث عن " النعت السببي " دون إفهامه ما النعت؟ ما السبب؟ أو الحديث عن " المفعول المطلق " مُرسلاً دون تقديم شرح مبسط عن لفظة " المطلق "... "حدد ألفاظك" كما يقول فولتير ثم انطلق في شرحك، وقس على هذا المذهب في سائر دروس النحو والصرف. هذا إضافة إلى التركيز على التحدث بلغة عربية فصيحة داخل الفصل ما أمكن، فهذا أهمُّ في نظري من دروس النحو جملة حين تُقدّم معزولة عن سياقات تواصلية تعبيرية، كما أن الطفل في هذه المرحلة أكثر استخداما لحاسة السمع من غيرها من الحواس.

أما في ما يخص اللوازم المدرسية، فإني طالب من زملائي عدم إثقال كاهل الشعب الفقير بأنواع من الأقلام الفاخرة والأدوات التكميلية باهظة الثمن وأكداس من الدفاتر عديمة الجدوى، لأن التعليم فكرةٌ قبل كونه أداةً، وما يتحقق بألف دفتر قد يتحقق بدفتر وحيد...فكروا في المقهورين القابعين خلف الأرواح النابضة أمامكم من آباء وأمهات قتلهم الفقر قبل أن يزحف عليهم الوباء آتيا على البقية الباقية، ولا تجعلوا رعاكم الله " نقط " التفتيش أول وآخر همكم... وفقنا الله وإياكم.

19 شتنبر 2020

البدائيّ الذي يسكُننا...

لا والله لا أقولُ ما قاله الرّافعيُّ عن كتابه أوراق الورد: " هاؤُمُ اقرأوا كتابِيَهْ"، فهذه مثابة لا تُطاول من الزّهو والغرور، ولكني أقول: أيُّهذا القارئ الكريم، تعلمُ أننا في زمن كُسرت فيه الأُسُسُ وتصدّعت فيه الأعمدة من كُلّ شيء يُكتبُ ويُقرأ، وما أنا من الرّعيلِ الأوّل، أبناءِ بَجْدَتِها وفرسان حَلْبَتِها، ممن عرفتَ آفاقهم المعرفية والفكريّة، وقوّتهم في اللغة وجرأتهم على التحصيل وصبرَهم على التحقيق ومُجالَدتهم الساعات المتطاولة من البحث والاستقصاء، فلهذا تقبّل هذه " الفوضى الأدبية " التي تأخذُ من هنا ومن هناك، كالمتسوّل يطرقُ كلّ باب... فكأنّما:

تكاثَرَتِ الظِّباءُ على خِداشٍ وما يدري خِداشٌ ما يَصيدُ

- الشكر موصول للدكتور عبد السلام دخان، هذا الرجل الذي تحمّل ما يطفح به الكتاب من هذيان يتأرجح بين مفارش الأرض ومعارج السّماء، مقدماً إياهُ بحرفه الرصين المعهود، في زمن يأنفُ فيه الكبار قراءة الأعمال الصغيرة، فما بالك بتقديمها وتقريظها !

- الشكر موصول لمن جادوا بمالهم وساهموا في إحياء هذه المومياء المكتوبة منذ زمن، وإنّي راجٍ ألاَّ تذهب دراهمهم سُدى...

- الشكر موصول لأخي الأستاذ محمد أوحسين على ما أبدعته مخيلته من مكونات الغلاف، فمن يدري، لعل أهم ما في الكتاب غلافه...

- الشكر موصول للخطاط المغربي أستاذنا محمد بوخانة على ما سالت به قصبته التي سوّدت العنوان على الدّفة الأمامية للكتاب.

- الشكر موصول لأعضاء منتدى الأدب لمبدعي الجنوب/ فرع أيت ملول على دعمهم اللامشروط، وكذا نسيج المنتدى في مركزه وجميع فروعه.

- الشكر موصول كذلك لطاقم منبر "أقلام/AQLAM.INFO" الإعلامي المغربي، ولطاقم منبر MOROCCO PENS من المغرب والولايات المتحدة الأمريكية.

أخيرا أشكر الإنسان البدائي الذي أوحى إليّ بهذا العمل، فله خالص التقدير والاحترام.

ملاحظة: سيكون الكتاب جاهزا للتحميل من منصات التحميل الإلكتروني في الأيام المقبلة، أما النسخ الورقية فسأعلم الذين يقرأون بمكان الحصول عليه بعدما أتوصّل به ورقاً...

22 يناير 2021

للأسف... !

أجبني رجاء أيها العسكريّ، لو كانت التي وضعتَها تحت لَفْح عصاك وألم حذائك السميك ابنتك، أختك، أمّك..أكنتَ تنفّذ الأوامر كما تنفّذها أمام بنات الشعب؟ بأي كذب ستقصفون تلاميذ الشعب في مقررات التاريخ بعد مئة عام، أم ستزيّنون الحياة كما زيّنتموها لنا متحدثين عن زمن الأدارسة والموحدين والمرابطين ووو؟

يا عسْكريُّ وإن أفنَيتَهُم عدَداً
مهلاً فلازالَ في الفكَّينِ أسنانُ
هل صاحبُ الوزرة البيضاءِ محضُ قرىً
للموت والموتُ يُفني وهْوَ عطشانُ؟
أتيتَ بالفأسِ كالمسعور تهْدمُ في
دارٍ وليس لهَذي الدار حِيطانُ !
ظلمتَ خِلّكَ ظُلماً لا مثيل لهُ
كأنهُ وحدهُ في الأرضِ خَوَّانُ
إن القبيحَةَ في المرآةِ إن نظرتْ
قالتْ: لقد سكَنَ المرآةَ شيطانُ!

17 مارس 2021

حين أخطأت آلهة اليونان...

شرُّ الناسِ المُعلِّمُ، ويجوز قولنا: " المُعلّمُ شرُّ الناس " بتغيير مواضع الخبر والمبتدأ، والنحويون يعُدُّون ذلكم التصريف من المتسامحات والمجازات المقبولة في صناعة النحو، خاصة إذا تتابعَ المُعَرَّفان تتابُعَ اتصالٍ، قائلين: إذا اجتمع مُعرَّفان فاجعل أيهما شئتَ الاسم وأيهما شئت الخبر... هذا في عُرف النحويين جائز جوازا لا طعن فيه، لكننا لو عرضنا القاعدة على آلة المنطق اللغوي اللّسَنيّ وَجدنا النّاطقَ النّابِهَ يُقدِّمُ الكلمة على أختها (أو يُؤخّرها) لسبب ينطوي عليه غرضُهُ المُبيَّتُ، الذي لا يلبثُ أن يستبين بُعَيْدَ جَرْجَرَةِ المتكلّم واستنطاق المكنونِ فيه. ف" المعلمُ" خبراً ليس "المعلم" مبتدأً، وتَصَدُّرُ الكلام منزلةٌ وتذييلهُ منزلةٌ أخرى، وما بين المنزِلتين ما بين الوزير وحاجبه !!

أقول هذا لا للتذكير بكوابيس صناعة النحو والصرف، ولا لتنبيه الغافل النّاسي، ولكن لنذكّر أنفسنا، نحن " المعلمين "، أننا شرُّ الناس وأسافِلهم المُثقَلَةُ بالأعالي، وزعانِفهم المُخَرّقَةُ بنعلِ الأعادي وبلفْحِ حديث الأهالي، فلنجمعْ أسماءنا - بتعبير درويش - وألقابنا وتواريخنا المهدّدة بالزّوالِ...

أقول هذا لا لكوننا غدونا خبراً على كلّ الألسنة، أو أسرِجَةً تتحمّل أثقال وأكلاف الراكبين على كل الأحصنة، أو نكون من الحُزَناء أو الحَزَانى، محزونا أو مُتَحَزَّنا عليك، لكن ليُقال هذا العبدُ ما أحْزَنَهْ !!

تُفّ علينا... هكذا قصداً، فنحن محضُ جورَبٍ نَتِنٍ وسَقْطُ خُفّ، ولنُبْشِرْ بحبلٍ مضفورٍ بعناية حولنا مُلْتَفّ...

إنك لو سألتَ بومة مِينرْفا، أو سألت الحكمةَ رأساً: ما سبب أفْشالِنا المتعاقبة في معْمَعَانِ تعليم وتربية الصغار والكبار؟ والله ستجيبك كالتالي: "المعلّم" يا سيّدي، أفي هذا شكٌّ؟ هو العقلُ العاقرُ والرّأيُ العقيمُ والأرضُ البوار؛ معدودٌ حجماً وجُثّةً من الكبار لكنه قولاً وفعلاً وفكراً معدود من الفتيان الأغرار؛ أصلُ الشرور والدواهي والمُرَجّحُ لديَّ أنه مُشعِلُ فتيل حرب ذي قار، وإنما يقعُ كل شيء سيئ في الحياة، بل في الوجود كلّه - سبحان الله - كلما نهق هذا الحمار !!

قد يكون هذا الحديث حديث أحمقَ مسطولٍ مُدافًا مخلوطا بمبالغات وتخاريف العجائز وطلاسم الكهنة والعرّافين، بينما أنا كاتبه أدري ما كتبتُ بذهنٍ مُتّقد يكاد تركيزه يلمسُ الكمال، كما أكتبه وأنا ممن قضوا ما يقرب عشرين سنة في هذه المهنة، أو قل المحنة أو قل العقوبة الإلهية أو قل ما شئت من هذا المعجم الأحمر، وأكتبه وأنا طافٌ شغفًا بيوم الخلاص، اليوم الذي أتسلّم فيه وثيقة الموافقة على التقاعد النسبي... والخلاصة أن آلهة اليونان حين أصابت أتت بسقراط وبأرسطو وبأفلاطون، بيد أنها حين أخطأت أتت بي وبك وألْقَت بنا منبوذين في العراء...

20 مارس 2021

الغشّاشُون !!

لعل الجميع يعرفون أُمثولة " سرير بْروكْرست " وارتباطها ببروكرست، الحدّاد وقاطع الطريق اليوناني، الذي يظلّ يهاجم الناس مُقتادا إياهم إلى سريره الحديديّ، ماطًّا أجسادهم عليه، فإن كانت أطوالهم أكبر من طول سريره جَزَّ طرفي الضحيّة حتى يتناسب الطولان؛ طول السرير وطول الضحية !! فلا ينجو إلاّ من كان محظوظا وكان طوله طُولَ السرير... ومن القصة ستنشأ البروكرستية للتعبير عن فرض قوالب جبرية (قوانين؛ أفكار؛ آراء...) على الآخر حتى تتناسب مع قناعة سابقة غير قابلة للتغيير.

تداول العامّة في غضون الأيام القليلة الماضية مقاطع سمعية وبصرية موضوعها " الغش " في اختبارات الباكالوريا، كاشفة اللثام عن مختلف ألاعيب التلاميذ وإبداعهم الخارق في سبيل " النقطة المقدّسة " التي ستصبح غدا أو بعد غد حلم الحياة وجنتها الموعودة؛ والغاية لديهم تبرر أية وسيلة...

طبعا هذه ممارسات شاذة ولا يمكن التأشير عليها بالقَبول، لكن أليسَ حريّا بنا أن نُجفّف المستنقعات، لا أن نحارب البعوض؟

التلميذ ابن مجتمع كلّ أفراده - إلا ما ندر - يغشّون (الموظف، الفقيه، المياوم، الوزير...)، ولقد رأى الغش زاحِفا على البرّ والبحر بالغا عنان السماء، فكيف يُلامُ فرداً ويُستثنى من هذا الوحل وحده؟ وقد صدق النابغة قائلا:

ولستَ بِمُسْتَبِقٍ أخًا لا تَلُمُّهُ على شَعَثٍ، أيُّ الرِّجالِ المُهَذَّبُ؟

والله إننا لندّعي الملائكية أمام أولئك النشءِ، وأغلبنا حصل على الوظيفة بوساطات وعلاقات مشبوهة؛ وأغلبنا حصل على الشهادات الدنيا والعليا على جسر من " أنا من طرف فلان وفلانة " وبأساليب إبليسية معروفة؛ وأغلبنا ضمن لأبنائه كرسي العمل والوظيفة بالدراهم وبالدّوانق الذهبية؛ وأغلبنا اختلس ولازال يختلس في التعليم / التجارة/ الصناعة / باسم الدين/ الوظيفة العمومية والخاصة/ السياسة/ الرياضة... فكيف يكون هذا التلميذ " الصعلوك " الوحيد في هذا الوطن؟ أليس تعليمنا المعتمد على حفنة " نقط " ما جرّه إلى ذلك؟ ألم يتصرف كما تصرف بروكرست، مُخضِعا كل عقائده وأفكاره وأحلامه لتلك "النقطة" التي ستضمن له صكوك المجد؟... فلنفكر في تغيير نُظُمِ تعليمنا، لأننا صعاليكُ وغشاشون مثله شئنا أم أبينا...

20 يوليوز 2021

لله درّ القلم...

حين بلغ الجيش النازيّ أعتاب موسكو إبان الحرب العالمية الثانية، صاح جوزيف ستالين في المذياع المحلّيّ قائلا: "دافعوا عن وطن بوشكين وتولستوي!"، ولعلّ تلكم " الصيحة " إيماءٌ مباشر إلى أن الأوطان تُنسب إلى مفكّريها وأدبائها ومثقفيها، أولئك الذين تركوا أثراً خالدا في النفس وفي الروح وفي الفكر، ولله درّ القلم، بتعبير المأمون، كيف يحوكُ وَشْيَ المملكة؟!

هذه أيت ملول، المدينة الخجلى، تُنجب بدعم من منتدى الأدب لمبدعي الجنوب/ فرع أيت ملول، كتابا جديدا على يد أحد أبنائها الباحثين الشّبّان، الأستاذ الصديق سعيد جليل، وقد وَسَمَ باكورة أعماله البحثية ب " دراساتٌ في التراث الشّعري والغنائي الأمازيغي "، مُقدَّمةً بقلم الباحث الصديق إبراهيم أمهال تقديما باذخا.

الكتابُ جمعَ وأوعى دراسات ومقالات تحت عناوين متنوعة، لكنها مَخيطَةٌ بخيط واحد، فانتظمت في موضوع فَرِدٍ، هو التراث الأمازيغي بما يحبل به شعراً ونثراً؛ معنىً صامتا أو معنىً مُغنًّى، فاستحال الكتاب بذاك مرجعا هاما للباحثين في هذا المجال، خصوصا مع نُدرة المكتوب وشُحّ المنقول وضياع النّفيسِ المسلوب. أما الكاتبُ فقد تجشّمَ العناء وكابدَ المشقّة في التفريغ الصوتي للأسطوانات الكلاسيكية وفي تحقيق بعض النصوص الشعرية القديمة، كما تحمّل ملء الفراغات التي صنعها الكسل والنكوص الأكاديمي والبحثي في الثقافة الأمازيغية عموما؛ ما جعل العمل إضافة نوعية للمكتبة الأمازيغية والمغربية، وللقارئ الحكم بعد قراءته.

أتمنى لصديقنا سعيد جليل مسيرة علمية موفقة، مُهنئا إياه ملء القلب، وكلّي يقين أن هذا الاسم سيبلغ غدا ما بلغه من سبقوه أمثال علي صدقي أزايكو ومحمد خير الدين ومحمد ابزيكا... وإن غدا لناظره قريبٌ...

5 يوليوز 2021

وداعا إبراهيم...

ألْقى بمَوْتَتِـه في جَـوْفِيَ الجَزَعا من ذا يَرُدُّ المنايا قبل أن تَقَعَا؟

اليــومَ مـزَّقَـتِ الأقدارُ أُلْفَتَنَا والموتُ دَبَّ فراقًا بيننا وسَعَى
فليصنعِ الدّهرُ ما يبغيهِ مجتهداً فـلا أُبالي بأمرٍ فوقَ ما صنعَا

عُدتُ توًّا من المقبرة... هنالك ودّعتُ صديقي العزيز إبراهيم أمغار الوداع الأخير... مستريحا من همّ الدنيا استراحة أبديّة...

أمّا الوجع فقد أوجعتنا، وأمّا البكاء فقد جعلت دموعنا سَحًّا مدرارةً، وأمّا الفقد فقد فقدناك ولا إبراهيمَ بعدك، وأمّا البحثُ الاكاديميّ الرصينُ فقد بكاكَ بكاء الخنساء صخراً، وأمّا العمل الجمعوي المدنيّ فقد رثاكَ الرثاء الأخير... غادرتَ دنيانا وخلّفتَ وراءك ذكراك الخالدة ولطائف عِلمِك وجيوشا من تلاميذك وأصدقائك المحبين...

قالت السماء كلمتها للأسف، واستطاعت إنهاء كلّ شيء، فجعلتنا بين الكلامِ والكُلوم نقول: دعِ المقاديرَ تجري في أعِنّتِها...

رحلتَ إلى مثواكَ الأخير، لكننا لن ننساك ولن ننسى صنائعكَ البيضَ في كلّ مجالات الحياة... سنفتقدك... سيفتقدك الكتاب والقلم... ستفتقدك أيت ملول كلّها...

وداعا وداعا وداعا...

6 يوليوز 2021

يا لصَبركم علينا !

عيد أضحىً مبارك جميعا وجمعاوات، وبارك الله في الأعمار والأعمال بما يقوّي قيم التعاون والتضامن والتآزر، فالعالم بعد محنة "كورونا " عالمٌ من التناقضات والغبش غير المفهوم !!

أولاً، تمنّيتُ في قرارة النفس أن تمنع الدّولة الاحتفال بهذا العيد جملة وتفصيلا السّنتين الفائتة والجارية، فالظرف ليس ظرفَ أعياد ولا ظرف تصنُّع أفراح، ولا أحد ينكر كُلفة العيد الماديّة تحديداً، خاصة بعدما تكالبت علينا الأعراف والمظاهر الاجتماعية الزائفة ودخول الأطفال الصغار طرفا في المُعادلة... فأصبح مُعيلُ الأسرة بين لَفْحِ تدبير ثمن الأضحية ولفحِ البطالة الكورونيّة، وكأنّ حاله حالُ الخُطيئة المسجون، مُسترجِما عمر بن الخطّاب، ضاربا على وتر أفراخه (أبنائه) الصغار منشدا:

ماذا تقولُ لأفراخٍ بذي مَـرَخٍ زُغْبِ الحواصلِ لا ماءٌ ولا شَجَرُ ؟
ألْقَيْتَ كاسِبَهُمْ في قعر مُظْلِمَةٍ فارحم عليكَ سلامُ الله يا عُمَرُ !

فمن يرحم هذا المعيل الذي فقد عمله بسبب هذه اللعنة؟ ومن يمنحه بعض العطف والرحمة والعطاء بعدما قبضت الدولة يدها بُعيد ما منحته لبعض الأسر من رضائخ وأُعطيات بسيطة استردّتها الدولة بعد حين أضعافا مضاعفة بطرقها الخاصة !؟

لكن... ومع كل ذلك، حاولت فئات عديدة صناعة بسمة بعض الأسر المدفونة في قبور الفقر والعوز، فاستطاعت اقتناء أضاحي الكرامة لأولئكم لعلّ الأفراخ يفرحون أفراحهم الصغيرة كما يفرح أبناء الأوليغارشية أفراحهم الكبيرة... فالشكر كل الشكر لكلّ من تسوّل درهما من أجلهم وتحمّل أذى "بعض" المغاربة المعروف...

ثانيا، أجد من الواجب والفرض الانحناء حدّ الرُّكب لمن يسهرون مدارَ اليوم على تنظيف زقاقاتنا المتسخة، مُتحمّلين الجانب المُخزي فينا، ونحن المحترفون في صناعة القمامة والكُناسة والفضلة والمُهملة، خاصة في أعياد الأضحى والقصة المعروفة... فالعذرَ كلّ العذر لكم، يا من أذلّتهم الدّولة بما يُمنحونه من رواتب هزيلة، وبما يُنعتون به من مجتمع- يدّعي النظافة في كل شيء- مُتّسخ الأذهان والأفكار والأفعال... يا لصبركم يا لصبركم !

22 يوليوز 2021

انتِخاباتٌ أم انتِحابات؟

قبل قرنٍ تقريبا، زعم الطبيب والمؤرخ الفرنسي غُوستاف لوبون في كتابه " سيكولوجية الجماهير" أنّ الإنسان المُفرد عقليّا وفكريًّا أعلى مرتبةً من جمهور بحياله تحرّكه العاطفة كما تحرّك العاصفة الأوراق، فتبعثرها في كلّ مكان !! وهذا الكلام أقرب إلى الصّواب إذا ما تمّ وَزْنُ ما تبلغه العاطفة المتسرّعة إزاء ما يبلغه التفكير العقليّ الرّصين. ونحن اليوم، والبلد كلُّها تدور في فلك "الانتخابات"، مضطرّون لاستحضار هذا الحديث لأنّ سياق الأحداث الجارية تفرضه فرضا. فمنذ انطلقت الحملات الانتخابية رسميّا، إلاّ وخرجت الحشود من كلّ حدبٍ ينسِلون، وعادت معها نفس المشاهد... نفس المسكوكات... نفس الخطاب... نفس البرامج الانتخابية... نفس الرموز... نفس الأسماء التي كذبت على أجدادنا وآبائنا، وها هي اليوم تبتسم كاذبة على جيل الأحفاد، لا تَكَلُّ ولا تملُّ من حياة الكراسي والسّلطان... سبحان من أودع فيها طاقة لا تنضب وحركة لا يزاحمها السّكون !

غير أن جديد الاستحقاقات الحالية، في نظري، مُتجَلٍّ في تطعيم القواعد الحزبيّة بكفاءات شبابية ذات تأثير إيجابي في محيطها الصغير، وهذا أمر محمود، بل هو المطلوب في زمن يشترط السرعة وتحرّكه التقنية، إنما الأسف كل الأسف لما تتكبّده هذه القواعد من صدامٍ دائم مع المواطن "الغاضب" و"الثائر" على كل السيّاسات المُفرغة من أيّة جدوى بالنسبة له. إضافة إلى جهود هذه الطبقة المستنزَفة التي تراها تُمزّق نِعالها بين الدروب والشوارع من أجل "ورقة" تنفع أولئكم " الفراعنة " والأقوام "الجبّارين" الطائفين بكعبة البرلمان طواف " البقاء "، أكثر مما هي تنفعنا نحن العائشين في الأسافل، لتبقى لهم نتائج الانتخابات وتبقى لنا "الانتحابات" والبكاء خمس سنوات... فلا أغرب من التصويت لصالح بيضة لتفوز الدجاجة، والتصويت لفأر ليفوز القط ! فالله المستعان.

إخواني وأصدقائي:

أرى السُّبُلَ قد تشعّبت بكم، ودماءكم متفرّقة بين القبائل، وكلّ حزب بما لديهم فرحون... لكن هذا لا يمنع الدعاء لكم بالتوفيق والسّداد، سائلا الله تعالى تيسير مهمّتكم العسيرة أمام ما ينتظركم من تحدّيات ومسؤوليات تحاولون فيها محاولة العطّار في إزالة تجاعيد عجوز حفرتها عقود متطاولة من الزمن!! لقد جمعتني بكم أيامٌ وأيامٌ من العمل التطوعي المدني، وكلّكم أهلٌ لتحمّل

الأعباء، وكلّكم يفهم قواعد اللعبة السياسيّة في هذا البلد. وعليه، استمعوا لنبض مواطن أنهكته الدّنيا بتصاريفها وأفاعيلها، ولا تخاطبوه بما خاطب به "الأصنام" أجدادنا " السُّذّجَ " الذين يصدّقون كلّ شيء...

ملاحظة: لِطول ما عشنا في الأحياء الفقيرة الشعبية، صرنا نألف الفضاءات العشوائية غير المهيكلة، ولم تعد " أحلامنا " تتجاوز زقاقا آمنا ودكّانا يوفّر ضرورات المعيشة وماء صالحا للشرب؛ أما ما تجاوز هذه الأحلام فهو بذخ وترف... لذلك لن نكلّف إخواننا بما لا يستطيعون، وقد كفيناهم مؤونة الحرج والمعاذير... ووفقهم الله جميعا.

28 غشت 2021

ما بعد الصندوق !

صنع "الصندوق" الزجاجي أمْسِ الحدث، وعاد إلى قبوه المُظلِم هنالك ينتظر خمس سنوات أخرى ليرى نور الشمس... فسلام عليه ما لم يُصبْ بعمىً، فطول المكوث في الظلام يُضعف البصر ويُقصّر مدى النظر...

إن كُنتُ مختصراً القول في انتخابات 2021 فإنّي مُستدْعٍ شذرة نيتشه (547) من كتابه "إنسان مفرط في إنسانيّته"(الجزء الأول) قائلا: " ليس بذي عقلٍ ذلك الذي يبحث عن العقل "، والحقّ أن الشعب لا يريد أن يُساسَ بالوعي وبالثقافة وبالعقل، كلّ ذلك لا يُشكّل شيئا أمام إغراء أوراق نقديّة تُسيلُ لُعاب الصغير والكبير، الغنيّ والفقير، الجاهل والعالِم، الذّكر والأنثى...

سنكون مثاليين إذا زعمنا أنّ الفرد منّا لا ينبغي أن يبيع كيانه لأيّ جهة كانت أو فكر كان، لكن للبطون الجائعة منطقا ينسف كلّ القوانين والمُسلّمات. كان الله في عون فقراء هذا العالم الرّأسمالي المتوحّش.

تقاتلت الأحزاب ذات النفوذ الكبير لضمان المقاعد والكراسي بشتّى الوسائل المتاحة (المال/ إغراءات بالتوظيف/ مآدب طعام وشراب/ تهديدات وبلطجة/ برامج وهميّة/ القدح في الخصوم...)، فعادت من هذه المعارك كلّها بما كانت تريد... هنيئا لها على كلّ حال. السؤال المطروح: من كان مستعدّاً لكلّ هذه المُغامرات من أجل مقعد أو منصب، هل تظنّ أنّه يفعل كلّ هذا من أجل شعب منسيٍّ في أعالي الأطلس أو الرّيف، أو مواطن لا يتمتّع بأيّ حق من الحقوق الآدمية؟ من العجب حقّا أن تُضحّي الأحزابُ من أجلك أنت بعد أن خاضت كل هذه الحروب !!

من جهة أخرى استبشر الناس في الوسط الحضري بسقوط حزب العدالة والتنمية، والغريب أن البعض صوّت لخصومه "انتقاما" و"ثأراً" و" تشفّياً"، كأن المواطن بعد عهد العدالة والتنمية سيعيش كريما، متمتعا بكامل حقوقه في التعليم والصّحّة ووو، وستتحوّل قُرانا إلى فضاءات للعيش الكريم لا تبحث فيه امرأة حامل عن دوابّ تنقلها إلى السّهل، وتتحول مدننا إلى شنغهاي وفيينا وبرلين... لست هنا أدفع التهمة عن هذا الحزب أو ذاك، لكن ينبغي أن نفهم أن الخبّاز لا يصنع الخبز خوفا من جوعٍ يُصيبك، ولكن من أجل ربحٍ يدخل جيبه.

أتمنى حقا أن أقرأ تدوينتي هاته بعد خمس سنوات فأجد نفسي مخطئا، غالطا، غبيّا، جاهلا...

ملاحظة: نعتذر لعمّال النظافة الذين ضاعفت الانتخابات مشاقّهم بما يتحمّلونه في تنظيف الشوارع، أمّا الأزقة والهوامش التي لا يبلغها عامل النظافة فأهلها سينتظرون عشرات السنين حتّى تتحلّل أكوام الورق !

9 شتنبر 2021

بصيصُ أملٍ !

بعيداً عن جنون السّياسة ولهيب الأسعار، بين عينٍ ساهرة وعينٍ نائمة، وبعيدا عن السّواد هنا وهنالك، فاجأتنا التلميذة " سارة الضّعيف" بحصولها على الرّتبة الثانية في مسابقة تحدّي القراءة العربيّ في نسختها الخامسة، لتكون وصيفة البطل الأردنيّ " عبد الله أبو خلف"، بعد منافسة شارك فيها أكثر من عشرين مليونا عبر العالم. هكذا تتأكّد قدرة تلامذتنا على تبوّؤ مراكز متقدّمة لو تيسّرت لهم الظروف المادّيّة والمعنوية المعروفة على كلّ حال، وما يومُ "مريم أمجون" بِسِرّ.

هنيئا لأسرة سارة فردا فردا، وهنيئا لأسرة التعليم بثانوية ابن سليمان الرّوداني، وهنيئا لمدينة تارودانت، المدينة التي مزّقت عمائم المَركز وكسّرت صَوَالِجَتَه، مؤكّدة مرّة أخرى أنها ما عَقِمَتْ يوما عن إنجاب النّوابغ والعباقرة في شتّى المجالات...

سارة الضعيف ستحلّ- قريبا -ضيفة م.م العلويين وضيفة صالون ألعيوض الثقافي بمنطقة أولاد ميمون، والتفاصيل ستأتي في حينها.

22 شتنبر 2021

رحلةُ (x) !

لا أعلم بالضبط مبلغ المجهول (x) بعد أكثر من عشرين سنة، آنَ كنا تلاميذ في شعبة العلوم التجريبية نطارده من مجموعة الأعداد الصحيحة الطبيعية إلى مجموعة الأعداد الحقيقيّة، فكان كالماء يعزُّ على قابضٍ، متى نُدرِكْهُ متلبّساً هنا انفلتَ من عِقاله وفرّ واستحال سرابا هنالك ! فوا عجبي ممن ظلّوا يطاردونه مسافةَ أعمارهم !

سرّتني اليوم زيارة أحد أساتذتي الأفاضل، وهو - للأمانة- أستاذ في مادّة الرّياضيّات وحاصل على درجة الدكتوراه في الدّراسات الإسلاميّة؛ ذو قدرة عجيبة على التوليف بين العلوم الحقّة والعلوم الإنسانيّة، وقد ألّفَ وترجمَ وحاضرَ داخل الوطن وخارجه، وهذه مِنّة إلهية لا يُلقّاها إلا ذو حظ عظيم.

مازال أستاذنا الفاضل المصطفى أعسّو ذاك الرّجل البحّاثة في أسرار الإنسان والحياة، عاكفا بين الكتب يقلّبها يمْنة ويسْرة، مُحتفِراً إيّاها حتى يبلغ نسغها ولُبّها، فإذا خطبَ وجدت كلامه عقدا نُظمت خَرزَاته نظما، وإذا كتبَ أدهشتك مَراعِفُ قلمه بلاغة وبياناً، فتغمرك حيرة السؤال: من أين لأستاذ في الرّياضيّات بلاغة عبد الحميد الكاتب وبيان الجاحظ ؟

كان، حفظه الله، يملي علينا رحلة المشاغب (x) في ذهول واستغراب، وكنا نستجوف السؤال: هل نحن أمام بديع الزمان الهمداني أم أمام أستاذ متخصص في الرّياضيّات ؟ ولكن، يا ليتنا كنّا ننصت ونستفيد، وليتنا كنّا نكفّ عن ضجيجنا كالضفادع تنقّ نقيقها المزعج، فيمضي بنا الأستاذ سريعا- حين يفقد الأذن الصاغية- إلى كوابيس المعادلات والمجاهيل من جديد ...

أمدّ الله في عمرك وأدام لك تواضعك "النّادر"، وجعل مقامك في المُحدثين مقامَ ابن سينا وابن رشد في الأوّلين.

ملاحظة: أحيّي بهذه المناسبة كلّ من كانوا ولازالوا تلاميذ أستاذنا الفاضل (دفعة 2000/ ثانوية المعرفة)، كما أحيّي أساتذتنا الآخرين فردا فردا على ما تحمّلوه من حماقتنا وعبثنا...

والسّلام ختام

2 نونبر 2021

هاتفي... وأنا حرٌّ فيه...
(تعقيب)

قرأتُ أمسِ تدوينة معنونة بـ(هاتفي، وأنا حرّ فيه)، ولقد أحزنني أن صاحبها (ولستُ أعرفه ولا يعرفني) ضخّ فيها بعض قسوته على رجال التعليم الرّافضين "زراعة" تطبيق مسار في هواتفهم "الشخصية"، واصما رفضهم بـ(الصبيانيّة) وبـ(عرقلة) غير مبررة لمشروع وطني ينبغي (قسراً) أن ينخرط فيه هذا الرافض دون طرح سؤال أو إبداء تعقيب أو رفض، إنّما للدّولة أن تقول للشيء كُن فيكون!

الرّجل عرض رأيه بكلّ حرّيّة، ولعلّه خائف على مستقبل ابنه أو أبناء عشيرته وهذا من حقّه ولا نقاش حول الأمر من أساسه، وقد طلب من أحد المعارضين لفكرة التطبيق أن يبدي رأيه في بعض ما ذَيّل به تدوينته بكلّ أدب، وإننا نشكر له تخفيف حدّة سياطه في معرض تساؤلاته، وهذا أمر محمود ويليق بأستاذ في التعليم العالي كما قرأتُ في بطاقة تعريفه الفيسبوكية ... ولعلّ مقامه العالي يجعله يتواضع قليلا ليسمع معلّماً (ناقص عقلٍ ورأي) أو "صبيّا" مازال مرتبطا بحليب جافٍّ وبحفّاظات...

ابتداء ينبغي تحرير محلّ النزاع حول حدود الدّولة في التدخّل في حرّيّة الأشخاص، ونتساءل: هل لحرّيّة الدّولة حدٌّ إزاء مواطنيها، موظّفيها تحديدا ؟ أم أنّها تمتلكهم كما يمتلك أحدنا قبّعته ونعاله، والمعروف في الأدبيات الفلسفية أنه كلّما اتسعت حرّيّة الدّولة إلاّ وضاقت حرّيّة الفرد اطراديّا ؟

فإذن ينبغي أن نعرف هل نحن أحرار أم لا ؟ أم أحرار مع وقف التنفيذ ؟ فإذا كنا أحرارا فتدوينة الرّجل إذن تعقيب على الأحداث وصرخة في واد ولا يُلتفتُ إليها ولو برقّة جفن؛ أمّا إن كُنّا أشباه أحرار (وهذا المقروء من كلامه) فلابدّ من وقفة عاجلة ...

فرض التطبيق يذكّرنا رأساً بقانون نزع الملكيّة من أجل المنفعة العامّة، المرتبط بنزع العقارات المملوكة، أو ما له صبغة عقارية، ولا أعلم إن تمدّد القانون إلى الاستفادة من ممتلكات الغير العينيّة من أجل " المنفعة العامّة"، فإن علم الرّجل شيئا عن هذا فنحن مستعدّون للتعلّم، ولا معرّة على صبيّ جاهل...فإن كان من حقّ الدّولة هذا فقد تفرض على الصبيان تحويل وسائل النّقل خاصّتهم إلى "نقل مدرسيّ"، وتفرض عليهم وضع زوجاتهم رهن العمل في الإطعام المدرسي، وتفرض عليهم استخدام مقرّات سكناهم كمراكز للدعم والتكوين وقس على هذا ! والكلام في هذا الأمر له ذيول لا تنتهي ...

أما بالعودة إلى تساؤلات الأستاذ الفاضل، مُلقيا بدلوه في القطاع الخاص، مفترضا لو أن ربّ العمل فرض على مُستخدمه هذا التطبيق، فما عسى ردّ فعله يكون؟ والغريب أن الرّجل لم يلتفت بتاتا إلى المؤسسات الخاصة التي تحترم مستخدميها فتزوّدهم بهواتف وحواسيب وما إلى ذلك مما يرتبط بتسهيل العمل وتجويده، ولكن، مع ذلك نجيبك بالتالي: للمستخدم أن يختار بين القَبول والرّفض، وفي حال الرّفض، إمّا أن يحترم ربّ العمل هذا الخيار أو يبتزّه بالطّرد، وهذا أقصى ما يفعله أرباب المال إذا عجزوا أمام تقبّل الرّأي المخالف (وهذا موضوع آخر). أما ما يتعلّق بمصلحة الأبناء، فلا أظن أن مستقبل أبناء المغاربة واقفٌ على تطبيق لم يُزرع في هاتف الأستاذ " الصّبيّ "، والأساتذة تعاملوا مع مسار منذ سنوات، والنتائج يطّلع عليها الأبناء والآباء على السّواء دون عناء، علما أن الأساتذة الصبيان مرة أخرى مضطرون دائما للسّهر إلى الثالثة والرابعة صباحا مع حواسيبهم الخاصة وهواتفهم الخاصة ليتمكّن أبناء الوطن من تسلّم كشوف درجاتهم في أوانه، ولم يرفض أحد هذه الآلية لأنها مرتبطة بموقع افتراضي يُفتح في أي حاسوب كيفما كان خارج الحسابات الشخصية، فلهذا لن تخسر هذه منظومتنا (المتأخرة عالميا) شيئا إذا رفض الصبيان هذا التطبيق جملة وتفصيلا، فقد كان الأولى الذهاب إلى المعاطب الحقيقية التي تنخر عظام "التعليم" وتجمّد مفاصله، ولكنّنا نَعمى حين نريد ونبصر (سبحان الله) حين نريد !

ومع هذا كلّه لا تنس فضل الصبيان، فإنهم جاهدوا بمالهم من حيث (ربما) لا تدري، خصوصا في العالم القرويّ، حيث يُوصف أطفال تلك الجغرافيا المتوحّشة بوصف الحطيئة قائلاً:

ماذا تَقـولُ لأفـراخٍ بِذِي مَـرَخٍ زُغبِ الحواصِلِ لا ماءٌ ولا شَجَرُ ؟

فمن أولئك الصبيان من كسا وأطْعَمَ وواكبَ مسيرة بعض الفقراء من تلاميذه حتّى وقف على قدميه وأمور أخرى لا يسع المقام للخوض فيها كشراء الطباشير والأقلام اللّبّادة... فالسّتر أليق...

أما بالعودة إلى "الصبيانية" فقد شرّفنا الرّجل من حيث لا يدري، لأني أذكّره أن الله لم يستنكف أن يجعل إحدى معجزات أنبيائه حديثَ صبيّ في مهده في قوله جلّ وعلا في سورة المائدة: " إِذْ قَالَ اللّهُ يَا عِيسى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ... " الآية، فلعلّه تعجّل الذّمّ والاستصغار فسقط في مدح وتشريف، فلعلّه يعود سريعا إلى معجم أكثر سوداوية وجحيمية...

هذا رأيٌ من معلّم صبيّ من التعليم السّافل معقّبا على أستاذ من التعليم العالي، أتمنى أن يتقبله بصدر رحب كما تقبّلنا رأيه بكلّ أريحيّة وسماحة، والمعذرة إن رأى (فضيلته) في كلام هذا

المُعَيْلِم نقصا أو عيبا في النحو أو الصّرف أو التركيب، فالفرق -كما يعلم- مُنداح بين من يزوّدون المواقد بالفحم الحجري في الأسافل وبين ربّان السفينة في بدلته الأنيقة في الأعالي...

مع تحياتي

16 نونبر 2021

مُمانعة !

من باب المقاومة والمُمانعة المألوفين في الهامش، أو ما أسمّيه شخصيّا " المغرب الأسود "، حاولنا فتح كتاب، وإن كانت الكتب والثقافة عموما آخر ما يمكن للإنسان أن يفكّر فيه إن كان يسكن في قصبة الطّاهر، حيث الماء الصّالح للشرب والطريق المعبّدة والمستوصف اللاّئق وو... أمور مازالت من أحلام العذارى !

فتحنا كتابا لنقاوم بشاعة العالم، وفتحناه كي نتناسى لِلُحيظات بؤسنا ومعاركنا اليومية. وفي هذا السّياق جاءت مبادرة جمعية المعرفة ونادي أصدقاء الكتاب، متيحين الظروف المثلى لمناقشة كتاب الباحث الأستاذ سعيد جليل المعنون ب " دراسات في التراث الشعري والغنائي الأمازيغي"، الصّادر عن منتدى الأدب لمبدعي الجنوب.

كان لقاء ماتعا أخذنا منه الكثير من المعرفة النظرية والعمليّة، خاصة وأن الثقافة الأمازيغية خزان لا ينضب أدباً وحكمةً وفلسفةً...

شكرا للأستاذ سعيد جليل مؤلّفاً ومُحاضراً، وشكرا للأستاذ أيوب كرتا مقدّما ورقته النقديّة المستفيضة، وشكرا لكل من حضر، وشكرا للمنظمين على كرم الضّيافة والوفادة...

إلى بقعة ضوء أخرى...

20 دجنبر 2021

إجابة وتوضيح (1)

وصلتني قبل أيام أسئلة من بعض طلبة العلم اختلفت مواضيعها ومشاربها، وإنّني مُكْبِرٌ في أربابِها حقّا ثقتهم في العبد الضعيف على قلّةٍ في الزّاد والمؤونة، خاشياً أن يصدق فينا قول شيخنا المعرّيّ:

يَبْغُونَ مِنّي معنىً لستُ أُحْسِنُهُ فإنْ صدَقْتُ عَرَتْهُمْ أوْجُهٌ عُبُسُ
ماذا تريدون، لا مالٌ تَيَسّرَ لي فَيُسْتماحُ، ولا عِلمٌ فَيُقتَبَسُ؟
أتسألونَ جَهولاً أن يُفيدَكُمُ وتحلِبُونَ سَفِيًّا ضِرْعُها يَبَسُ؟

أمّا الأوّل فمتعلّقٌ بالبيت المشهور لبشّار بن بُرْد القائل فيه:

يا قوم أذني لبعض الحيّ عاشقة والأذن تعشق قبل العين أحيانا

وقد طلب السائل تحقيق البيت شكلاً بعد وقوفه عليه مُشَكّلاً في مواقع عدّة كما يلي: يا قومِ أَذْنِي لبعض الحيّ عاشقةٌ... ويا قومُ أَذْني... / أما السؤال الثاني فمتعلّقٌ بتحقيق قول ابن شُبرمة القاضي في العقد الفريد: " ذهب العلم إلاّ غُبارات في أوعيةِ سوءٍ "، وقيل: "... عِبارات في أوعية سوء"، وقيل:"... غُبّرات في أوعية سوء". وكما ترى فالسّؤالان حائران أمام الجواب السليم جزما وإثباتا، وهنا تكمن محنة المُحقّقين، وما أعظمها محنةً !

يبدو من اللاّزم ابتداء تحذير طالب العلم الفاضل من "مشيخة" غوغل (google)، فليس في جعبة هذا الموقع إلاّ ما استودعه الناس فيه؛ هو حاطب ليل لا أقلّ ولا أكثر، قد يمدّك بالنفيس حينا، ولكنّه يُغرقك في أحايين كثيرة في الحَشَفِ والغثّ والهَذْر الفارغ إن لم يخضع للتمحيص والغربلة والفَلْي وإنعام النظر. أما عن السؤال الأوّل، فبيت بشّار بن بُرد ممّا سار بين الناس مسير الأمثال والمسكوكات المشهورة، وهو من قصيدة مطلعها - ولها قصة معروفة -:

وذَاتِ دَلٍّ كأنّ البدرَ صورتُها باتتْ تُغَنّي عميدَ القلبِ سَكْرانا

وختامها قوله:

لا يقتلُ اللهُ مَن دامت مودّتُهُ واللهُ يقتُلُ أهلَ الغدرِ أحيانَا

والقصيدة جملةً ستّة عشر بيتا، تتضمّن اقتباساً بيتين لجرير بن عطيّة التميميّ، تحديدا الثاني (إنّ العيون التي في طرفها حورٌ...) والرّابع (يا حبّذا جبلُ الرّيّان من جبلٍ...). أما الشّاهد، وهو

البيت المُختلف عليه (يا قوم أذني...)، فهو البيت السّادس من القصيدة، الذي ينبغي أن يُدقَّق شكله كما يلي - والله أعلم -:

أوّلا، ما يتعلّق بكلمة " قوم "، وهي المُنادى في هذا المقام، فيجوز فيها البناء على الرّفع على أنّها نكرة مقصودة، فتكون "يا قَوْمُ" ؛ كما يجوز في المنادى الصّحيح الآخِر الجرّ إذا اتصل بياء المتكلّم المحذوفة جوازا، والأصل " يا قومي "، فتكون إذن " يا قومِ "؛ فالأمر على التخيير بين الرفع والجرّ، مع ترجيح الجرّ لأن قصّة القصيدة تفترض كون بشّار في وسط قومه متحدّثا معهم عن قَيْنَة مغنّية خلب صوتها لُبّه فأنشد ما أنشد، والقصّة على كلّ حال مفصّلة في الأغاني/ نسخة بولاق.

ثانيا، ما يتعلّق بكلمة " أذني "، فسياق البيت لا يُمكن إلاّ أن يُؤكّد حديث بشّار عن أُذْنِه السّامعة، والسّمع حاسّته المفتوحة على العالم بعد انطفاء عينيه؛ كما أن كلمة (عاشقةٌ) لابدّ أن تكون خبر مبتدأ مؤنث، ولا مبتدأ سليمٌ إلاّ أن يكون "الأُذْنَ "وهي كلمة مؤنثة، فيستقيم الوزن والتركيب والمعنى؛ إضافة إلى أن الشطر الثاني من البيت معطوف على الأوّل وشارح له (والأذْنُ تعشق قبل العين أحيانا)، ولم تُكرّر كلمتا (عاشقة) و(تعشق) إلاّ لتأكيد مسألة عِشق الآخر غير المرئيّ بالسّمع، وآلتُه الأُذْنُ. أمّا إذا افترضنا أن الكلمة " أَذْنِي"، فلا نجد في موضوع البيت أيّ علاقة بالأَذْنِ، والأَذْنُ لغةً إصابة الأُذُن، إذ نقول: أَذَنَ خصمَه أثناء المصارعة، أي أصابَ أذنه بأذى؛ والأذْنُ قبل هذا وذاك تُقرأ بالتذكير وليس بالتأنيث، وعليه يُقرأ الشطر بداهةً: يا قومِ أُذْني لبعض الحي عاشقةٌ...

وللتثبّت أكثر تقويةً للأدلّة، يمكن العودة إلى ديوان بشار بن برد بتحقيق العلاّمة محمد الطّاهر بن عاشور في جزئه الرّابع، طبعة لجنة التأليف والترجمة والنّشر، القاهرة، 1966، ص 194؛ كما يمكن الاطلاع على مقال " العمى والغريزة النوعية " لإبراهيم عبد القادر المازني في كتابه قبض الرّيح، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، 2012، ص 53.

وحسبي ما أشرت إليه، في انتظار نشر جواب السؤال الثاني في القريب العاجل بحول الله.

على قدرِ أهل العزمِ تأتي العزائمُ...

طالما ردّدَ على لسانه: "يوجد في العمق الأفريقي ما لا يوجد في العمق الأوروبّيّ والغربي "، وتالله ما صدّقتُ هذا الكلام قطُّ، وعقلي الأبله لا يُطاوعني في تقبّل الأفكار ولا في استبلاعها إلاّ أن يراها رأيَ عينٍ ويقين... إلى أن جاءت فرصة زيارتنا جمهوريّتي موريتانيا و مالي صيفَ 2019 مرورا بمعبر الكركرات الحدودي، هنالك، صادفنا عجائب البشر وغرائبهم، عجبا وغرابة لا يقلاّن عن مثيليهما المغربيين، فأفريقيا حقيقةً قارّة فيها كلّ شيء، وليس فيها أيّ شيء ! يومئذ تذكّرنا مسكوكة الصّديق خالد ألعيوض، ومدى صدقها صدقاً لا ريب فيه، كيف لا وهو الخبير المسكون بهمّ مهاجري جنوب الصّحراء، بوضعهم في بلدانهم الأمّ وفي بلدان العبور إلى بلدان الاستقبال والاستقرار، إضافة إلى الهجرة السّوسيّة وما خلّفته من تحوّلات في المجتمع السّوسيّ، التي أعادت تشكيله ثقافيا واجتماعيا.

نكتب هذا اليوم لنهنّئ صديقنا وأستاذنا الفاضل خالد ألعيوض بُعيد حصوله على شهادة الدكتوراه في موضوع " التحوّلات السوسيومجالية والاقتصادية وقضايا التنمية بسهل اشتوكة/ حالة جماعتي سيدي بيبي وأيت اعميرة"، ممنوحة من لدن أعضاء المناقشة بميزة "مشرّف جدّا"، مهنّئين أفراد أسرته وذويه وكلّ مقرّبيه، وكلّ هؤلاء يعرف أن تلكم الشّواهد، على ما تحمله من بريق، لا تتقدّم بالمرء إن لم تتقدّم به خبرته وتجاربه الحياتية واحتفاره في الكتب قراءةً وتأليفاً. ونحن عرفناك رجل ميدان و "دكتورَ" العمل المدني والجمعوي، قبل أن تمنحك الدّولة الآن حرفَ " دالٍ " مهملةٍ تُلصقها باسمك أينما حللتَ وارتحلتَ؛ "دالٌ " عرفتكَ قبل أن تعرفها ؛ "دالٌ " لن تُعلّمَك أصول العلم من جديد، ولن تجعلك تشدو حروف العمل الميداني من أوّل السّطر، كما لن تجعلك مزهوّاً بقطعة ورق، ومعدنك لم يُخلط كبراً و لا عُجْباً؛ دالٌ :

يظنّها البعضُ إعجازاً ومنقبةً ومُنتهى ما يَحوزُ الطّالبُ الفَهِمُ

لا هذا ولا ذاك، إنما حاصلُ الأمر تقليدٌ جامعيٌّ خضعتَ لبراديغماته ونواميسه التقليدية، فصفّقَ الناس وهنّأوا وخرجوا... وانتهت القصّة لتبدأ أخرى...

نهنئك مرّة أخرى لأنك استطعت تجاوز وضعك الصّحيّ الحرج بعد أن فعلت فيك كورونا فعلتها، فجعلت غاز الأوكسجين يأتيك سائلا في أنابيب خاصّة، لا غازا يُلتقط في الهواء؛ ومازلت رسالتك الصّوتية، وأنت في المصحّة بين الحياة والموت، ترنُّ في الأذن التي استقبلتها في جزع

وفزع من المآلات السّوداء... ولكن القدر قال كلمته فسارت الأمور على ما يُرتجى ويُحمد ولله المِنّة... فاهنأ بما منحتك الأقدار من حُسنى العافية وحسنى الدّرجة العلميّة، وجعلها الله دائمتين عليك مادام فيك عِرق ينبض وجفنٌ يرِفُّ.

13 دجنبر 2021

الاستثنائيّون !!

أثقلنا عقولنا ووعينا الجمعي منذ عقود بأخطاء ساذجة، حتى أصبحت من مُعجمنا العادي المتداول؛ لأن مفكّرا تفوّه بها أو عالِماً نوبليّا (حاصل على جائزة نوبل)، أو سياسيا مرموقا...إلخ. والأمر حاصل هكذا لأن عقولنا خاملة لا تحبّ أن تحترق وتفكّر، فتَفْلي وتَروزَ وتُحاكم كلّ ما يُداهمها من أفكار وآراء، فالهراء هراء ولو تفوّه به أكبر عبقريّ كما عبّر عالم الرياضيات البريطاني جون لينوكس؛ والغريب أن الأغلبيّة السّاحقة مازالت تردّد وتكتب عن المغرب النافع وغير النافع دون أن تزن العبارتين في ميزاني العقل والواقع كليهما. هذه مسكوكة استعماريّة تحمل مغالطة فاقعة متضمنة فخّا لغويا متقن الصّنع وغاية في الإجادة؛ فهل يوجد حقا مغرب غير نافع؟ الأولى أن نقول: مغرب " مُنتفِع " ومغرب " غيرُ منتفِع "، لأن المغرب كُلّهُ نافعٌ بَرُّهُ وبحره وسماؤُهُ واسألوا عنه الإقطاعيين وكبار المُلاّك ووزراء الحقب السابقة واللاحقة المستفيدين من العطايا الرّيعيّة والهدايا الجزافية من الدّولة " الكريمة " !! أما ما سُمّي مغربا غير نافع فهو نافعٌ بسُدّجه المستغفلين الذين يملأون صناديق الانتخابات، وبمعادنه وبثرواته الطبيعية وبما تنتجه تلك الأرواح الذابلة هنالك... المغرب الذي لم تنفعه الدّولة بشيء، وقد انتفع منها بكلّ شيء...

أتيت بهذا الكلام في حواري الأخير مع الصديق عبد الرحمان الرايس صاحب قناة " العاديون " اليوتوبية الرائعة، والحاصل مؤخرا على جائزة الويب المغربي، والقناة تعتبر أولئك البسطاء في المغرب غير " المنتفع" أناسا عاديين، في حين أنهم " استثنائيون "، فالإنسان العادي لا يحتطب من مسافة أربعة إلى خمسة كيلومترات، والعادي لا يجلب ماءً من مسافة بعيدة، والعادي لا يستضيء بالشمع والقنديل وقس على ذلك من مُوجعات القلب... نحن العاديون وهم الاستثنائيون غير المحظوظين، لأن الأرحام أسقطتهم في بلد تصرف على كرة القدم أكثر مما تصرف على جياعها الذين يلعقون الجحيم كلّ يوم...

فسلاما لكلّ من يتكبّد آلام الحياة هنالك من الشيوخ والمسنّين نساء ورجالا، وسلاما للصغار الذين مازالت ألعابهم مصنوعة من الحجارة والحصى، وسلاما لكلّ نعجة لم تجد كلأها اليومي مستعيضة بصوف أختها عنه... سلاماً أيها الاستثنائيّون

9 يناير 2022

وغلّقتِ الأبواب !!

لمّا طوى الزّمن عدّة سنوات على إغلاق المكتبة التّابعة "مِعماراً" للمسجد الكبير، والمجهّزة - تجهيزا كاملا- في إطار مشاريع المبادرة الوطنيّة للتّنميّة البشريّة، كتبتُ -قبل أشهر- هذه الرّسالة، منتويا إرسالها إلى رئيس المجلس العلميّ ومندوب وزارة الأوقاف بإنزكان، لكن تركتُ الموضوع برُمّته، فنُسيَ الأمر وبقيت الرّسالة في ذاكرة الحاسوب، واليوم أنشرها كما كتبتها يومئذ...

من مواطن
إلى رئيس م. ع / مندوب و.أ
إنزكان

الحمد لله الذي بعث في الأمّيّين رسولاً يعلّمهم الكتاب، فجعلهم على بصيرة من علل حدوث الأشياء ومن الأسباب؛ جامعاً إيّاهم على الهدى بأبلغ الحديث والكلام، وإن تشعّبت بهم العقول والأفهام؛ فصار (ص) باباً لبيت البيان، وعارضةً لسقف اللسان.

أمّا بعد، فقد اعتاد العرب استهلال مخبوء جَنانهم بذكر الأطلال وسواد الدِّمن، وباستحضار الحبيب ومواضع الحُسن فيه، والعادةُ تكرارُ السّلوك اعتباطا، سواء توقّدَ الذهنُ فاستفهم عن السّبب أو لا، فتَتَشَنَّفُ آذانهم لـِ" قِفا نبكِ" كما تطربُ أسماعهم لـِ " بانَتْ سُعادُ " على السّواء، فلا يلجون لُبَّ الحديث إلاّ بعد تمليحه وتطريفه بما لا يرتبط أصلاً بالموضوع، ولكلّ متحدِّثٍ فيهم قصدٌ من كلّ هذا وغرض؛ أما وإنّني أمازيغيّ، ولا تجمعني بالعرب إلاّ آصرةُ اللّغة، وقد اضطررت إليها اضطراراً فقط لمخاطبتكم؛ فقد تعوّدتُ ضرب كِبدِ الكلام والخروج إلى القصد مُحدّداً مُجرّداً من كلّ ديباجة صوتيّة وفساتين لغويّة، ولولا ما تعوّدتم عليه في مراسلاتكم ومخاطباتكم الإداريّة، وما سنَنْتُموه في الشّرق من جعل الكلمة كلمتين والكلمتين أربعاً، لما وجدتني رصفت تلكم الأسطر أعلاه، فوقتٌ أُنفقه على شياهٍ تشربُ وِرْدَها خيرٌ لي من وقت مُضاعٍ أشحذ فيه أكداسا من الكلمات وأسبكُ فيه سبائكَ من البلاغة والبيان...

وبعد، فلا يخفى عليكم أنّ المسجد الكبير قد رفعت قواعده وبسط سلطانه على هذه الأرض الفقيرة، وقد تزيَّنَ سقفه واستطالت صومعته مُتأنّقةً مُطِلّةً على أنصاف البيوت والأكواخ، وكأنّ القدر يأبى إلاّ أعادة مشهد " البئرِ المُعَطّلَةِ والقَصرِ المَشيد"، ومن ذا يعترض على القدر؟

فسبحان من أتى بإخوان "قُباء" من بلادِ آلِ هاشمٍ فأنزله آمناً مطمئنّاً في بلاد آلِ " هامشٍ " !! ولستُ أعرف حقّا إن كان من نواميس الله في الأرض أن تضيقَ البيوت التي لا تتجاوز مساحتها مقدار ذراعين طولاً وعرضاً وتُسقّفَ بصفائح القصدير ،لتتّسع دور العبادة وتتفاسح وتُتّخذ لها الفُرُشُ المُوَشّاة والنقوش المُنمنَمَة والثُّريّات الضّخمة المتلألئة؛ فليت شعري، كيف يتّصل هذا الأشعثُ الأغبرُ المعدومُ بالسّماء، وكيف يستقيم له قيامٌ وسجودٌ على بساطٍ وثيرٍ لا يُذَكّرُه إلاّ بحَصِيرَةِ كوخه البالية؟ حتّى وإن أفلتتها ذاكرته، أتتْهُ الصّورة على عجل حين يسمع الإمام مرتّلا قول الله: " وجعلنا جهنّم للكافرين حصيراً" !. ما همّني كلّ هذ، وللجيوبِ الملآى أن تشيّد حتى بُرج النمرود إن شاءت أو هرمَ الفرعون، فالناس أحرار فيما يملكون؛ إنّما همّي معلّقٌ بالمكتبة المغلقة في وجه عموم النّاس، وهي مجهّزة بمال الدّولة، أو الجزية - كما تعرفونها - التي نؤدّيها ونحن - كالعادة- صاغرون. سنوات انتظار طالت ولازال هذا المرفق العموميّ محجوبا عن التلاميذ صغاراً وكباراً، مُغلِقاً أبوابه كزليخة إذ همّت بيوسفَ (ع ص)، ولستُ أرى أسباباً وجيهةً لهذا إلاّ خمسةً:

- لأننا أبناءُ الذّيل والهامش من هذا الوطن، وطلب العلم في حق هذه الفئة نافلة من النوافل، أو بلغة أصول الفقه مندوب ومستحبّ، بينما في حقّ أبنائكم من صدر الوطن ففرضٌ وواجبٌ.

- لأنّ السياسة ولعبة المصالح أضاعت مفاتيح الأقفال كما ضيّعت البشر مُذْ عرفوها.

- لأن المكتبة، وقد أُقيمت بإحدى زوايا المسجد، فأصبحت جزءا منه؛ ارتدت إهابَ القداسة مشمولة بقدسيّة المسجد !

- لأن المكتبة خاصّة بالسّيّد الإمام وبالقائمين على شؤون المسجد وذويهم، وهذا مستبعد...

- لأن الفضاء فارغٌ خاوٍ إلاّ مِن يافطة مثبّتةٍ على جدار المسجد لِذَرِّ الرّماد في العيون !

أقول هذا ليتمكّن أبناء البسطاء من ولوج مَرفق عموميّ موصد الأبواب دون سبب مُعلن، وأقول هذا لتبرئة الذّمّة أمام الخلق والخالق، لأنّني كنت في الاجتماع الأوّل المنعقد،بُعيد قبول تمويل المشروع في إطار المبادرة الوطنية للتنمية البشرية، كنعصر اقترح وجهة نظره في مكوّنات المكتبة وسبل تدبيرها أحسن تدبير... ولكنّ أفعى الفساد مرّة أخرى لَقِفَتْ كلّ ما صنعناه !

لكلّ ذلك، أتوجّه إليكم بهذه الرّسالة- إن بَلَغَتْك- ولا أقول لكم إن تولّيتم فعليكم إثم الأريسِيّين، ولكن أقول إن حقوق أولئكم الأريسيّين، من ضعفاء هذي البلدة ودهمائها، معلّقة بجرّة قلم منكم، ولا تظنّوني - معاذ الله- طامعاً ألبتّة في شيء مما حوته تلكم المكتبة، فلَكُم عليَّ، إن تجاوزتُ عتبة

بابها، صَلْبَ بدني مُنكّساً أمامها كما صَلب الحجّاج عبد الله بن الزبير في مكّة، ولا تُعيروا اهتماماً لأيّهم إن سألك: أمَا آن لهذا الرّاكب أن يترجّل؟

فتقبّلوا هذه الرّسالة تذكرةً للغافل، والغافلون كثرة، ومعونةً للعاقل، والعاقلون قلّة، ولا نحسبكم إلاّ من القلّة.

والسّلام عليكم

مواطن من آلِ هامِش

11 يناير 2022

إليكم وإلاَّ لا تُشَدُّ الرّكائبُ...

بيوتٌ طينية تحكي حكايات من مرُّوا على جنباتها، وأناسٌ لم تترك تجاعيد جباههم لأصداف الحكمة ما تنطوي عليه...هي أرضٌ صمتت لقرون متطاولة في الزمن حتى لكأنّها قبور أخرى تؤثث وادي الملوك على أرض الكِنانة ...

هي قرية أيت بن حدّو، الواقعة جنوبي مدينة ورززات على امتداد عشرات الكيلومترات، القرية المنسيّة -ككل قرى الأطلس القابعة خلف الشمس- على جداول التنمية في مفهومها الشامل، لولا أن رأت برهان ربّها وحقّتها العناية الإلهية ، بعدما أدرجت منظمة اليونيسكو سنة 1987 قصر أيت بن حدو على قائمة مواقع التراث العالمي، فخرجت القرية من عنق الزجاجة... تماما كما أخرج الناقد الفرنسي بيير كوديرت الفنانة الشعيبية طلال من بين نعاجها، من امرأة تكابد اليوميّ القاتل إلى توشيحها بالميدالية الذهبية للجمعية الأكاديمية الفرنسية للتربية والتشجيع ! في انتظار يد حانية أخرى تنتشل ما طمرته السياسات الإقصائية عن سبق إصرار وترصد...

العجب أن الأهالي هناك لم يضيقوا بما ضقتُ به في سرّي، إذ كانت الابتسامة وعبارات الترحاب ومأثورات الضيافة كلامهم على مدار الدقيقة والساعة، شيخا كان أو يافعا، وكأنهم لا يعرفون من الحياة إلا حمل الضيف على أكتافهم مصداقا لقول الأول :

وإنّي لَعَبْدُ الضّيفِ من غير ذِلّةٍ وما فيَّ إلاَّ تلكَ مــن شِيَمِ العَبْدِ

فشكرا لكم على علمتموه إيانا من دروس في البساطة وفي التواضع وفي أصول الضيافة والوفادة، وشكرا لكم على ما أبديتموه من صبر ومصابرة على قساوة المناخ مضافا إلى إقصاء الدولة، مُبْدين للزائر ابتسامةَ من يرفل في رغد العيش ونعيمه... أنتم الأولى بالوصف وبالمدح وبالثناء، فعلى الأقل لازلتم تحرسون حجارة الأرض وحصاتها وقيمها وتاريخها المشرق، أما نحن، على الضفة الأخرى من الساحل، فقد استهنّا بكل شيء، وشريْنا كل بضائعنا بثمن بخس.

22 يناير 2022

في مُتونِها جلاءُ الشّكِّ والرِّيَبِ !

الكتابُ إكسيرُ حياةٍ وليس مَنقوعاً يأتي على الأنفاسِ فيحبسُها، قاتلاً صاحبها مُنهيًا وُجودَه؛ وإن كان المقصود بهذا المعنى مرتبطا بالكتاب فيما يقدّمه للقارئ من فكرة ورأيٍ، فهو مرتبط كذلك بنفي المُسَلَّمات " الموروثة " التي تُصِرُّ على أن كومةَ كُتبٍ قد قتلت أبا عثمانَ بنَ بحرٍ(الجاحظ) وهو شيخ ثمانينيّ، والغريب أنها، أي الكتب، لم تقتل فولتيرَ ولا ديدرو ولا طه حسين وآخرين، بالرغم من آلاف الكتب التي كانت تحتويها مكتباتهم؛ ولكن العقل الذي يتقبّل بكلّ " أريحيّة " قصّة الأصمعيّ وهُراءَه " صوت صفير البلبل "، مدّعين أنه هزم أبا جعفر المنصور الذي كان يملك ذاكرة لا تملكها الآن حواسيب النّاسا الأمريكيّة ! مُفْرِغاً بيت المال ممّا حوتهُ، ثائراً للشعراء المغبونين قبله ! والعقل المُتقبّل - بدَهِيّا- كذلك قصّةَ عمرِو بنِ كُلثوم، قاتِلِ ملكٍ - عمرو بن هند- وسط حرسه وجيشه، عائدٍ إلى دياره دون أن يقع شيء، منتفخا بقصيدته الخطابيّة " ألا هبّي بصحنك..."؛ هذا العقل يمكن أن تنسلك في جوفه كلّ حادثة وحديث، بل هو ساعٍ في تفريخها وزرعها في كل جيل من باب المُقدّس المعصوم من كل رأي واجتهاد ... ورحم الله عابداً الجابريّ ...

في سياق الحديث عن الكتب، شرّفني قبل يومين الأستاذ الباحث سعيد جليل بزيارة مكتبته العامرة، وهي نموذج المكتبة الشاملة المُبوّبة بشكل دقيق. تضمّ حسب فِهرِسْتِها 3417 كتابا مفرداً ومجاميعَ كُتبٍ وموسوعات باللغتين العربيّة والفرنسيّة، مُفَيّأةً إلى الأدب والنّقد (التراثي والحديث)؛ التّاريخ؛ الفلسفة؛ علم النفس؛ علم الاجتماع؛ الفقه الإسلامي وعلم مقارنة الأديان؛ وركن فريد خصّصه الباحث لكلّ ما يتعلّق بالثقافة الأمازيغيّة تاريخاً وفنّاً وتراثاً وأدباً، إضافة إلى ركن كُتبٍ مُهداةٍ إليه بتوقيع مؤلفيها إلى جانب ما حظي به الباحث من دروع وجوائز خلال رحلة العطاء العلمي المنطلقة منذ عقود مستمرّة إلى اليوم.

هنيئا لأستاذنا سعيد بهذا الكنز الحيّ الناطق، فالمكتبة كما قال عبد الله كنّون معبد الفكر ومعتكف المفكرين، وهي المعمل الذي تصنع فيه العقول وتصاغ الأذواق؛ وهنيئا لأيت ملول بباحث بحجمه يقتفي أثر العلم والمعرفة في مظانّها، مستنكفا من علمٍ استأثرت به الآلهة (google) التي تحتطب ليلاً ونهاراً...

ملاحظة: يمكن العودة إلى كتاب جميل جبر "الجاحظ ومجتمع عصره في بغداد"/ بيروت- لبنان/ دار صادر؛ والتحقق من خرافة وفاة أبي عثمان بكومة كتب...

فلسفة السّلحفاة !!

في دردشة عابرة مع أحدهم ينتسبُ إلى أهل " التّعليم"، مزهوّاً - في ظنّه- بما بلغه في " جنّة " التوظيف، وهو الذي لم يعش في "جنّته" تلك إلاّ بضعة أشهر، غير بالغٍ بعدُ مدّة ما يقضيه الجنين في بطن أمّه... سألني عن سُبُل النّجاح في هذه المهنة، باعتباري تجاوزت العشرين عاماً / خازوقاً فيها... فأجبته- حسب قناعتي- بما يلي:

أمّا المعلّم فمعلّمان: معلّم مجتهدٌ / متمرّدٌ على القوالب، ساعٍ إلى النّظر رأساً في مصير أبناء الشعب الفقراء، مُكتفٍ بإمدادهم بما ينفعهم من هذه البرامج الضّخمة الضعيفة مبنىً ومعنىً (التعليم الابتدائي تحديدا)، وتبصيرهم بالنّوايا المخبوءة خلفها. لا يهتمّ بالمظهر ولا بالمنظر ولا بالزمن الرّسمي ولا بالأناجيل الوزارية...خالقٌ لهذا المكروث حياةً موازية يستطيع خلالها أن يحلم أحلام يقظة... هذا المعلّم يا سيّدي لا يساوي شيئا لدى النّظام ولدى العباد على السّواء، يحرث في الماء ورصيده " استفسارات" و"اقتطاعات" وتوبيخات" ولعناتُ مجتمع يترصّده في الجيئة والذُّهوب... هذا الصّنف من المعلمين احذر أن تكون منه يا ولدي لأنّ الثورات تأكل أبناءها أوّل ما تستأنف الأكل !!

أمّا الثاني، فالزمْ غَرْزَهُ، وهو الذي يضع في معصم يده ساعة الكورتز - وهي أدقّ ساعة على وجه الأرض- يضبط مواقيت الدخول والخروج كما يضبط وقت الصّلاة، ثمّ يجعل ساعته تشتغل بالدقّة نفسها في تقديم المواد (أربع موادّ في ساعتين!)، وكلّ شيء ينبغي أن يمرّ في مقدار رقّة جفن (شرح وتحليل ونقاش...)، لا يهمّ. إضافة إلى التّأنّق الكافي، مُؤتزراً وزرته البيضاء، مُعتمداً بيداغوجيا " الرُّوبوتيك"، بمعنى أن يقدّم البرنامج كما أُنزل من الرّباط بِعُجَرِهِ وبُجَرِهِ، متفاديا طرح أيّ سؤال حوله قد يُفسد عقله، فساعته الدّقيقة أصلا لا تسعفه في ذلك... إضافة إلى ضرورة اهتمامه بصكوك الغفران (أوراق وأوراق بينها أوراق وأوراق). أمّا السيّدان" المدير والمفتّش"، فعليه أن يسبّح بحمدهما بكرة وأصيلا، يركع لهما ويسجد آناء الليل وأطراف النّهار، فهما آلهتان وجبت طاعتهما، وإلاّ فليستعدّ للخروج من الجنة وليخصفْ عليه من ورقها...أمّا باب الاجتهاد فلا يقربنّه، فالناس قبله اجتهدوا ولاداعي لاختراع العجلة مرّة أخرى... فهمت الدّرس يا ولدي؟

النجاح مقرون باستيعاب منطق السلحفاة، وهي التي لا تُخرج رأسها من القوقعة إلاّ لأكلٍ أو لشربٍ، وكلّ مطلب واجتهاد خارج ذينك سيجعلانها تبيتُ خارج قوقعتها أو تموت مقلوبة

في أسوء الحالات. فإن كان لك في الدّنيا سَعَةٌ في الرّزق فابحث لك عن عمل آخر، وفي الأرض للحُرّ الكريمِ مَنَادحُ، أمّا إن ضُيّقَ عليك، وكان لك التعليم طوق نجاة، فعليك إذن بمنطق السّلحفاة، فهو منطق السّلامة والفوز والتتويج، وبعد عشرين عاماً احكِ لغِرٍّ آخر حكايتك...

14 مارس 2022

كيف أكون أديبة !

وأنا تائه بين ملفات قديمة في الحاسوب، وجدت رسالةً كانت جوابا على سؤال فاجأتني به وصيفة بطل تحدي القراءة العربي السنة الفارطة، التلميذة الرّائعة سارة الضعيف، وكان سؤالها: كيف أكون أديبة؟... أتمنى أن أكون قد منحتها صُوَى تهتدي بها، وإلاّ فما على أعرج في سباق الأصحّاء من حرجٍ... أنشرها خشية ضياعها كما ضاعت أشياء كثيرة...

ما أعجب الحياة يا سارة !

على قدر فُهومنا الضعيفة نستفهمُ عن الكوائن والحوادث، طالبين الدّهر أن يجود بالحقيقة، فلا ترانا نقبض منها على شيء، فيستغلق الأمر علينا ويستبهم، حتّى إذا عجزنا ولَفَقَتْ طِلْبَتُنا وجررنا أذيال الخسارة، ألصقنا بالقَدَر كلّ سُخام الضّعف وقلّة المُنّة، فنتلو بعد ذاك منهزمين: " وحملها الإنسان إنّه كان ظَلوماً جهولا "(سورة الأحزاب 72). فما أعجب هذه الحياة التي يُسألُ فيها الجَهولُ ويُترك فيها العارِفُ هانئ البال، وما أعجبها يومَ تجد البصيرَ يقتفي أثر عكاكيز العُميان يطلُبُ الاهتداء إلى مواطن السّلامة والأمان في طريقه المبصورةِ اللاّحِبَة ! ولله درّ بشّار بن بُرد منشداً:

أعْمى يَقُودُ بصيراً لا أبَا لَكُمُ
قد ضَلّ مَن كانتِ العُميانُ تَهديهِ

كيف إذن أكونُ أديبةً؟

واللهِ ما المسؤولُ بأعلمَ من السّائل، ورحم اللهُ عبداً عرفَ قَدْر نفسه ومثابتها بكلّ تجرُّد وصِدق، وما نحنُ من النّاس إلاّ مُتَعَهِّدُو صِبْيةٍ صغار، نُفْتيهم في إرث سيبويهَ والمُبَرِّد، فاتحين أعينهم الناعسة على بعض ما علّمتناهُ الحياةُ في شِدّتها ولِينِها، ولا نتجاوز هذا القَدْرَ الذي نظنُّ أنّنا نُحسِنُهُ إلى ما نقطعُ فيه بأنّنا لسنا من أهله وذَويه، وإن كانت أعناقنا تشرئبُّ إليه حيناً من باب تزجية الوقت وملء الفراغ وتسكين ثائرة الفُضول، لا من باب تعلُّم الحِرفة وطلبِ إحكامِ الصّنعة، وقد صدق شيخنا المعرّيّ قائلا:

يَبْغُونَ مِنّي معنىً لستُ أُحْسِنُهُ فإنْ صدَقْتُ عَـرَتْهُمْ أوْجُهٌ عُبُسُ
ماذا تريدون، لا مالٌ تَيَسّرَ لي فَيُسْتماحُ، ولا عِلمٌ فَيُقتَبَسُ؟
أتسألونَ جَهولاً أن يُفيدَكُمُ وتحلِبُونَ سَفِيًّا ضِرْعُها يَبَسُ؟

فإذن، والعادةُ اللّياذُ بالصّمتِ إزاءَ ما نجهل - وهذا لُبُّ الحكمة-، لكننا سنمنحكِ إلماعاتٍ في الموضوع ليس إلاّ فنكفيكِ مؤونة الانتظار، وقد يُسألُ الطّبيبُ عن أسعارِ الخشبِ فيُصيبُ، لا لكونه خشّاباً، احتطبَ فيه وجمع، وباع فيه واشترى، ولكن يستفهم عنه أربابَ الصّناعة فيأتي بقبسٍ من العلم، سادّاً به ثُلمةً وفراغا في جوابه.

إن في القلم لشيئاً إلهيا وسرّا سماويا ما، وإنّنا لكاذبون إذا ادّعينا للحظة معرفته، قابضين على كُنهِهِ؛ ولعلّ " نون والقلمِ وما يسطرون "، هذه الآية الوحيانيّة أقرب إلى الرّوح من الورق حين تُتلى مرّةً ومرّتين، وإنّ مَراعِفَ القلم ومقاطره أخلد في كَبِد الزّمان من صخرٍ صلْدٍ أو بُرجٍ فارع يناطح السّحاب؛ أو ليست ملحمة جلجامش أبقى من كاتبها أديبا كان أو مؤرّخا أو مجرّد مغمور نال حظّا من اللغة والخطّ الأكادِيّيْن؟ فعلى هذا كان القلم أقدس ما لاعبتْه الأنامل، كما كان ولازال أخطر مخلوق عرفته البشريّة وإن كان فتّان المنظر، سهْلَ المقادَة، خفيف الحِمْل، هادئَ الصّرير... لكن ما أجمله مُسطّراً أحرف الجمال، عارِجاً بك عبر مدارج الخيال حيث لا حُكم لقوانين الأرض الفيزيائيّة، إنّما الحاكميّة هنالك لأمر مُبهم عصيّ على الفهم والتّجلّي... هنالك تكون للقلم سطوته مترجماً كُلّ خالجة مكبوتة، معبّراً عن كلّ دمعة سائلة، مُرافعاً عن كلّ قلبٍ مَضِيم مهموم... وقد لا يستطيع حفْزَ هذا القلم ودفعه إلى تلك الغياهب إلاّ أديبٌ عرفَ كيف يكتب، وإلاّ فهو عالة على صناعة وحرفة اسمها الأدب !

أما وقد سألتِنا عن الأدب، فالأدب - دون إرهاق عينيك بسرد تاريخيّ ليس هذا مقامه- مما تواطأ عليه المهتمّون تعريفا بكونه جامعُ روح اللفظ وروح المعنى، ويبقى البديع والبيان والبلاغة مُجمّلات ومحسّنات، وإن عدّها آخرون مما يلزم الأديب من أدوات الكتابة، وإلاّ فكيف يُتصوّر طعام خاليا من حبّة ملح؟ فإذن أن تكوني أديبة يعني أن تتفَصّد جبهتُك عرقا، صابرة على " محنة " قراءة أمّهات الكتب، حيث تجدين عُيون الأدب نثراً وشعراً مشفوعة بمتانة في اللغة وقوّة في التركيب؛ والعبارة في آخر المطاف لفظٌ ومعنىً وجودةُ تركيب، هكذا تتذوقين شيئا أقرب إلى الجمال الأخّاذ، فتخلقين الجمال بحروفك، وإلاّ فقراءة فواتير الماء والكهرباء أيسر !

قد تبعث لديك العبارة الأخيرة بعضا من الضّحك، ولكنّ الحقّ يُقال، فشرّ البليّة ما يُضحك، فإن عَدِمَ صاحب الصّنعة التمرّسَ في الأسباب وأضاع أدواته ولوازمه، زيادة على ذلك، رأيتِه آتيا بكلّ عجيبة من عجائب الزّمان، خارقا كلّ قوانين اللغة، عابثا بالمعنى، مُصطنعاً لنفسه " لا معنىً" على مذهب " المعنى في بطن الشّاعر"، فتغدو القصيدة لديه أو القصّة معادلة من الدّرجة الرابعة بعشرة مجاهيل، صافعا إيّاك بمسكوكة البحتريّ " وما عليّ لَهُم أن تَفهم البقرُ !"؛ وترينه

فوق كلّ هذا وذاك يجمع إلى ضعف السّبك قوّة العُجب، وإلى قلّة الصّواب كثرة التّخطئة، ظانّا أن الله لم يخلق عقلا كعقله، فهو العبقريّ اللوذعيّ، وهو ربّ الأدب الأعلى (اللهمّ غفراً)... ولكنّ اللّوم والعتب على كثرة المصفّقين في عهد الشاشة الزرقاء، حيث يُقاس الأديب ونجاحه بكثرة ما حصده من إعجابات معجبيه أو مُريديه، أو بكثرة ما ألّف وما استحصده من جوائز أو شهرة أو شهادات أكاديمية أو عدد مشاركاته القياسيّة في الأمسيّات الشعرّية والمنتديات الأدبيّة هنا وهناك، وكلّ حصاده، لو فَلاَه ورازَهُ عارفٌ حقيقيّ واحدٌ بالأدب، لجعله وَقودَ مدفأة أو دخينة يدخّنها أو قلّبَه على السّفُّود حتّى يشمّ رائحة جلده !

للأسف، هذه الطُّغمة هي المتحكّمة في دواليب الثقافة في بلادنا العربية عامّة مع استثناءات معدودة، وللأسف هي الطّاغية على المشهد، حتّى بلغت أرجلهم البحر والسّماء، أما البرُّ فقد مُلئَ حرساً شديدا وشُهُباً؛ فتجدين السيّد فلان والسّيّدة علاّنة صاحبي الصّولة والصّولجان في القصّة وفي الرّواية وفي الشعر وفي المقالة وفي النّقد، محتكرين دور الطّباعة والنّشر، ولو شئت تهجئة أسمائهم قلتِ: هذا هُبل وهذه اللاّتُ وذاك يَعُوقُ وتلك مَناة...وقد صدق المتنبّي قائلا:

مَا زِلْتُ أُضْحِكُ إِبْلِي كُلَّمَا نَظَرَتْ إِلَى مَنْ اخْتَضَبَتْ أَخْفَافُهَا بِدَمِ

أُسِيرُها بَيْنَ أَصْنَامٍ أُشَاهِدُهَا ولا أُشاهِدُ فيها عِفَّةَ الصَّنَمِ

مع كلّ هذا، كيف تكون سارة أديبة ؟

لا نحتاج لكذب الأوّلين ولا إلى هُراء الآخرين بأن ثمة أدباً يُكتسب بالفطرة، أو أن هناك أديبا بالفطرة ومفكّراً بالفطرة وما إلى ذلك من أحلام العذارى وهذر المتفيهقين. فلو جاز ذلك لثبت لدينا إسكافٌ بالفطرة وحدّادٌ مولودٌ بمطرقة في يده ! والحقّ أن لا شيء فُطرنا عليه إلاّ بعض العمليّات الطّبيعية التي تُبقي الإنسان على الحياة، وما سوى ذلك فهو دُربة واجتهاد وتمرين، بل، إنّ الكلام الذي نظنّه عاديا مألوفا إنما جاء هكذا بعد تدريب عسير للجهاز الصّوتي لم نكن لنحسّ تكاليفه ونحن صغار... المعنى واضح إذن، أن تكوني أديبة معناه الاستعداد لعناء الدّرس والبحث والاحتفار بصبر وجلد في الكتب الرّصينة من كتب اللغة والأدب بشقّيه الإبداعيّ والنقديّ وكتب التّاريخ وكلّ ما يتّصل بالثقافة الإنسانيّة عموما، فهذا أضمن لتملُّكِكِ أدوات القراءة الفاعلة وآليات إنتاج نصوص أدبية أو فكرية أو نقدية تليق ب"أديب" حقيقيّ، وما أثقل هذا اللقب على الخيال فضلا عن اللّسان ! أما إذا جرّك الافتتان بالأضواء وبالتهليل وبالتصفيق وبكثرة التأليف والنشر، والمغامرة بكلّ شيء في سبيل صناعة اسم برّاق تخطّه الجرائد والمواقع الإلكترونية بالبنط العريض داخل البلد وخارجه، فهذا ما تسمّيه العرب حَشَفاً وسوءَ كِيلة،

كالقطن يعجبك حجمه ويخجلك وزنه. وإن الأدب "اللقيط" لا يحتاج منك إلاّ ما تتعلّمينه في مدرستك مضافاً إلى ما تلتقطينه على الصّفحات الزرقاء من عجائب الدّهر اللغويّة والتعبيريّة والتّركيبية، كما تكفيكِ فيه ساعةُ قراءةٍ كلّ سنة أو سنتين، فما أهْلَكَ "أدباء" العصر إلاّ الإفراط في الكتابة والتفريط في القراءة، وهكذا تكونين "أديبة" على مقاس هذا العصر والعياذ بالله !

إجمالا للموضوع أقول: لا توجد شياطين خفيّة تستطيع منحَكِ ما تستطيعين منحه لنفسك من استعداد ورغبة في الدّخول إلى مجال الإبداع الأدبيّ، كما لا توجد وصفة معيّنة نَصِفُها كما يصف الطّبيب الدّواء لمريضه؛ إنّما زمام الأمر كلّه، كما أسلفنا، في اشتغال بدئيّ مقدارُه مقدارُ ما يجعلك تتجاوزين عقبةً كؤوداً، واجتهادٍ متواصل مدفوع بشغف وحبّ، وكلُّ أمرٍ نُفخَ فيه من نفح الحبّ والعشق بَدَا في إهاب القداسةِ والجلال واستوى آيةً من آيات الجمال. والأدب إن عجز عن صناعة الجمال فهو إذن قلّةُ أدب...

ختاما، تقبّلي هذي السّطور من قارئ بسيط لا يعرف أكثر مما كتب، فإن وجدتِ فيه غَناءً فبها ونعمت، وهذه بُغيتُنا، وإلاّ فأهلُ مكّة مبثوثون في كلّ الشِّعاب يمكنهم إفادتك بما يعرفون، والآراء إذا تعدّدت أخصبت الفكر وأغنته، وحسبنا من الرّدّ ما قرأتِ، وبالله التوفيق في مسيرتك الدّراسية والإبداعية، والسّلام عليك ورحمة الله تعالى وبركاته.

27 مارس 2022

شكرا لَكُنَّ...

تشرّفنا اليوم بالحضور في أمسيّة تكريميّة خاصّة نظّمتها جمعيّة رُؤى المستقبل النّسوية للثّقافة والتّنميّة بالمركّب التّربويّ بقصبة الطّاهر (هامش من هوامش أيت ملّول)، وقد سعدنا كثيراً لما حظينا به من التفاته رمزيّة إلى جانب الباحث الأستاذ جليل والشاعر سعيد إدبناصر والفنان حميد إنرزاف والفنان محمد جمومخ والفنان لحسن تيزرت والفنان بلاّ عبد الصّادق.

لا نملك حقيقة إلاّ تثمين هذه الخطوة، خصوصا وأنها جاءت من نسوة بادرن إلى ما بادرن إليه، حاملاتٍ أثقال التهميش والإقصاء السّافر من كلّ برامج التّنميّة الجدّيّة القادرة على انتشالها من واقعها الذي بات - بحكم السّياسة- قدراً مستداماً.

فمن أراد إنعام النظر في معاجِزِ الله في خلقه، ومعجزاته في عزائم الصّبر، فلينظر إلى هذا المخلوق الذي عانى مكائد الرّجل وتحايُله على التّاريخ ليظفر بالعظمة والتفرّد... وإنّه لمن الإنصاف القول أنّ نجاحها الصّعب والشّاق أعظم من نجاح "الرّجل" السّهل في أغلب الأحيان، فالمرأة لكي تنجح في مجتمعنا " المريض" يجب أن تواجه ثقل التّاريخ والفهم السّقيم للدّين والأعراف والتقاليد والذكوريّة المتسلّطة والسّياسة وجُهّال الأسرة والعائلة والمناهج التربويّة وعلم النّحو والصّرف والإعلام والمطبخ والسّوق والعمل وتربية الأبناء... باختصار، نجاحها رهين بالخروج من عنق الحياة الضّيّق.

فشكراً لكنّ، لأنّكنّ تحمّلتن كلّ هذا من أجلنا، وإنّنا على يقين أنّكنّ أنفقتنّ من جيوبكنّ، بل، من مُخصّصات قوتِ عيالكنّ، كما نعلم أن المسؤولين قد أنشَدُوكنّ - كعادتهم - أشعاراً وخُطباً وأسطواناتهم المشروخة، فخرجتُنّ خاويات الوِفاض...

شكراً على حسن الوفادة وكرم الضّيافة، متمنّين لكنّ كلّ التوفيق والنّجاح...وتحيّة إجلال وإكبار لجمعية رؤى المستقبل النّسويّة فرداً فرداً.

21 ماي 2022

تفسير الأحلام !!

جاء رجل إلى محمد بن سيرين (ت 110ه) مستفسراً: رأيت كأن بيدي قدحًا من زجاج فيه ماء فانكسر القدح وبقي الماء، فقال له ابن سيرين: اتق الله فإنك لم تر شيئًا، فقال الرجل: سبحان الله، فأردف ابن سيرين قائلا: فمن كذب فما عليَّ؛ ستلد امرأتك وتموت ويبقى ولدها. فلما خرج الرجل قال: والله ما رأيت

شيئًا ! فما لبث أن وُلد له ولد وماتت امرأته !

لسنا بصدد إثبات الخبر ولا بإثبات كتاب "تفسير الأحلام" لابن سيرين أو لغيره، ولكن أتينا بالخبر من هذا الكتاب حسب سلطة التاريخ الذي يثبت ما يريد وينفي ما يريد؛ ولكننا وجدنا في القصة كلها نُكتة مرتبطة بواقع السبورة والطبشور وحكايتها التي لا تنتهي...

انقدح في ذهن السيد الوزير قبيل أيام إعداد برنامج تشاوري ينطلق من القواعد والأسافل، بعد أن كان الوحي يسقط من سماء الرباط كجلمود صخرٍ حطّه السّيل من علٍ ليتلقّاه كلّ نبيّ في غار حِرائه في السفح وعلى قُنّة الجبل...فلعلّ سياسة الهرم المقلوب تصنع المعاجز والله أعلم...

إن الوزير ليس بالرّضيع فاقدِ المُنّة والقوة ولا بالغِرّ فاقدِ الأهليّة ولا بالأعمى فاقد البصر... كي يغفل عن عورات المدرسة المغربية وعن أعطابها التي تعرفها حتى ضفادع المستنقعات !! ولكنّه في منصب يحتّم عليه إخراج برنامج ما... كتابة شيء ما... خَتم شيء ما... المصادقة على شيء ما... وضع اسمه على مرحلة ما ... المهم انتظار "غودو" وإن كان "غودو" غير موجود !!

جاءت " المشاورات " فردّد المجتمعون مستغربين عبارة أبي لهب: تباً لك سائر اليوم، ألهذا جمعتنا؟ فلو كان نبيٌّ في زمننا (اللهم غفراً) لأوحي إليه ب: " تبّت يدا الوزير وتبّ !!"...

قد يبدو لأول الأمر أن رجال التعليم قاطبة كائناتٌ مُمانِعة تدفنُ كل مبادرة قبل ولادتها، كائناتٌ تجيد مقاطعة كل تغيير لائح في الأفق... ولكن الحقيقة أنهم مدركون أن مصطلح " الإصلاح " أصبح عُملة تُصرف في كل ولاية انتخابية لإيهام الدّابة أن ثمة جزرةً على طرف الثُّمام سيحظى بها البطن عاجلاً... فلن يأتي يوم نقول فيه: إبليس عليه السّلام، أو مُسيلمة الصّدّيق ! وهذا من سلطة التاريخ، ولقد عرفنا تاريخ هذه الوزارة وعرفنا مبلغ إصلاحاتها، أما الكلام فمحض كلام والمذكرات محض حروف مضمومة ومجموعة رموز ميّتة إن لم تسندها إرادة حقيقية في التغيير...

أعجبتني مبادرة تشاورية أنزلتها إحدى الأستاذات في فصلها، فكان أن كانت الحقوقُ مجرّد " أحلامٍ " تأتي لحظة النوم/ أو في يقظة غير واعية، فالتلميذ بين مَدرستين دائما: مدرسة الواقع المغربي وبين مدرسة يلج فصولها حين يُرخي الليل سُدوله، أي في أحلامه الوردية الجميلة، التي تُغلق أبوابها في الثامنة والنصف صباحا...

مات ابن سيرين ولم يسعه تفسير أحلام تلاميذ المدرسة المغربية المفتقرة إلى ماء صالح للشرب وإلى مراحيض كحقوق نتحرّج من ذكرها في زمن بدأت بعض الدول فيها تدريس برنامج تلسكوب جيمس ويب - الذي تم إطلاقه في 25 ديسمبر 2021 بشراكة أمريكية كندية - في مقررات الفيزياء الفلكية...ولكن ثمة فرقا كبيراً بين تلميذ يحلم بمكان قضاء حاجته وآخر يحلم بزيارة المريخ ! وهذا حال كل وليد وُلد فاقداً أمّه، ورحم الله ابن سيرين رحمة واسعة...وتحية تقدير للأستاذة التي عرفت أين تنطلق المشاورات الحقيقية...

7 يونيو 2022

حديثٌ مِن أُفْكُوهة !!

قبل سنواتٍ ثلاثٍ تقريبا بعثتُ بورقةٍ -تضمّنت قراءةً في إحدى الروايات اليمنيّة- إلى إحدى المجلاّت المغربيّة منتظراً نشرها أو ردّ البضاعة إلى أهلها مُرفقاً بردٍّ "موضوعيّ لبقٍ" يحفظ دماء الوجه وكرامة المِداد المُسال على الورقة... بلغت الورقة بريد المعنيّين، فجاء الرّدّ كالآتي: تحية طيبة،

يتعذر علينا نشر مساهمتكم المعنونة بـ (...) ضمن مواد مجلة (...) لأنها مقالة انطباعية، تفتقر للمنهجية الأكاديمية.

قرأتُ الرّدّ بكلّ أريحيّة، وعدت رأساً إلى كلمتي " الانطباعية" و"المنهجية الأكاديمية" فطفقتُ أتساءل: أليست القراءة الأدبية، لأي عمل نثري أو شعري، في آخر المطاف سوى انطباعات ذاتية تشكّلها ثقافة المرء وطبيعة قراءاته، وأحيانا مزاجه؟؟ أليس العمل الأدبي "الواحد" يقبل ملايين القراءات إذا تعرّضت له ملايين العقول؟؟ ثم، هل يُحرّمُ على قارئ بسيط غير مدجّج بالقوالب الأكاديمية أن يبدي رأيا نقديا في رواية أو قصة أو قصيدة؟؟ هل الأكاديميون أنفسهم ينتهجون منهجية واحدة؟ هل يمكن مقاربة الأدب مقاربة فيزيائية بحيث تفضي مجموعة من المسببات إلى نتائج محسومة؟ ألم تتخلى الفيزياء نفسها عن اليقينيات بظهور مبدأ الرّيبة أو اللايقين على يد فرانز هايزنبرغ؟؟ هل ترتقي الحصاةُ قيمةً بوضعها في عُلبةٍ فاخرة؟؟

أمّا الأُفكوهة فتبدأ لمّا توصّلتُ بكتاب "الرواية في اليمن، تجديد وتجريب"، لتكبر الأفكوهة حجماً بعدما أكّد لي مُعِدُّو فصول الكتاب - وهم أكاديميون يمنيّون !!- أن مساهمتي أجودُ ما كُتب عن رواية(...) رؤيةً ولُغةً... هنا، قلتُ لأحدهم - بروح مازنيّة -: اعلم يا أستاذي أن ما مدحته للتوّ في اليمن لا يُساوي فلساً مزيّفاً في المغرب، لأنه "انطباعيّ" وفقير "أكاديميا" !! وأصبحت بَجَعَتي السوداء في بلدي بيضاءَ في بلدكم، فهل العيب في البجعة أم في اللون أم في العين الباصِرة أم في أكاديميات هذا البلد وذاك أم في الأدب نفسه؟؟ ولله في بَجَعِه شؤون...

فشكرا لكلّ من ساهم في إعداد هذا العمل وجعله يرى النّور، وسلّم الله أهل اليمن من كلّ سوء...

28 يوليو 2022

جِراءُ السياسة...

لا أملك من وسائل النقل إلا قدمين ودراجة هوائية، لكننا متضامنون مع من يكابدون غلاء أثمنة الوقود... وتحية خاصة أذكر بها كل الذين قلت لهم بُعيد الانتخابات الاخيرة: انتظروا الجحيم ! فجاء الواقع على قدر المخاوف...

إن من سلّم عنقه للسيّاف لا يبكي، ومن كان يصدّق البرامج التي لا تأتي إلا في ما يراه النائم لا يبكي، ومن صفعته كفّه لا يبكي...

كان أبراهام ماسلو يقول: " من ظن أنه مطرقة لن يرى من حوله إلا حفنة مسامير! "، وعليه، لن يرى التاجر إخوانه من الشعب إلا جماعات من الزبائن!

كان العربيّ قديما يصنع آلهته من عَجْوة تمر، فإذا جاع أكلها، وكان يصنعها كذلك من جَثْوة (كومة) تراب يخلطها بماء أو بحليب شياهه، حتى إذا جف الطين طاف حوله، منتظراً من طوافه المعجزات... هكذا تدحرجت كرة العقل البشري حتى صار البشر يصنع آلهة جديدة لكنها من لحم ودم، والسياسة ورشة فسيحة لصناعتها، إنما الفرق بين آلهة الأمس واليوم بادٍ وواضح... آلهة الأمس مأكولة وآلهة اليوم آكِلة... ويذكرني هذا بقصة الأعرابيّ الذي وجد جروا صغيراً في البطحاء، فرقَّ له، فجعله يرضع من حليب شياهه... كبُر الجرو وعَظُمَ حجماً وقوّة فصار ذئبا كاملاً، وذات يوم، وفي غفلة من الأعرابيّ، بقَرَ الذئب بطون الشياه ونال منها ما نال ومضى إلى حال سبيله...عاد الأعرابيّ فاندهش أمام مشهد دراماتيكيّ مؤلم... فأنشد قائلا:

فَرَسْتَ شُوَيْهَتي[1] وجُعتَ طِفلاً ونِسْـــواناً وأنتَ لهم رَبيـبُ
نشَأْتَ مع السِّخالِ[2] وأنتَ جَرْوٌ فما أدراكَ أنّ أبـاكَ ذِيـبُ؟
إذا كان الطِّـــباعُ طِـباعَ سَـوْءٍ فلا لبنٌ يفيـدُ ولا حـليبُ!

فاحذروا جِراء السياسة فيوماً ما ستفجعكم فيمن تحبّون، جاعلةً أيامكم كوميديا سوداء ... (مع احترامنا الكامل لمن ينصتون لآلام الشعوب اينما كانوا).

18 يوليوز 2022

1- الشويهة: تصغير الشاة.

2- السخلة (السّخال): صغير الشاة.

توضيح وبيان (أُمَّاتٌ وأُمّهاتٌ)

استوضَحَنا أحد الأفاضل عن جمع كلمة (أمٌّ)، قاصدا الجمعَ (أمّهاتٌ) بزيادة (هاءٍ) غريبةٍ دخيلةٍ لم يرد لها ذكر في الاسم المفرد (أُمٌّ) ! فكيف ينسلك هذا في الذهن؟ ولتعميم الفائدة نبسط القول في المسألة ههنا علنا، لعلّنا نجد، ممن هم أوفر حظا منا علماً ومعرفةً، من يسدّد رأينا بالإغناء أو بالتصويب...

أما قبل، فإن من تعقّب لغة العرب وجدها لغةَ قبائلَ وتجمعاتٍ بشريّةٍ- فرضتها جغرافيا الصحراء- اصطنعت لتفاعلاتها اللغوية ألسُناً تسالمت حولها، فتجد الصغير يرث لسان أبيه وأمّه جملةً، وهكذا دواليك... ولقد ذكرت المعاجم وكتب النحو واللغة والقراءات القرآنية ما يعادل سبعة ألسن/ لغات محكيّة فصيحة، وهي لغة قريش وهذيل وتميم وثقيف وطيء هوازن واليمن، ومنه يكون نزول القرآن على سبعة أحرف إشارةً إلى سبع لغات متداولة لحظتئذ؛ أما مظاهر اختلافها فيمكن اختصارها فيما يلي: الجانب الصوتي (نطق الكلمة صواتيا) ؛ الجانب الصرفي (بنية الكلمة)؛ الجانب النحوي (بناء الجملة وتركيب عناصرها)؛ الجانب الدّلالي (معنى الكلمة). فصار لكلّ قبيلة قانون لغوي مؤسس بالسليقة قبل أن تختلط القبائل وتتمازج الألسن، فبدأت سيطرة لغة قريش بعد ذلك لريادتها الدينية بنزول القرآن فيهم...

وبعد، فقد نطقت العرب (أُمّاتٌ) ونطقت (أمّهاتٌ) على السّواء، فنجد الرّاعي النُّميريّ يقول:

كانتْ نجائِبَ مُنْذِرٍ ومُحَرِّقٍ أُمّاتُهُنّ وطَـرْقُهُنَّ فَحـــيلاَ

وذا الرُّمَّة قائلا:

لنا وَلَكُم يا مَيُّ أَمْسَتْ نِعاجُها يُماشِينَ أُمّاتِ الرِّئالِ الحَواتِكِ

وأبا حنبل (مُجير الجراد) قائلا:

لقد آليتُ أغدِرُ في جَدَاعٍ ولو مُنِّيتُ أُمّاتِ الرِّبـاعِ

ولعلّنا، بملاحظة بسيطة، سنجد الشعراء الثلاثة قد ربطوا (الأُمّات) بالنجائب، وهي خيار الإبل والخيل، وبالرّئال، وهي فراخ النعام، وبالرّباع، وهي ما وُلد من الإبل في الربيع؛ مما يؤكّد أن جمع (أُمّاتٌ) من (أُمٌّ) يوظّف حين يتعلّق الأمر بمفرد (غير عاقل)، لكن ابن خالويه في كتابه "ليس من كلام العرب" يذكر أن جمع (أمّات) يجوز لمن يعقل ولمن لا يعقل.

أمّا جمع (أُمَّهاتٌ) - والهاء أصليّة في الكلمة كما جاء في شرح المفصّل للموصلي - فمنه هذا اللسانُ الشائعُ بين الناس، ومنه لسانُ (إمَّهاتٌ) ولسانُ (إمّهاتٌ)، والمفرد (أُمّهةٌ) و(إمَّهَةٌ) و(إمّهَةٌ)، ومنه قول قصيّ بن كلاب:

عِندَ تَنادِيهِمْ بِهالٍ وَهَبِ أُمَّهَتي خِنْدِفٌ والْيَاسُ أَبي

وعلى هذا اللسان سارت لغة القرآن مكتفيةً بلسان (أُمّهة / أمّهاتٌ) دون أية إشارة إلى لسان (أمٌّ / أُمّاتٌ)، وعليه قد غلبت (الأمّهاتُ) في الناس و(الأمّاتُ) في البهائم غير العاقلة كما جاء في المقتضب للمبرّد وتُجُوهِلَ كلامُ ابن خالويه !

لكن، وإن قضى اللغويون والنحويون أقضيتهم وصفقوا الأبواب بأوجهنا، فإننا لا نستروح لهذا "الحُكم" النهائيّ في المسألة، والرّأي عندنا - والعلم لله- أن المسألة مسألة تفاوت أنسابٍ وأقدار ألسنةٍ إزاء أخرى. فالراعي النُّميريُّ من قبيلة بني نُمير، وهم أبناء نمير بن عامر بن صعصعة؛ بطونهم غير مشهورة إلاّ بطن الحارث، وقد أُسقط ذكر نمير بعدما أصابهم هجاء جرير... أما ذو الرُّمّة فتميميّ من بني تَميم، وهم قبائل سكنوا نجداً والبحرين، يمتد نسبهم إلى إبراهيم الخليل... وأبو حنبل طائيٌّ من طيْء، وهي قبيلة يمنيّة استقرت فلولها في الحجاز بعد سيل العَرِم، ولولا حاتم الطائيّ ما خُلّد ذكرها...

أما قصيّ بن كلاب فقُرشيّ النّسب، ومادام القرآن قد نزل في قريش، كان لزاما إيثاره اللسان العربيّ القرشيّ على ألسن الأرض كلها، فاقتصر على جمع (أمّهات) دون جمع (أمّات) المهجور، وفي هذا إشارة إلى قول ابن خلدون: " إن غلبة اللغة بغلبة أهلها، ومنزلتها بين اللغات صورة لمنزلة دولتها بين الأمم"...وفي هذا القدر غُنْيةٌ وكفاية.

22 يوليوز 2022

تهنئة خاصة

أما قبلُ، فإنّ من واجب المرء على صديقه وأخيه تهنئته على فضلٍ ومِنّة حباه الله بهما، بل، هو فرضٌ من فروض المروءة وتقدير الناس وتبويئهم مثاباتهم وأقدارهم؛ وإنّ من السّنن ومن توازن الطبيعة أن توجد الحبّةُ من رملٍ وغبارٍ والحصى والحجارة والجراوِل والجنادلُ والصخور والجلاميدُ وكلها تراب في آخر المطاف؛ كما كان الناسُ أقداراً- وسيظلون كذلك- وكلّهم شحم ولحم ودم، ولمّا تشابهوا في مادّة خَلقهم اختلفوا في حصائد عزائمهم طرائقَ قِدَداً.

وبعد، فبعض الناس لا يليق أن نهنّئهم في حيّزٍ ضيّقٍ من هذا الفضاء الأزرق، إنما يليق بشأنهم أن يقعد الرجل كما كان المنصور بن أبي عامر يفعل على أبواب قرطبة، غامسا القلم في محبرته، مالئاً كواغد المهنّئين، منتقياً ومنتخباً من العبارات أجودَها ومن المعاني أخلَبَها للُّبّ... وأستاذي سعيد جليل من أولئكم الذين يستحقّون عُرْعُرَةَ البيان والبلاغة وذروةَ سنامِهما، غير أنّي لست ابن أبي عامر في جودة مسطوره، فليعذر المُهَنّأُ تقصيرَ المُهَنِّئ... أوّلاً لما ذُكر، ثانيا لأنني آخر المهنّئين، وأجد هذا من خوارِم ما بيننا من صحبة وأخوّة، فاعذر أخاك لأنّ الله خلق له جهنّمَ على هذه الأرض لا تتركه يشكر وقت الشكر ويهنّئ وقت التهنئة ويُعايد وقت العيد... وتَعَبٌ كلّها الحياة !!

فاهنأ أستاذي بتخرّجك من مركز تكوين مفتشي التعليم، معزّزاً مسارك الأكاديمي والعلمي والمعرفي، وهذا تحصيلُ حاصلٍ، فأنتم من أهل الكتاب ومن قرّائه المتمرّسين، كما كنتم ولازلتم باحثا رصينا في الثقافة الأمازيغية، أما إذا تنادى القوم وتصايحوا بعِلْمِ " الرّوايس "، وجدوكَ ابنَ بَجْدَتِها وفارِسَ حَلْبَتِها وعَلَمًا من أعلامه... وهنيئا لمن ستكون مؤطِرهم ومُفتيهم في شؤون التربية والتعليم... وأجدّد اعتذاري لكم أن كنتُ في ذيل المهنّئين... داعيا لكم بدوام الصحة والعافية والتألّق البحثيّ العلميّ...

تلميذكم الجالس في آخر الطابور...

إبراهيم أوحسين

27 يوليوز 2022

تجديد ذكرى محمود شاكر...

في السابع من غشت/ أغسطس من سنة 1997 اختارت الأقدار صاحب "المتنبّي"، علاّمة الكِنانة محمود سعد الدين محمد شاكر، لتودِعه عالَما غير عالَمنا، فسُجِّيَ عالِمٌ عَرَفَ من أسرار اللغة العربيّة القدْرَ الأوفى، وقد امتحنتْهُ شاعراً فأجاد، وامتحنته أديبا ناقدا فأشارت إليه الأصابع بإفراد، وامتحنته مُحقّقا نصوص التراث فأبْدَأَ في عبقريته وأعاد... ولا أظنّ السّجْعات تنتهي في حق هذا الرّجل.

أتذكّره اليوم رمزا للأنفة وللكبرياء والتصالح مع الذات، غير عابئ بما يحيط به من نسخ بشرية متشابهة تحمل نفس العقل ونفس أنماط التفكير، وهو الذي قلب سيرة المتنبّي رأسا على عقب، آتيا فيها بما لم يستطعه الأوائل... ومن باب الأنفة ما حدث له، حيث كان محمود شاكر مدعوّا ضمن وفد من علماء العالم الإسلاميّ إلى المجالس العلمية المقامة في حضرة الحسن الثاني. هيّأ شيخنا بعض كتبه مُجَلّدَةً تجليدا فاخراً لتقديمها هديّةً للملك...استعدّ وسافر.

عند دعوة العلماء للسّلام على الملك أمسك شيخنا كتبه لتسليمها يداً بيد، لكنه يُفاجأُ أن المراسيم السلطانيّة تمنع ذلك جرياً على بروتوكولات الزيارات الرّسميّة. اختلف شيخنا مع المشرفين على المراسيم الملكيّة فقرّر تنحية كتبه جانبا مادام ممنوعا من تسليمها بنفسه، ودخل للسلام على الملك بغير هديّة!! فلما أنهى لقاءه وجد أمامه حافلات لنقل الضيوف من أهل العلم فقال: "إن من إكرام العلم إفراد سيارة خاصة لكل عالِم.".

رحم الله هذا الرجل عالماً علّمنا كيف نقرأ وكيف نكتب وكيف نصمت في حضرة الجمال...

7 غشت 2022

تَكَشَّفَ أمرُهُ عند النهيقِ !!

كأن عجائب الزمان لا تريد أن تنقضي، وفي كلّ زاوية من قاع الذاكرة شجاً يبعث في النفس الشجا، ومازالت رودانةُ تفاجئني بتاريخٍ من الذكرى حافلٍ بأحداث بعضها تنطقُ فخراً وبعضها يحفرُ قبراً !!

مما عثرتُ عليه بين أوراقي القديمة، خاطرةٌ كنتُ قد كتبتها لمّا ابتُليت مؤسستنا آنئذٍ بمديرٍ أساءَ فيها التصرّف، مبدعاً في تشتيت أوصالها، ضارباً شرقها بغربها، فاعلا فيها فعلة الثور في مستودعِ الخزف... ولعلّ زملائي في ذاك العهد يتذكّرون "هجرتنا" الجماعية إلى نيابة تارودانت لتوقيع محضر الخروج بحضور النائب الإقليميّ... مع رفع القبعة طبعا لكلّ من عملنا معهم، ممن كانوا يحترمون عملهم وزملاءهم، أما الاستثناء فلا تُبنى عليه القاعدة... وأنشر الخاطرة كما كُتبت في ذاك العهد، ولتُقرأ في سياقها الزمني الطافح بالتوترات، فقد مضت الأحداث وبقيت الخاطرة... وعفا الله عما سلف... وهنا تبدأ:

بسم الله الرحمان الرحيم

لقد دأبت يد الله أن تخلق الإنسان في أحسن تقويم، فسارعت الأقدار إلى أن تبتلينا بمن خُلق في أسوأ تقويم، فإن كان هذا المخلوق ممن يدخل في دائرة التقويم الأحسن، فإن عقولنا إذن أصابها عيٌّ وخَبَل، فيكون كلّ مسطولٍ معتوهٍ وكلّ حَيْزَبُونٍ داهيةٍ ممن يشملهم صكُّ "التقويم الأحسن"... فكيف ينسلك هذا في الذّهن وتقبله الفطرة؟

إن من الناس من أتعبوا علماء النفس في تفسير تصرفاتهم وسلوكاتهم، بل أتعبوا علماء التاريخ الطبيعي ومادَرَوْا أين يضعونهم في سُلّم التطوّر؛ مع صنف السَّهْلَنْثْرُوبُوسْ (الرّجل الألفيّ) أو مع الأُوسْتْرَالُوبِيتِكِسْ أو مع الهُومُوهَابِلِيسْ أو مع النيانْدَرْتال... وبَعُدَ أن يكون من صنف الهُومُوسَابِيِنْزْ(الإنسان العاقل) يقيناً بلا ترجيح...

لا أعرف كيف تغامر الوزارة الوصيّة بجعلها على رأس مؤسساتها أمثال هؤلاء، بشرط أقدمية في التدريس، وماكانت الإدارة في العالم بأسره من جنس التدريس، ولياقاتٌ يحتاجها المدير غير لياقات مدرّسٍ، وإن كان هذا الأخير كذلك مدعوّا إلى إدارة من نوع خاص في فضائه الصغير...فهبْ أن مدرّسا أمضى عشرين عاما في حُمقه - مع احترامي للعقلاء- فصار على رأس

مؤسسة بضربة قَدَرٍ، ألاَ يُعادِلُ هذا عشرينَ أحمَقَ ينبغي أن تتحمّل حمقهم دفعة واحدة؟ أليس هذ القدر من الحمقى كافيا لإقامة مستشفى بحياله للأمراض العقلية؟

أمّا تراكم السنين من عمر المرء فلا يصنع الخبرةَ قطّ، وإن الخبير في النّجارة لا يكون خبيراً بتراكم سنوات عمله في الحدادة وفي دبغ الجلود... تماما كمن أراد إخراج فَصٍّ من الألماسِ من جبلٍ من المِلح !! ولله درّ إبراهيم اليازجيّ قائلا:

تَعَـجَّبَ قَومٌ مِـــن تَأَخِّرِ حالِنا وَلا عَجَـبٌ من حـالِنا إن تَأَخَّـــرا

فَمُذ أَصبَحَت أَذنابُنا وَهيَ أَرؤُسٌ غَدَونا بِحُكمِ الطَبعِ نَمشي إِلى الوَرا

فيا رُدانَةَ الخير قد قصَفَتْكِ الرّباطُ بكلّ معتوهٍ سخيفٍ وبكلّ عربيدٍ قَروفٍ، ووالله لو تخابثَتِ الأممُ، وأتت كلّ أمّة بخبيثها، وأتينا بمثل هذا لوحده لغلبناهم أجمعين! لك اللهُ إذن - إن لم يتغيّر الحال- يا مؤسساتنا التربوية أينما بسطت سلطانها على هذه الأرض من الوطن، ولك الله ما ينتظرك من أشباه بشرٍ سيأتونك ب 100 " حُمْقِغْرادْ " من الحمق والعته والجهل... وهذا كلّه:

لأنَّ الخيْلَ قد قَلّتْ، تحلّتْ حميرُ الحيّ بالسّرْجِ الأنيـقِ

إذا ظهرَ الحمارُ بـزِيّ خـيْلٍ تَكَشّفَ أمرُهُ عند النّهيــقِ

ملاحظة: هذه خاطرة قديمة لها أسباب نزول ولا علاقة لها بما نحن فيه اليوم، مع إكبارنا وتقديرنا لكلّ مديري المؤسسات الحقيقيين أينما كانوا في هذا الوطن...

12 غشت 2022

احذر ضياعَ مطرقتك!

في مثل هذا اليوم، الخامسِ والعشرين من أغسطس/ غشت سنة 1900 غادر فيلسوف ألمانيا العظيم فريدريك نيتشه الدنيا، تاركاً خلفه إرثا فلسفيا، استطاع من خلاله إعادة التفكير في مسلّمات تدحرجت على سفح التاريخ حتى تعاظمت اليومَ حجماً واشتدّت بأساً، فما كان من فيلسوفنا إزاء ذلك إلاّ أن أخَذ مطرقته الشهيرة le marteau de nietzsche) ، محطّما كلّ مسلّمة لا تناسب عقل العصرِ وفلسفته، مُحطّماً أصناماً صنعها العقل فجعلها آلهة تبتلع كلّ شيء !! فما أحوجنا إلى مطارق نيتشه في مجتمع تجاوزت فيه أعداد الأصنام أعداد البشر...

سرّني اليوم اللقاء بالروائيّ الشابّ أستاذي يوسف نجيب، بعد صدور روايته الثانية "فرسانُ حَبَقُوقَ"، بعد نجاح روايته الأولى " الثلاثة ". يوسف من ثمار التعليم الأصيل بالمدارس العتيقة وأستاذٌ فيها كذلك، وهذا المُعطى لوحده كافٍ ليقول لكلّ كاتبٍ، يرى نفسه آلهة، قول الله تعالى: " يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ "... ولكنّه ممن يستأنسون بالليل وبظلمته، ولولا محادثتهُ إياك لمْ تَرَهُ!!

الأستاذ يوسف ممن ملكوا ناصية اللغة إن عَمَدوا إليها عَمْدَ عَيْنٍ، وهذه إحدى حسنات المدارس العتيقة، وهو كذلك ممن يجيدون صياغة المتن الروائيّ، منشئا فيه على نهج يخالف السّواد الأعظم من الرّوائيين الذين أصبحوا أشباها ونظائرَ كالمرايا المتقابلة...ولعلّ من اقترأ "الثلاثة" وثنّى بـ"فرسان حبقوق" سيدرك تماما أي روائيّ هذا الشابّ الذي يحمل مطرقة كمطرقة الألمانيّ، محطماً أساليب الكتابة المعروفة...

أما بعد، فلك كل الشكر على ما منحتناهُ من شرف قراءة أعمالك الجيدة وهي حبرٌ سائلٌ لم يجفّ بعد، واعلم أنك في الطريق الذي تصير فيه يوماً روائيا عالي الشأن، تُثْنى به الخَناصِرُ كما يقول العرب... واحذر أن تضيع مطرقتك!

فـ:

ما ابيضَّ وجهٌ باكتسابِ كريمةٍ حتّى يُسـوّدَهُ شُحُوبُ المَطْلَبِ

26 غشت 2022

البردّوني وعقدةُ المظهر !

في مثل هذا اليوم، الثلاثين - وقيل الحادي والثلاثين- من أغسطس/ غشت سنة 1999، غادرنا فارس شعراء اليمن في العصر الحديث بلا منازع عبد الله البردّوني، الشاعر المكروث بالجدري في خَمْسِهِ الأولى من عمره، فانطفأت عيناه صغيراً، فانضمّ إلى المعرّيّ وبشار بن بُرد وجمال الدين الصّرصريّ وأبو بكر المخزوميّ وعليّ بن جَبَلة وآخرين.

عاش البردوني بسيطا، ككلّ أهل اليمن البسطاء، ولم يكن ممن يحفلون بمظهرٍ في لباسٍ ولا وسامةٍ في وجهٍ؛ والحقيقة أن دمامة الوجه من سوء العاقبة في المجتمعات العربية الحديثة المتخلّفة، فمن كان حظ وجهه كحظّ بشّار بن بُرد أو أبي عثمان بن بحر(الجاحظ)، أي بلغة العصر، لا يملك وجها إعلاميّا يسرُّ الناظرين؛ يُمنع من العمل ويمنع من الحبّ ويُمنع من المشاركة من تجمعات المحظوظين بجِلْدَةِ رأسٍ منظّمة التقاسيم والملامح ! إلاّ إذا كان ذا مالٍ فائض، حينها يكون في جمال يوسف بن يعقوب...

عانى البردوني من هذا الأمر (الإلهي) مرارا، وقد تحدث غير مرة عن أولئك الذين يزِنون الناس بوجوههم ومقدارها من الوسامة وتناسق المظهر، ولولا عبقريّةٌ أصابها من الشّعر ما كان إلا جنديا من جنود سعدٍ (جنود سعدٍ كنايةٌ عن الحشرات في لغة العرب)، أو سقْطَ متاعٍ في أفضل الأحوال، أو تُقرأ عليه آياتٌ من عَبَسَ والسّلام: "وجوهٌ يومئذٍ عليها غَبَرَة، ترهقها قترة، أولئك هم الكفرة الفجرة"! وقد احتُقر البردّوني واستُصغر - ولم يكن حينها معروفا- في مهرجان الموصل بمناسبة مرور ألف سنة على وفاة أبي تمام، وفي المهرجان الجواهري والبيّاتي وعبد المعطي حجازي ونزار قباني، حتى قيل: ماذا سيقول هذا بعد "الكبار"؟ وقد قال رحمه الله:" لما رأوني بدأت الكراسي تتحرك، وبدأ الناس يخرجون، وأنا بدأت أقرأ قصيدتي، ولحسن الحظ كان هناك مايكروفونات وسماعات إلى الشارع، ولما سمعوا وهم في الشارع عادوا، وسمعتُ ضجيج الكراسي ثانيةً، ثم خيَّم على القاعة سكون المقابر..."؛ فكان أن ألقى قصيدته العظيمة " أبو تمام وعروبة اليوم"، وفيها قولهُ، إشارة إلى موضوعنا:

(حبيبُ) هـذا صـداك اليـوم أنشـده لكن لماذا تـرى وجـهي وتكتـئب؟
ماذا؟ أتعجب من شيبي على صغري؟ إني ولـدت عجـوزاً .. كيـف تعتجبُ؟
واليـوم أذوي وطـيش الفن يعزفني والأربعـون عـلى خـدّيَّ تلتـهـبُ
كـذا إذا ابيض إينـاع الحيـاة عـلى وجـهِ الأديـب أضاء الفكـرُ والأدبُ

وهذا نزار (ذو الوجه الصبوح) جاء معتذرا من البردوني، فقال البردوني: من أنت؟ أجاب الآخر: أنا نِزار (بكسر النون)، فعقّب البردوني: قلْ نَزار (بفتح النون) وليس نِزار (إشارة إلى أن "نَزار" اسم علم و"نِزار" اسم قبيلة)؛ حينها عرف السيد نزار أن الوجه الصبوح وربطة العنق والبدلات الأنيقة قشور لا يمكن الاحتيال بها على الكبار !

وفي نفس السياق، تعرّض عبد العزيز الكِناني الملقب بالغول لدمامة في وجهه، صاحب كتاب " الحِيدة في الرد والاعتبار على من قال بخلق القرآن"، وفيه إشارة إلى مناظرته الشهيرة مع المعتزلي بِشْرٍ المَرِيسِيّ، وليُفحِم الكنانيّ الحاضرين قبل المناظرة، ارتباطا بدمامة الوجه، طرح سؤالا على الجميع، قائلاً: أرايتم إذا جاء عيبٌ في الجِصّ، هل نعيب الجصّ أم صانع الجصّ، هل نعيبُ المصنوعَ أم الصانع؟ ومنه، هل تعيب الخَلْق أم الخالق؟ فترك الجميع ذاهلين لأن مجرّد التفكير في الجواب سيفجّر أدمغتهم !

ولهذا الموقف مثال آخر نختم به، وهو موقف العلاّمة السوداني عبد الله الطيب المدعو من طرف طه حسين في حفل افتتاح مجمع اللغة العربية سنة 1957، لكن الحضور استخفّوا به لمظهره السوداني البسيط وزيّه التقليدي، حتى قيل - في بعض الروايات- من هذا الهلفوت؟ وقد صرّح الطيب بقوله:" زعلت زعلاً شديداً من احتقارهم لي، لدرجة أنهم يرفضون الردّ على السلام والسلام سنة والرّدّ فرض"؛ فما كان من عبد الله الطّيّب إلاّ أن خاطبَ الجموع بلغة العصر الجاهلي ارتجالا دون أوراق كما فعل سابقوه، حتى تدخّل طه حسين فطلب من الطيّب أن يُخاطب الحاضرين على قدر عربيتهم البسيطة وعقولهم التي لا تصل إلى هذا المستوى العالي... فألقى العلاّمة ما في يمينه لتَلْقَفَ ما صنعوا، وبُهت الجميع من السودانيّ المُعَمَّمِ الذي علّمهم أن العِلمَ مصباحُ البدن وليس الوجه كما عارضات الأزياء !

وما شاعرنا البردّوني إلاّ توقيعٌ من يد الله على صحائف السماء، ولايزال من آيات الله في خلقه أن يجعل كِبارَ الأفعال لكبار الأسماء، وهو لعمري بحجم بلقيس في سبأ، فقد كان شِعره رعداً في النفس وبرقاً في القلم ومطراً مازال يسقي تاريخ اليمن... رحمة الله عليك يا عظيما لم يحفل يوما بوصايا المرآة...

30 غشت 2022

حديثُ صورة... (1)

أنصتْ يا بُنيّ، فإني مُلقٍ عليكَ قولاً ثقيلاً، وإنّي مُحدّثكَ حديثا يُشفي نفسك من التطلّع للخبر، ويفتحُ عليكَ أبوابا من العبرة والموعظة كأنما أنت شاهدٌ أمرَها... ولمّا أحسستُ بدنُوِّ القبر والأجل، آثرتُ أن أخصّكَ ببعض ما شيّبَ هذا الرّأسَ شيْبا، وما كانَ الشيبُ يوما أمراً عَيبا، وهو زاحفٌ إليكَ لا شكّاً ولا ريْبا...

وما شيبُ رأسي من سنينَ تَطاوَلَتْ عـليَّ، ولكـنْ شيَّبتـني الوقـائِعُ

أي بُنيّ، لا تختبِر عربَتَك على الإسفلتِ المُعبّد والطّرق المُمهّدة، فكلّ ما من شأنه التّدحرج يمكنه الانتقال بكلّ سلاسة عليها دون أدنى حريجة ولا إبطاء، حتى أن العربَة ستظن الأرضَ خالية من كلّ وُعورةٍ تحبس عجلاتها وأنفاسها !

اختبر إذن عربتك على الأرصفة والطرق الوعرة، على الحصى والصخور والجنادل والجلاميد حتى... فإن عبرتْ بكَ السفوحَ والجبال فالأحرى أن تعبُرَ بك السهولَ والوِهاد؛ حينها يمكنك القول: إني أملك عربة !

وكذلك شأن المرءِ مِنّا والنفسُ فيه كُلّما رماها الدّهر بشدائدِه وحشد من أجلها كلّ قواصِفِه، رأيتها تتأرجح بين القوة وبين الضعف، حتّى تقوى على ردّ الضربات ودفعها، والحكمة في جملة ذلك أنها تعلّمت حِيَلَ الدّهر فقويت وأصبحت نِدّا لنِدٍّ... فلا تُريحنّ نفسكَ إلاّ إذا بلغت مبلغ الرّاحة، ولا تجعلنّها تميل إلى اللين ودلالٍ من الحياة، ألم ترَ أن بلح البحر لولا خشونة الجُرْف لفَقَدَ موطِئَ حياته؟ فلا تكنْ نفسك من صُويحِبات القصعة والثريد، فقد

خَلَقَ اللهُ للحروبِ رِجالاً ورجـالاً لقصْعَـةٍ وثَريدِ

ولك منّي تسع وعشرون حديثا جائياً إذا أمهلنا القدر يا بنيّ... وهذا أولها.

25 شتنبر 2022

حديث صورة (2)

أي بُنيّ، هذا حديثي الثاني إليك، فلا تُلْقِهِ دَبْرَ أُذُنك ولا تستهن به، فإنّ أبوابَ النّدامة مُشرعةٌ على ما يُرى هيّنا مُحتقَرًا، وإن معظمَ النّارِ من مُستصْغَرِ الشَّرَر...

ويأتي عليكَ زمنٌ تبحثُ فيه عن العَجَب فلا تجده وإن قصدتَ أبراجَ السماء أو أفلاكَ الفضاء الوسيعْ، أو حفرتَ في أطباق الثّرى ولهثْتَ خلفَ سرٍّ في النّباتِ والحيوانِ مَنيعْ؛ فتجده ثاويًا بين جنبيك، يُحادثُك كلّ صباح ومساء. إنّما العَجَب هو ذاتُهُ صانع العجائبِ والباحثُ عنها... هو الإنسان يا بُنيّ !!

كائنٌ لو وَزَنْتَهُ زِنَة الحيرة حِرتَ فيه والِداً وما وَلَدْ، ولو وَزَنته على ميزان التناقض والتّضادّ ما وجدتَ أغرب منه إلى الأبَدْ، فهو الخيرُ والشّرّ يعْدو أحدهما على الآخر عدْوَ الذّئاب على مَن لا كلابَ له ولا عِزْوَة؛ وهو العَتمةُ والنّورُ يتلاعنانِ في جوفه تلاعُنَ الأمم والدّول على هذه البسيطة، حيث تدّعي كلّ واحدة الحقّ لنفسها؛ وهو الضّعف والقوّة يتناوبان فيه تناوبَ الليل والنهار، لا يأفُلُ هذا حتى يطلّ الآخر بقرنه، وكلاهما ردّةُ فعل حيال المواقف والأحداث؛ وهو الحرّيّة والاستبداد متعانقان في كيانه تَعانُقَ اللام والألف في الحروف الأبجديّة، فتراه يجمعُ إلى حرّيّتِهِ، مزهوًّا بها، استبدادَه وتعسُّفَهُ على مَن دونه مزهوّا بهما زَهْوَ المنتصر؛ وهو الجهلُ والعِلم متصالحان في تجويف جمجمته تصالُحَ الفئران والقطط إذا عبثتْ بفطرتها يدٌ ماكرة، ولعلّك واجدٌ عالِمَ ذَرّةٍ يتّقي الأرواح الشرّيرة بحذْوةِ حصان !! وهو الغِنى والفقر مجتمعيْن في جيبه وقلبه يترصّد أحدهما للآخر على غِيلَةٍ وغفلةٍ؛ وهو الإيمان والإلحاد جنبا إلى جنب، فهو الملحدُ في هَدْأةِ اللّيل والعابدُ المُتنسّك في واضحة النّهار، وقد قال القائل:

إذا حَوَّلَ الظِّلَّ العَشِيُّ رأيتَهُ حنيفًا، وفي قَرْنِ الضُّحى يتنصَّرُ !

وهو الحاضرُ والماضي ينظر الواحد منهما إلى الآخر فيُنكِرُه، لكنّه قادرٌ على الجمع بينهما كما تجتمع الضُّرَّتان تحت سقف بيت واحد؛ وهو العقل يجمع الأمر ونقيضه دون أدنى حريجة، خاصة إذا انقادَ وذَلَّ لغرض أو لمصلحة، وأنتَ أدرى بالذي مَدَحَ الباذنجان وذَمّه في نفس الآن، لأنّه نديمُ سُلطان وليس نديمَ باذنجان ! أمّا إذا أَقَمْتَ خواجَ القلبِ إزاء نوازع العقل رأيتَ رأس العجَب، إذ لا يطمئنّ القلب إلى خاطِرة أو سانحةٍ حتى ينقُضها العقل ويهدمها، ولا يقتنع العقل برأي حتى يحشُد القلب كلّ المَدْحَضَاتِ أمامَهُ تَتْرى فيموت الرّأي في مهده، حتى تتدخّلَ الأوهامُ

فتجعَلَ الأبيضَ أسودَ والأسودَ أبيضَ، فيُقبل المرء على الأمر وإن كان بعدئذ جارّا العقابيلَ مجروراً بها...

أخيراً يا بنيّ، دونَكَ الإنسانُ -الذي أشْكَلَ على الإنسان- مُرَكّبًا من كيمياء عجيبة تجمع الشيء وضدّه، كأنه القنّينة التي يمتزج فيها ماء الورد بماء النّار من حيثُ لا يمتزجان ! وإلى حديث مُقبل بحول الله...

2 أكتوبر 2022

حديث صورة (3)

أي بُنيّ، هأنذا عائدٌ إليك ببعضِ حديثٍ سطّرتهُ على الشيبةِ التجاربْ، وملأتْ منه الدنيا أكياساً من العجائبْ، وقد عرفتَ العَجَبَ في كلّ خلقٍ خرج من بينِ الصُّلْبِ والتّرائبْ...

أي بنيّ، إن من مَقُولِ العرب أنّ مَنْ سابَقَ الدّهر كَبَا ألْفَ كَبْوة، وعليه نزيد أن من خَفّ لسانُه هَفَا أسوأ هفْوة،فإن أطلقته بلا عنان فهو لكَ نَجْوَة، وإن أحْكَمْتَ مَقادَتَهُ فهو لك عِزْوَة وثروة...

وبعد، فاللسانُ جارحةٌ ذات سطوةٍ وسلطان في الاجتماع البشري، وهو إلى جانب ذلك مصدرُ رهبة ومَبعث دهشة إذا أسْمَعَكَ مُترجِمًا أسرار الخاطر وبواطن النفوس بحُسن بيان، مُجيداً انتخاب اللفظ وانتقاء العبارة، ساحرًا الأسماع، فاتنًا الألباب حتى تُسْتَمال، فتستسلم للقول صدقًا كان أو زيْفًا؛ وإن كلَّ كلامٍ أُحْكِمَتْ صَنعتُه وأُجيدَ سَبْكُه صارَ كالدّينار مُتْقَنِ التزييف، يصعُبُ رَوْزُهُ وإطلاق الحُكْم فيه!

هذا صدر الحديث أما عُجُزُهُ فدَعْوَتُكَ إلى كبح جِماح هذه الجارِحة ما وسِعَك الأمر ولم تَدْعُكَ إلى إنطاقِها ضرورة مُلِحّة؛ فإنّي لم أرَ جارحة في الإنسان كاللسان ينقُص قدْرُها كلما امتدّ عملها في الزّمن، ويكثُرُ غلطها كلما ادّعتْ لنفسها النطق بالصّواب، واللسان قليلُهُ كثيرٌ ومصلحَة، وكثيرُه قليلٌ ومَفْضَحَة، وقد أُفسدَ القول حتى أُحمد الصّممُ...

اعلم يا بُنيّ أنّ الصّمت في موضِعه لعلّه كان أنفعَ لك من إبداء الحكمة في غير موضعها، فتَحَيّن كلّ فرصة تجودُ عليك بالصّمت والإنصات لحواسّك وصوتِ سِرّكَ ومخبوءِ خاطِرِك، ولا تعتبِرَنّ صمْتَك عِيًّا ولا رهبةً ولا قلّة رجاحة عقلٍ أو عَجْزا عن الإعراب والإبلاغ عمّا في النفس لغةً أو رمزًا، ولكن اعتبرْهُ زُهدًا في اللّغط الطافِح على الآذان صباحَ مساءَ، وفي ضجيج قلّ نفعُه وإن أُحسِن صُنعُه؛ وإنّك، يا رعاكَ الله، لو عرفتَ فضائحَ المتكلّمين في كلّ خضراء، وهذْرَ الألسنة بالخُطب البتراء، لأطبقْتَ فكّيكَ واعتصمتَ بحبل قولِ القائل:

وجَدْتُ سُكــوتي متجرًا فلـزمتُهُ إذا لم أجدْ ربحًا فلستُ بِخاسِرِ

وما الصّمْتُ إلاّ في الرّجالِ مُتاجِرٌ وتاجرُهُ يعلو على كلّ تاجِــرِ

وبعد، فقد زادَ صوتُنا بكثرة الصناعة في الكلام حتى جاوزنا به ذروة السّنام، وظللنا مجرّد كائنات متكلّمة، قائلة، صارخة، منتفخة حدّ التخمة، فأغرقنا به هذا البلدْ، كالقطّ يحكي انتفاخًا

صَوْلة الأسدْ، وكلُّ عبقريتنا مختصرة في "قال فلان" و"حدّث علاّن" و"خطب في الناس فلان" و" أعلن علاّن"...وهلمّ جرّا. وإننا حقا - شئنا أو أبينا- ظواهر صوتية في مجتمع رأسُ مالِه أقوالٌ، يجهل الفِعلَ والفاعل - وإن احتفى بهما في علم النحو - والصُّنعَ والصّانع، بل إن أقوامًا إذا عملوا جاهدين وأتوا بالآلة، انبرينا نحن لإعداد القصائد فيها وفوضى القيلِ والقالَة، فغدونا بحكم العادة أسيادا في طحن الهواء والعلفْ، وإذا أتينا بفعلٍ ففعل الثور في مستودع الخزَفْ ! والحاصل أننا لسانٌ منفجرْ، وعقلٌ محتضَرْ، وبطنٌ مختمِرْ، ويدٌ تنتظر...

فالصّمتَ الصّمتَ يا بُنيّ، فهو وقارٌ وإدامةٌ للتأمّل والتفكّر والنّظر، وهو شرفٌ للإنسان وجُنّةٌ واحترازٌ، إذ لا يُدْرى مِن خلفه جهلُ الجاهل، ولا يُمتحنُ به عِلمُ العالِم، فيُحسن النّاس الظن بك ما لم تتفوّه بكلام؛ ولا تتجاوزنَّ من بناتِ الشّفاه ما يزيد على حاجتك، فإنّ شدّة اهتزاز الأرض يُسقِطُ البُنيان، وفرط اهتزاز الفكّين يُسقط الأسنان...

فإلى حديث آخر من تَرائكِ الأزمان...

9 أكتوبر 2022

عميدٌ بقَرْنَيْهِ !

إنّ الوُعولَ إذا أرادت اختبار قوّة قرونها، سارعت إلى مناطحة وعولٍ مثلها، أو تراها تصدم صخور الجبال الناتئة حتى تتأكّد من قدرتها على الوقوف أمام العدوّ... وكأنها كانت تدري أن الحروب الباردة لا تصنع الجنود الأشاوس...

نتذكّر اليوم تاريخ 28 من أكتوبر (قبل يومين)، وهو يوم تجديد ذكرى وفاة عميد الأدب العربي، طه حسين علي بن سلامة، الذي غادر الدنيا جسداً يوم 28 أكتوبر 1973، مخلفاً إثره ما يقرب 60 مؤلفاً فكريّا ونقديّا وأدبيّا... بعينين مُطفأتين ميّتتين !! فما رأيك يا من يرى كلّ شيء؟ لعلّك الآن أدركتَ أن العمى ليس مرتبطاً بالعيون بل بشيء آخر... فلْتُعِدْ تعريف العمى كلّما ذُكر هذا الرجل أمامك أو ضَريبُهُ...

سيرة السيّد طه معروفة وليس المقصود اجترار الممضوغ والمعلوم، ولكننا نذكّر أن هذا الرجل يحمل بين جنبيه طاقة رهيبة لو أُفرغت على أرض لدكّتها دكّا وجعلت ما فوقها رمادًا، هذا لأنه ملكَ قرنين قويين ناطح بهما دولةً بحيالها، سياسييها ومفكّريها وأدبائها ومجتمعها المدني وفقهاء أزهرها وقُضاتها ومحاميها وكلّ من استطاع حمل قلم وتسويد ورقة بيضاء... فخرج من هذه النار العظيمة سليمًا معافىً أكثر قوة وهو شيخ ثمانينيّ، بل، مازال يناطح الأحياء وهو عظم رَميمٌ !!

فرحمة الله على هذا الرّجل الذي قال فيه سعد زغلول: "هَبوا أن رجلا مجنونا يهذي في الطريق، فهل يغير العقلاء فيه شيئا؟"؛ هذا المجنون هو عزيز مصر الذي جعل التعليم لأول مرة مجانيا كالماء والهواء... لهذا سيبقى كرسيّ عمادة الأدب شاغراً إلى أن يولد مجنون آخر...

10 أكتوبر 2022

في ميلاد شوقي...

أما اليوم فعيد ميلاد أحمد شوقي، الموافق للسادس عشر من أكتوبر 1868، شاعر الكنانة المحظوظ ؛ وأقول المحظوظ لأنه حظي بعناية ملكية طوال حياته الدراسية والمهنية فغدا شاعر الملك، وكفى بها مِنّة وحظّا، ولقد صدق كارل ماركس قائلا: " العقل الذي يفكر في القصر ليس كالعقل الذي يفكر في الكوخ "(مع استثناءات معروفة، والاستئناء لا يصنع القاعدة)... ومع ذلك فهو شاعر مكين حلّق عاليا في مسرحياته الشعرية التي لم يُسبق إليها، لكن شاعرنا - وإن كان في حُجُب القصور- لم يُفلته النقد، خصوصا ممن لا يخشون في القول لومة لائم، وأكبرهم عباس محمود العقاد، حين كان النقد لا يُحابي سوقَةً ولا أُمراءَ، عكس أيامنا التي اصبح فيه النقد زغاريدَ أفراح... مع استثناء النقاد الحقيقيين...

كتب شوقي عن الموت قائلا:

هل ترى كالتراب أحسنَ عَدْلاً وقياماً على حقوق العبادِ
نزل الأقـــوياءُ فيه على الضَّعْـ ـفَى وحلّ الملوكُ بالزّهّادِ

فعلّق العقّاد قائلا: " التراب ينصف العباد، ويصون حقوقهم أحسن صيانة، لأنه يُبيدهم جميعا ! فبحقك يا هذا كيف يكون تضييع الحقوق؟ وما الذي لقيه أضعف العباد من أقواهم وأظلَمِهِم أشد من هذا الإنصاف والصيانة؟ ويُخيّل إليك أنك أبدعت حين قلت: إن الملوك يستضيفون الزهاد في التراب، وهذا من فضائل الموت! فهل تعني أن الزهاد لا يستضيفون الملوك فيه على السواء؟! فإن كنت لا تعني ذلك فقد قلت ما تعلم أنه خطأ، وقلتَه لغير غرض.

أما المعري فقد أحاط بهذا المعنى، فلم يخسر شيئا من الصدق أو بلاغة الأسلوب حين قال:

فَعَزيزٌ عَليَّ خَلْطُ اللَّيالي رِمَّ أقدامِكُمْ بِرِمّ الهَوَادي

وهذه هي البلاغة الجادّة التي لا لعب فيها "

لسنا هنا بصدد المصادقة على مقول العقاد أو نقضه، وإنما الإشارة إلى علوّ كعب هذا الرعيل ناقدا ومنقودا... ورحم الله شوقي والعقاد...

16 أكتوبر 2022

قليلُ الأدَبْ !

إن عقلَ المرء يُعرف من عنوانه، ولا يشي بهذا العنوان سوى قولٍ أو فعلٍ امتدّ أحدهما - أو كلاهما- في الزّمن فأصبح عادةً مُرْسَلة. وإنّ أبا الهول الفرعونيّ يعجبني صمتًا وحجمًا، فهو التّاريخ والعظمة والمهابةُ صامتاً...وإنّ دولةَ الكلام مَلِكُها الفعلُ وليس الكلام نفسه! أمّا أبو "الأهوال"، وهو ممن صدّعوا رؤوسَنا بقرع طبولهم، باسِطين ألسنتهم في كلّ مكان، نافخين في الرّماد الهامد، ولكن بعض الكلام لو كان مما ينفع الناس لمَكَثَ في الأرض؛ فإنّنا نقول له هذيانًا - ومعذرة للشِّعر ولأهله تطفُّلَنا على ما لا نُحْسِنُهُ ونُجيده، ورحم الله امرأً عرف قدر نفسه -:

كَبُرتَ ... وأصبَحْتَ فَخْرَ العَرَبْ وصِرتَ حَديثَهُمُ في الكَثَبْ
وباتَ لكَ اسمٌ تُباهي بهِ فقُدِّمْتَ فيهِمْ كأُمٍّ وأَبْ
فَجاوَزْتَ غيْمَ السّماءِ ولَمْ تَزَلْ صاعِدًا فوْقَها في الرُّتَبْ
وجَارَيْتَ قِسَّ بنَ ساعِدَةٍ وأسْمَعْتَ وَسْطَ الجُموعِ الخُطَبْ
تعاظَمْتَ قدْرًا فأُنْسِيتَنَا كما يتناسَى اللهيبُ الحَطَبْ
وغرّكَ مِنّا انبساطٌ متى عرفْتَ أخاكَ قليلَ العَتَبْ
فما مِثْلكَ الآنَ مِن شاعرٍ ومِنْ ناثِرٍ ... كُلُّنا كالذَّنَبْ
ومَن غيرُكَ اليومَ في جِيلِنا نُلَقِّبُهُ بعَميدِ الأدَبْ؟
هَذَاذَيْكَ يا مَنْ تَوَهَّمَ أنَّـ ـهُ قد تسامى إذا ما صَخِبْ[1]
فما زادَ مِنْ شَرَفِ الكلبِ أنْ عوَى في الرُّهَا أو عوَى في حَلَبْ
أقَمْناكَ مِن غفلةٍ يومَ أنْ ظنَنْتَ الرُّجولَةَ فَتْلَ الشَّنَبْ![2]
فما أنتَ إلاّ صَدَى كاتِبٍ حصادُكَ نَهْبٌ ومَحْضُ سَلَبْ
سَقيناكَ مِن بحْرِنا قطرةً وصِرتَ بها تستقي بالقِرَبْ
فلا تَفْخَرَنْ بنبيذٍ عَصَرْ تَهُ، إنّنا كَرْمُهُ والعِنَبْ
أَسِيَّانِ مَنْ صامَ فرْضًا ومَن تراويحُهُ صُلِّيَتْ في رَجَبْ؟
ومَنْ ضاعَ وَسْطَ الوَرى نَسَبًا فهل يشتري بالدُّيُونِ النّسَبْ؟

1- هَذَاذَيْكَ: مِن هَذَّ يهُذُّ هَذَذًا وهذَاذًا، والهَذاذُ صوتٌ لكفِّ المرء عن فعل شيءٍ، فيُؤتى بهذا التعبير لحثّ المُخاطَب للإسراع في الكفّ عن الشيء.

2- الشَّنَبُ: أتينا بهذه الكلمة من اللغة المعاصرة بمعنى "الشّارِب"، وإلاّ فالعربيّ الأصيل يعني بالشّنب جمالَ الثغر وصفاء الأسنان.

ولستَ بِقَدْرِ الهِجاءِ فَنَهْـ ـتَجيكَ لأنّكَ سَقْطُ زَغَبْ
وإن كنتَ تَعْرَقُ في "الوَضْع" فالْـ ـبَيانُ لدينا كبَعضِ لُعَبْ[1]
ولَسْنا نُقاتِلُ أَعْزَلَ أوْ مِن الجيشِ مَن سيْفُهُ مِن خَشَبْ!

22 أكتوبر 2022

1- الوضعُ: قصدنا به ما تعانيه الحامِلُ من آلام لحظات الولادة القاسية.

متى تنطلق مسيرتُنا السّوداء؟

"هذا المنشور للمساكين فقط،
وليس لمن اختارهم الله ليُسرِهِ ونعيمه"

مرّ الجيل الذي سبقنا بأحلامه وبأفكاره وبعقله الجمعيّ " الساذج"، مَحقوناً بجرعات من الوطنيّة الزائدة، معتصماً بالصّبر على ما لا يُصبر عليه ولا يُحتمل... فمرّ الزمان رغم ذلك وإن تزايدت الأحمال على الأكتاف كالحمير لا تبكي وإن قلّت الأعلاف !! فجئنا نحن من جيلنا، ظانّين أننا أفضل حالاً ممن سبقونا، ولكن الحق أننا أشباههم ونظراؤهم وحالنا كحالهم... أحمالٌ وأكتاف وحميرٌ وقلّةُ أعلاف... لتبقى دار لقمان على حالها...

سألتُ مؤخراً أحد الذين شاركوا في مسيرتهم "الخضراء"، فسألته حرفيّا: ما الذي منحتك المشاركة؟ فأجاب: الوطن... فسألته: وماذا أعطاك هذا الوطن؟ فأجاب علَمٌ وقلادة وكتاب الله...قلتُ جميلٌ هذا الكنز المعنويّ، هنيئا لك، لكن، بم دخلتَ على أبنائك حينئذ دون هذا الكنز؟ قال: الأفضل أن نصمت !! فأردتُ التخفيف عن شيخنا فقلتُ له: هوّن عليك، إننا من يصنع الآلهة بأكفّنا فنخِرُّ لها ساجدين... لا عليك، نحن كذلك، في زمن السماوات المفتوحة والميتافيرس وجيمس ويب، صامتون !! أنتم تحت عمائمكم ونحن تحت قبعاتنا الشمسية... لا فرق يا شيخ... أنتم سرتم مسيرتكم الخضراء ونحن تنتظرنا مسيرة سوداء ضد الغلاء والفقر والتهميش والبطالة، وإن كان زمنكم كذلك لا يخلو من هذه الآفات...

إن الأعلام لا تُنصبُ إلا إذا أمِنَ المستضعفون من هذا " الوطن " وفقراءهُ غوائل الغلاء والفقر وضيق المعيشة، فالنشيدُ عند المسرّة وليس يسوغ عند اشتداد المضرّة... وما صُرف في التغنّي بالأمجاد كان من باب أولى ليُصرف في دعم آلهات الفقراء الأربع: الدقيق والزيت والشاي والسكّر.

6 نونبر 2022

هذا زمن الأطفال...

يا حبذا الشّام من أرض ومن وطـنٍ
من حبها الروح في جسمي وفي بدني
قد أنـــزل الله فـيها الســر مذ زمنٍ
إذ بـارك الأرض في مـاض من الزمنِ
هـذي الحـضارة فانظر كيف تشهدها
فـــوق الســحاب تأمل هاهنا وطني

هكذا صدح الشاعر الشامي معرّفا الناس بحضارة بلاده، إحدى البلدان التي صنعت الحضارات الإنسانية الأولى، والبارحة فقط صدحت الطفلة الصغيرة " شام البكور" السورية في مسرح أوبّرا دبي، منتزعة لقب بطلة مسابقة تحدي القراءة العربي في دورتها السادسة.

الطفلة شام البكور في ربيعها السابع، ناجية من حادث سير مروع، كما نجت من انفجار إثر هجوم إرهابي أودى بحياة أبيها، لكن الأقدار أبقت على أمها التي صنعت حياة أخرى لابنتها... فاعجبنّ للحياة لمن أراد التعجب !

شهدت الدورة السادسة من تحدي القراءة العربي، التظاهرة القرائية الأكبر من نوعها عالمياً باللغة العربية، مشاركة 22.27 مليون طالب وطالبة من 44 دولة، ما جعلها حتى تاريخه الدورة الأكبر للتحدي من حيث عدد المشاركين منذ انطلاقته... ومن تلك الملايين خرجت " شام الصغيرة " من نارٍ كانت عليها بردا وسلاما... لأنها شام بنت الشام... والشبل من الأسد...

فهنيئا لهاته الطفيلة العظيمة التي خرجت من أتون الحرب والدمار فارتقت مُرتقى صعبا رافعة راية بلادها، كما نهنئ طاقم مدرسة "المختار جزوليت" العمومية المغربية على فوزهم بلقب المدرسة المتميزة من بين 92 ألف مدرسة منافسة... وسبحان من يخرج الميت من الحيّ ويُحيي العظام وهي رميم !!

10 يونيو 2022

الرّافعيّ...

أما صاحب هذه الصورة أدناه فهو مصطفى صادق الرّافعيّ، وقد خلق الله من هذا الاسم اثنين فقط: الجدّ والحفيد؛ أما الجدّ فإمام الأدب العربيّ، أما الحفيد - المترعرع بأمريكا- فلا يعرف من العربيّة إلا بمقدار ما يعرف امرؤ القيس من الصينيّة !

لم أكن أفكّر أن أكتب شيئا عن الرّجل في عيد ميلاده (1 يناير 1880)، مكتفيا بوضع صورته فقط، فهي جامعة مانعة صادعة، أو أرفقها في أحسن الأحوال بعبارة - وأمضي-: يا أيها الأدباء ألقوا ما بأيديكم وادخلوا مساكنكم ليحطمنّكم الرّافعيّ وأقلامه ! وقد تضيق العبارة إذا اتسعت الرؤية بتعبير النِّفريّ...

ولعلّ قارئ هذه الأسطر ستتقافز بين جنبيه علامات استفهام كثيرة متسائلا: هل طغى الإعجاب على بصر هذا " الإبراهيم " وكَلَّت عين الرضا لديه عن العيوب، فأثابه مثابة فوق الجميع؟ ولكنّ التساؤل سيكون في مكانه لو طَرَحَهُ من قتل مُنجز الرّجل بحثا وقراءة وتذوّقا وهو الأهم... فلا حُكم على الرّمّان من قِشرِهِ...

إن من بحث عن الرّافعيّ في الأرض، بين صخورها وخشاشها وهوامِها، عاد بخُفّي حُنين أو بقرني حمار كما قيل، لأن فصوص الجواهر لا يُبحث عنها حيثُ يُبحث عن الذباب والجرذان، لأن أديبنا حلّق عاليا ثمّ ارتفع حتّى أضمرته السُّحب، فلا تراهُ العين، ولكنّها تعرف أنه في مكان ما في جوّ السماء... إنك تقرأ له فتشعر أنه ليس نسخة من أحد، ولا يُذكّرك به أحد، ولا يُذكّرك بأحد؛ وإن كثيرا من الكتّاب محض صور مستعارَة ونسخ مرآوية من أصولٍ ثابتة... فما أعسر الخلق ! وما أصعب الإبداع !

وبعد، فالرحمة على كبيرنا أحمد بوكماخ الذي اختار من " وحي القلم" نصوصا لسلسلته " إقرأ" (المرحلة الخامسة)، هادفا إلى خلق ذائقة أدبية ولغوية سامية لدى الطفل، ومن قرأ قصّة "بين خروفين" عرف ما كنت أهذي به أعلاه... ولكن مات للأسف بوكماخْ، وبقي كلّ شيء بعده كأنه مُلتاخْ، فماذا يجني بربّكَ من ينفخ في شِباكٍ بمنفاخْ؟

فليرحمكَ الله وليسعكَ قبرك، فإني أعرف ما ستفعله بنا لو قرأتَ أوابِدَنا ومصائبنا... فما بالكَ لو عرفتَ أن الصّينيين يتقنون لغتكَ العربيّة أكثر من الذين يحتفلون بها كل سنة في هذا الفضاء الأخرق، عفوا، الأزرق !

::

وسنة سعيدة لكل فقراء العالم، أما الأغنياء فقادرون على شراء السعادة...

31 دجنبر 2022

عيد ميلاد...

إنك حقا شبيه بالبشر، مالكا يدين ورأسا بين كتفين، ماشياً على اثنتين، وماذا بعد؟ إنك تشبههم فقط، والشّبَه والمماثلة أدنى درجات الأصالة... حقا إنك تشبههم لكن لستَ منهم... وقد يُقبل الشّبهُ إذا قيل: ما أشبهَ محمّداً بِرشيد، ولكن ماذا إن قيل: ما أشبهَ سُعْدى بسعيد؟ ألستَ ترى من سفاهة العقل أن يُناظِر المِلحُ السُّكَّرَ وإن اشتركا في البياض؟ وكم بين المسك والفحم وكلاهما من جِلدة سوداء؟ وإن كنتَ تحمل جلداً يستُر لحمك فماذا بَعْدُ؟ اعرض نفسك في سوق النّاسِ اليومَ حينها ستعلم كم يُدفع فيك !!

في عيد ميلادي لا حلوى تُقطع، ولا شموعَ يُزفرُ فيها لإطفائها، ولا أناشيد تُغنّى أو تُردّد على الأقل كتراتيل المآتم، ولا ألعابَ كالشُّهُب توقد لتملأ الفضاء نوراً... لا شيء من هذا كلّه كان أو سيكون، لأن السّرّ رُبّما في القلم الذي خطّ اسمي يومَ وُلدتُ في سِجِلّ الوفيات عوض سجلّ المواليد؛ والحق أن القلم ذَيّاكَ كان يعلم أني محض مولودٍ ميّتٍ أو ميّتٍ مولود... لا أدري... فهو عيدُ وفاة إذن، كأن الوجود في حقّي مكروه أو جائز في أحسن الأحوال...

أتعرفين يا نفسي لمّا طَوَتِ الدُّنيا أمام عيني بعضَها على بعض، عرفتُ - على غفلة وسذاجة- أن بعضنا يولدُ فقط وفقط لسدّ فراغاتٍ ثلاثة في الذين يُسمّون البشر، بمعنى أننا نحس بوجودنا بين أولئك:

- إذا أحسّوا بفراغ في جيوبهم، حينها تكون مولوداً بالقوّة وبالجبر وبالفعل وبالقدر وبالإيمان وبالإلحاد وبكل معجم متاح... فيبحثون عنك ولو باستعمال الأقمار الصناعيّة... لأنك حينئذ تتحوّل إلى آلهة اسمها "درهمٌ "...

- إذا أحسّوا بفراغ في عقولهم، حينها يُخرجونك من بطن العدم إلى الدُّنيا قيصريّا، لتملأ دفاترهم وكنانيشهم وأوراقهم... لأنك حينئذ ستمنحهم طيلساناً علميّاً يرفع أقدارهم... وقس على كلّ غرض...

- إذا أحسّوا بفراغ في أوقاتهم، حينها سيصلون إليك زحفاً أو مشيا على يَدَيْن، لتلعب دور "بهلولٍ " أو " أبي دُلامَةَ " أو أمثالهما، لأنك حينئذ محضُ مَن يُزجى بهم الوقت ويُمضغ بهم الزّمن ويُرفع بهم الملل...

.... أما المستثنون من أصحاب الفراغات الثلاثة فهم قِلّة ويُجمعون في سلّة وحبلهم متّصل بحبلك بلا تَعِلَّة...

أنا الـبريءُ ولم تـبرحْ تُعـذِّبُني فليـتَ لي بينَ أقـدارِ الدُّنا فـــادي
أهكذا صُحْبَةُ الدُّنيا التي ذكروا أمِ الصِّحابُ في وادٍ وهي في وادي؟
رحماكَ يا ربِّ عَجِّلْ بالمماتِ إذا قـــدَّرتَ أنَّ لهـذا كانَ مـيـلادي

وعيد ميلاد سعيد للموجودين حقا في هذه الحياة...

5 يناير 2023

واشتعلَ الرّأسُ أدباً...

إنك حين تسأل ذبابة عن أسد الغابة، لا شكّ أن عقلها سيلتفت مباشرة - دون أدنى تفكير- إلى الضفدع لا إلى السّبع؛ تماما كما يجيبك رجل وُلد في الأربعينات حين يُسأل عن المرأة، فتراه - إلا من رحِم الله- يقول واثقاً: المرأة نصف إنسان وكمالُها في نقصانها... هي شيءٌ من الأشياء المملوكة كما يملك الحصانُ حَدْوَتَهُ؛ والمُنتَعلَة كما ينتعل الرّجُل نِعالَهُ، والمُتسلّى بها كما يتسلّى الطّفل بدُميته... هي متاعٌ من الأمتعة وغرض من الأغراض ووعاءٌ يُمَلَّأُ أجنّةً... هي حيّةٌ تَسعى من حيثُ هي حيّة تُرزق... وهي فكرة مازالت سارية المفعول في زمن قادت فيه المرأة الطائرات والمركبات الفضائية وفازت فيه بجوائز نوبل في جميع مجالاتها... فتعجّب كيفما شئت !!

سرّتني اليوم دعوة الأديبة مينة حدادي رئيسة فرع اشتوكة لرابطة كاتبات المغرب، والسيد سعيد الخمري مدير فضاء الذاكرة التاريخية للمقاومة والتحرير ببيوكرى احتفاء بصدور رواية " زينة تاكنيضيفْتْ/ كفاح امرأة " للأستاذ محمد أولحيان... وهنا أنحني للرّجل انحناءة تقدير وتعظيم لأمرين اثنين، هما:

أولا لأن أستاذنا الفاضل أقفل الثمانين سنة، ومازال قويّ العارضة، سليمَ اللّسان العربيّ، دائبا على القراءة والتأليف.

ثانيا لأنّه من الاستثنائيين الذين أقاموا وزنا اعتباريّا للمرأة، مدافعاً عنها، كاشفا الغطاء عن معاناتها، وهو من الجيل الذي يعتبر عقل البعوضة أكبر من عقل المرأة...

فتحيّة إكبار وإجلال لكلّ من رتّبوا أسباب هذا اللقاء الثقافي اللطيف، مع دعواتي لأستاذنا بدوام الصّحّة والعافية والعطاء، فأمثاله من الذين يُخشى فُقدان العلم بفقدانهم، وهم ممن يصدُق عنهم قولُ ناصيف اليازجيّ:

إذا هَلَكتْ رجالُ الحيّ أضحى صَبِيُّ القومِ يَحْلِفُ بالطّلاقِ !

24 يناير 2023

يا بُنيّ... (4)

يا بنيّ، أعود إليك بحديث جاد به ما لمسنا في الناس من طبائع، بين من يمر في حياتك مرور النجوم الطّوالع، وبين من يمر فيها لَسْعاً كما تُلسعُ الآذان بنقيق الضفادع، ولله في خلقه شؤون...

قد امتهدتُ الكلام في هذه الأحاديث عن النفس وهي الشيء الخفيّ في النّاس، وإذا قُلِّبَ أمرها جيدا وَجَدْتها مُحرّكَ العقل والبدن وصانِعَةَ كلّ خير وشرّ؛ وهي التي تحمل المرء على تصديق ما لا يُصدّق وتكذيب ما لا يُكذّب، والنّفسُ هي النّفسُ والنّاسُ هم النّاسُ مُذ كانوا إلى أن ينقرضوا، وعنهم نكسرُ رابعَ حديثنا...

أي بنيّ، إنّ النّاس وإن كانوا أشباها في الصّور والمنظر، فإنهم أشكال وصنوف يكشفها الفعلُ والمَخبر؛ وإنّ الاختلاط بالبشر أسوأ ما تفرضه الحياة السائرة علينا، وقد يلزّونك أحيانا على معاشرة زواحف الصحاري ونبات الغَضا والصّبّارْ، في منأًى عن كلّ زيد وعزيز وعمّارْ، ولكَ في بطون كتب التاريخ قصصٌ من هذا القبيل، ولعلّ أغلبَها صحيح، ولن تعدو غرابتها غرابة البشر ذاتِها، فللّه درُّ مَن لم يُخلقوا...

إنّ النّاس مُذ وُجدوا جعلهم قدماء الحكماء أنفاراً ثلاثةً؛ أمّا الأوّل فقيل إنّهم كالغِذاء نحتاجهم دائماً، ولا يستغني المرء عنهم، وهم الوالدان والأبناء والإخوة بقرابة الدّم؛ أمّا النّفر الثّاني فقيل إنّهم كالدّواء، لا يُطلَبُ إلّا أحياناً، وهم الأصدقاء والمألوفون من المعارف؛ أمّا ثالث الأنفار فقيل إنهم كالدّاء، كلّه شرٌّ وضُرٌّ، وفيهم قال شيخُ المعرّة:

وما ضرّني غيرُ الذين عَرَفتُهُم جَزَى اللهُ خيراً كُلّ مَن لستُ أعرفُ

هذا مَبلغ اجتهاد الأوّلين كما رأيتَ، وإنّهم حقّا أصابوا بعضاً من حقيقة طبائع البشر، وما تقتضيه أحوالهم السّالفة من اجتماعٍ في الدّرب وفي القلب، ولكن حال الأمس غير حال اليوم يا بنيّ، فنحن في زمن يزحف على قاعدة المثل السّائر: واحدٌ بالمئة، ورجُلٌ يفي بالفئة، وإنّ "الواحد" هذا لا يحتفظ به غربالك إلاّ بعد أن تبذل فيه نفْساً شاقّة، وتصدمك في الآخرين ألف داهية ونازلة وحاقّة؛ وهذا إن وجدتَهُ في دهرك المخيف فألبِسْهُ مِن عِزّكَ تاجاً، وأَحِلّهُ مِن سمائك أبراجاً، ولا تجعله يدنو إلى مَنّان فاقةً واحتياجاً، فهو الجوهرة تجدها بعد طول بحث في الحصى وحظوظٍ عاثرَهْ، وهو الوَرد تحظى به على أرضٍ مهجورة بائرَهْ... فالْزَمَنّهُ ما أغناكَ بالإخلاص

والوفاء، وعظِّمْهُ ما رَفَعَ شأنَكَ وقدّرَ قيمتك، وامنحهُ ما بذل لك العطاء عارياً من كلّ مِنّةٍ وشريطة...فأنت في زمن أصبح النّاس فيه - أو كادوا- يصبحون نفراً واحداً، وهو ثالث الأثافيّ في زمن الحكماء، أقصد مَن ضُرُّهم أقرب من نفعهم، وجفافهم أكثر من غَيثهم، وجهنّمهم أوسع من جِنانهم.

بنيّ، إنّ أعجَبَ ما في زمنك هذا أن تُخالط بكثرة الإخوان والأخوال والأعمام والخلاّن، ولكنّهم كالقُطن يُغريك حجمُهُ ويُخجِلُك كَيلُهُ ووزنُهُ، ولا تعرف مقاديرهم إلاّ إذا امتحنتك الأيّام وبلغت فيك صُروفُها الحُلقوم وطاردْتك كلابُ الأرصفة !! فتتحمّل بهتان أخيك لأنّه ابنُ أُمِّك، وكذبَ عمّك لأنّه أخو أبيك، وعَضيهَةَ خالِك لأنه أخو أُمّك، وأراجيفَ من تظنُّه صاحِبَكَ فقط لأنّ الحياة ألْقَتْ به في سبيلك.

بُنيّ، إنّ الجنائزَ تُريك مَن بكى لِفَقْدٍ مِمّن تباكى لإصابةِ وَضيمَةٍ، وإنّ الحُجُبَ إذا رُفِعَتْ كشفت حقيقة ديباجة الأنامِ أتَوْكَ من بهْو قصرٍ أو مِن جوف غارْ، وستعلمُ يوماً - كما قال الأوّل - حين ينجلي الغُبارْ، أفَرَسٌ أو بغلٌ كان تحتك أو حِمارْ !!!

5 فبراير 2023

عِـش حـماراً...

من عادة أستاذي الفاضل سعيد جليل أن يبعث إليّ بضعَ قُراضاتٍ من مخطوطات سارت بها الرّكبان بين هاته الوسائط الزرقاء والخضراء، خاصة إذا كانت تنطوي على نكتة وطرفة، ولقد حدث اليوم أن فاجأني بتلكم القُراضة ضامّةً بيتين شعريين على أنهما للشيرازي، وعلماء شيراز كُثُرٌ، ولكنا نرجّح أن المعنيّ في المخطوط شيخُ الشافعية في وقته، أبو إسحق الشيرازي، المتوفّى سنة 376 هـ؛ والبيتان طبعاً لعبد القاهر الجرجانيّ وقد ذكرهما السُّبْكِيُّ في طبقاته، وأصلهما قوله:

كَبِّرْ عـلى العِـلمِ لا تَـرُمْهُ ومِلْ إلى الجَهْلِ مَيْلَ هائِمْ
وعِشْ حِماراً تكنْ سعيداً فالسَّعْدُ في طـالِعِ البهـائِمْ

في الحقيقة، إذا تأملنا الأبيات وجدنا قائلهما أقرب إلى وصف جانب قائم في الواقع الماثل أمام أعيننا، ولعلّ عودتنا إلى صدر التاريخ تكشف لنا عن نماذج لم يستطع عِلمها أن يقيها نوائب الفقر وصواعق الفاقة بدءاً بسقراط، مرورا بالتوحيديّ والمعرّيّ، إلى ماركس والعقّاد وأمل دنقل وغيرهم كثير... وعلى هذا المَهيع قال الأوّل:

قلتُ للفقر: أين أنت مُقيم؟ قال لي: في عـمائمِ الفقهاءِ
إنَّ بيني وبينهم لَإخـــــاءً وعزيزٌ عليَّ تركُ الإخاءِ !

والجهل مرتبط بالحظ وبالنعيم وبراحة البال منذ زمن، والحقّ أن منطق الأشياء يقبل هذا، فالغـنى مبلوغ بطـرق غير طرق إفناء العـمر وسط ركام من
الأوراق والجذاذات، وقلّما جُمع المال والعلم تحت عِمامةٍ واحدة، واسمع من الشافعيّ قوله:

فَإذا سَمِعتَ بِأَنَّ مَجْدُوداً حَوى عُـوداً فَأَثْـمَـرَ في يَـدَيهِ فَصَدِّقِ
وَمِنَ الدّليلِ عَلى القَضاءِ وَحُكمِهِ بُؤسُ اللّبيبِ وَطيبُ عَيشِ الأَحمَقِ

ومن ابن الرّاوندي قوله:

كم عاقلٍ عاقلٍ أعْيَتْ مـذاهبهُ وجاهلٍ جاهـلٍ تلقاهُ مَرْزوقا
هذا الذي تركَ الألبابَ حائرةً وصَّيرَ العالِمَ النِّحـريرَ زِنديقاً

ومن بشّار بن بُرْدٍ قوله:

لَمّا رَأَيتُ الحَظَّ حَظَّ الجاهِلِ وَلَم أَرَ المَغبـونَ غَيرَ العاقِلِ
شرِبتُ صِرْفاً من كُرومِ بابـلٍ فبتُّ مِنْ عقلي على مَراحِلِ

ومن المتنبّي قوله المعروف:

ذو العَقلِ يَشقى في النَعيمِ بِعَقلِهِ وَأَخو الجَهالَةِ في الشَقاوَةِ يَنعَمُ

والمعاني في هذا السّياق غير محدودة، والحياة هي الحياة، والأقدار هي الأقدار، والعقل يقف أحيانا موقف المتعجّب والمتسائل، فينتهي إلى ترديد أبياتِ ابن مُقبلٍ:

إنْ يُنْقِصِ الدّهرُ منّي فالفتى غَرَضٌ للدّهرِ مِنْ عُودِهِ وافٍ ومَثْلُومُ

وإن يكنْ ذاكَ مِقداراً أُصبتُ بهِ فسيرةُ الدّهرِ تعويجٌ وتقويمُ

ما أطيبَ العيشَ لوْ أنَّ الفتى حَجَرٌ تَنْبُو الحوادثُ عنهُ وَهْوَ مَلْمُومُ !

وما أغرب صُروف الحياة !

ملاحظة: بارك الله للأغنياء وللميسورين في أموالهم، وهذه تدوينةُ أدبيّة وليست - معاذ الله - وصماً لغنيّ بجهل ولا رُقْية حَسد...

29 أبريل 2023

الله والرياضيات !

لم يعد في الحقيقة مُجدياً المثل القديم القائل: " عشْ رجباً ترَ عجباً "، وقد بلغنا زمناً تستيقظ فيه كلّ يوم على العجائب وتمسي عليها، فغَدا كلّ شهر رجباً وأضحت كلّ لحظةٍ عجيبَةً... ومن تلكم العجائب ما وقفنا عليه من جِدال عقيم بين لفيف من "العقول" في إحدى الصفحات المخصصة - حسب زعم بعضهم - للعلم وللفلسفة، وكم ينشرح صدرنا لسائر ما يمت بصلة للعلم بكلّ فروعه، خاصة إذا لم تشُبْ هذا العلمَ خرافة أو شعوذة أو ما يجعل هذا العلم أضحوكة بين العقلاء !

كان الجِدال حول سؤال: هل يستطيع الله سبحانه أن يجعل (1+1= 100)؟

بالطبع لن نناقش الخلفيات المعرفيّة التي يصدُرُ عنها هؤلاء المتجادلون، كما لن نتقصّى البواعث التي تحرّك تلكم العقول؛ فنحن بالأساس نهتم بالسؤال أكثر من اهتمامنا بمحيطه.

كانت الإجابات بإقرار القدرة والاستطاعة لأنّ " الله على كلّ شيء قدير" بلا مراء ولا جدال... لينتهي كلّ شيء بسلام !

ولعلّ العقل الذي ينهي خلافاته العلمية هكذا لهو أُفْكوهة الدّهر ورأس غرابته، خاصة في حقل العلوم الحقّة المبنية على منطق رياضيّ مُحكم يقبله العقل مهما امتُحن فيه؛ ومن هذا الجواب وقبيله نتذكّر النكتة السّيّارة: المستقيمان المتوازيان يلتقيان بإذن الله !

بهذا نكون قد خرجنا من تخصص الرياضيات إلى تخصص آخر لا نعرف ما هو، أو على الأقل نكون إزاء جهاز مفاهيمي و"علم" غريب يجوز فيه كلّ شيء، بل، كلّ علاقة فيه بين شيئين منطقيّة ومعقولة بالتعبير الفلسفيّ، وكلّ قضيّة لا تنتمي إلى الرياضيات إلا إذا كانت "تكرارية" بتعبير فيتغنشتين، أو "تحليلية" بتعبير رودولف كارناب، أما قضية سؤالنا، فلا هي تحليلية ولا هي تكرارية على الأقل في نظام العدّ العشري.

إن الرياضيات والمنطق شيئان متطابقان بتعبير برتراند راسل، وإذا أفرغت الرياضيات من المنطق العقلي (مبادئ المنطق) صارت علما بلا معنى وفوضى من الأرقام والرموز، بالرغم من نظرية عدم الاكتمال للرياضي "كورت غُودل" التي تقول باختصار شديد: كلّ بُنيان رياضيّ إما أن يكون متناقضا أو ناقصا، وقد أسسها غودل للتعبير عن إمكانية وجود قضايا رياضية غير قابلة للبرهنة ! لكن هذا لا ينفي تسالُم العقل البشري على بدهيّات، جُعلت بعدُ ثوابتَ منطقيّة، لأن ما لم يُبرهن لا يتجاوز العشرات (حدسية كولاتز - فرضية ريمان - حدسية هودج - حدسية كولدباخ ... إلخ) إزاء العدد الهائل ممّا تمّ بلوغ حلّه.

وبالعودة إلى سؤالنا، فإن السؤال - في اعتقادنا - من المقولات الخاطئة التي تحمل مغالطة منطقية، بمعنى أن مقدّماته ومنطلقاته خاطئة أساساً، والخطأُ المقولي إقرانُ أشياء من تصنيفات مختلفة لا يجوز عقلًا أن تجتمع، مما يجعلُ المرء يسقط فيما يُسمّى "المُحال" لدى المناطقة، والمُحال ما يُعلم بُطلانه أو فساده اضطراراً، وإن كان الكلامُ مستقيما نحواً وصرفاً، كقولك: سأقومُ أمسِ/ البيتُ موجودٌ معدومٌ... والنقيضان لا يجتمعان ولا يرتفعان كما هو معلوم.

أما المغالطة فإقحام قدرة الله واختبارها في "حقل مفاهيمي" لا تتعلّق به الاستطاعة الإلهية، والرياضيات حقل مفاهيمي تحكمه علاقات منطقية مضبوطة، سواء على الأرض أو في أي مكان في الكون؛ فلا معنى إذن لتسليط طرف خارجي، وإن كان الله بذاته سبحانه، لأن الله خلق للبشر عقولا لا ينسلك فيها إلا أن يكون الاثنان مجموع الواحِدَيْن؛ أما السؤال الذي لا يحتمل جوابا معقولا فهو سؤال مُحالٌ، تماما كقولك: هل يستطيع الله أن يُدخِل الكون في بيضة مع الحفاظ على حجم البيضة ثابتا؟ (ومثل هذه الأسئلة طُرحت قديما)؛ بمعنى هل يمكن للشيء أن يكون كبيرا وصغيرا في نفس الوقت؟ وهذا جمع بين نقيضين كما بيّنا... وعليه يكون هذا سؤالا لا معنى له وسيولّد أجوبة لا معنى لها...

والله أعلم

25 ماي 2023

وزن "بوسالْمْ " أو وزن الفحول...

يُعدُّ وزن " بُوسَالْمْ " الموسيقي على سلّم المقام الخماسي في الغناء السّوسيّ الأمازيغي من الأوزان القويّة النادرة التي يركب موجَها "الرّوايس" قدماؤهم ومُحدثوهم، ولعلّه، في رأينا، الوزن الذي يختبر "فحولة الرّايس" -على مذهب أبي سلاّم الجُمحيّ-، أو على الأقلّ ما يجعله في الطبقة الأولى، كما يُختبر الشاعر بالنّظم على بحور معيّنة في السياق العربي.

يتطلّب هذا الوزن استعدادا خاصا من الرّايس للغناء باسترسال لا تشوبه تقطّعات أو استراحة ، في غياب تام للكورال، بل، يكون المغنّي مضطرّاً إلى تسريع إيقاع الشهيق والزّفير، خاصّة إذا كان إيقاع الموسيقى سريعا؛ كما يتطلّب هذا الوزن ذاكرة قوية قادرة على استحضار المُطوّلات من القصائد؛ ولصعوبة هذا الوزن لم نقف إلاّ على قلّة من الروايس الذين أتقنوا الغناء عليه، ونذكر أقدمهم بوجمعة كو إغرايسن، وقد سار على نهجه محمد ساسبو، ومن المحدثين الحسين جانطي و أحمد بيزماون وعبد الله حْماوْدْ؛ لكنّنا نعتبر الرّاحل الرايس أحمد أمنتاك أقوى المحدثين، ولعلّه أوّل طبقتهم أداءً وطولَ نَفَس.

هذه إلماعة بسيطة في الموضوع، أما هذا الوزن بالضبط فمحتاج لوقفة طويلة تستحضر جماليته وقوّته واستثنائيّته وسيولة ألحانه في آن واحد.

7 يونيو 2023

وما يَسْطُرون ...

لله درُّ المحابرِ حيثما وُضعت منتصبةً مستويةً على عروش المناضدِ وألياف الحُصُر، ولله درُّ الأقلام ما خطّتْ من كَلِمٍ أوْحَتْ به الغيوبُ لأهل المَدَرِ والوَبَر؛ وحْيًا مِن معانٍ كأنها ماء البيان في عذوبةٍ تَرْويك، وكأنها نسيم الجِنان من كلّ مُستَرْوِحٍ يُعْطيك؛ وهي معانٍ تتساقط من الأفواه حيناً تساقُطَ الدّمع غير مكترثٍ بالأجفان، وحيناً هي الجنائزُ تُتْلى نُواحاً باللّسان، وحيناً هي الرّوحُ الجَذْلى تنبعثُ من بين السطور كأنّ خَلْقًا سطّرها غير الإنسان !! معانٍ هي السماء حين تكشفُ للأرض سِرّها وغيْبَها، وهي الأرضُ لمّا تستمطرُ السماء وتستأذِنُ في الغيث رَبَّها، وهي الجَوانحُ مكشوفةَ الطّويّةِ آنَ تأخذُ النفسُ على النّفس ذَنْبَها...

ولله درُّ الأقلام ما أماطَتِ اللثامَ عن أسرارِ مَراعِفِها، وما جمَعَتْ من حوادثِ الأيام شواهِدِها وسَوالِفِها، فأرختْ لعقول الناس أعنّتها وحِبَالَها، فساحتْ تذْرَعُ الآفاقَ وِهادَها وجبالَها، ماضيةً على هُدًى كأن الله أوحى لها، ضاربةً في كلّ طريق غير عابئة بالمثالِث ولا بالمثاني، وفي كلّ معنىً تجَلّى في الذّهن سِحرًا قالت في خُيلاء: هل تَراني؟ ويا حظّها الأقلام فُتحت لها في كلّ أرضٍ الأبواب، في خضراء المعمورة وفي قَفْرِها اليَباب، مهيبةً في أجمل منظرٍ وأفخر إهَاب؛ ما غادرتْ في الأعالي قُنّةَ طَوْدٍ[1]

ولا في الأسافلِ ظلّ دُمْلُوك[2]، وكلُّ البِلاد بِلادُها حتى تساوت لديها بغدادُ ودمشقُ وتَبُوك، حاشدةً كلّ الأسباب فيها من أكْواخ المحاوِج إلى أبْهاء الأمراء ودواوين المُلُوك ...

ولله درّكِ مِنْ مُنَّةٍ جادت بها القرائح، وفيوضِ بلاغةٍ تأرجحت بين البوارِح والسّوانح؛ فهي الشّاعرُ يُقصِّدُ القصيدة مُتوّجاً صدرها وعَجُزَها بالرّويّ والقافيَهْ، وهي الأديبُ قاصًّا أحابيلَ شخوصِه، منتظرين متى تنقلبُ الدّنيا بهم في ثانيَهْ، وهي المؤرّخُ عارضًا تاريخ من باتوا طَيَّ النسيان من الأقوام الفانيَهْ، وهي النّحويُّ يمنعُ اشتجارَ خصومةٍ بين كوفيٍّ وبَصْرِيٍّ في شأنِ "لا" النافيَهْ، وهي النّاقدُ كاشفاً انتحال الشّعر وأكاذيب خَلَفِ الأحمر وحمّادٍ الرّاويَهْ، وهي الصّوفيّ محلّقا في ملكوت خالقه، قارئا سِفْرَ الحياة، كأنّه يعيد تهجئة " هاؤُمُ اقرأُوا كِتابِيَهْ "، وهي عالِمُ الطبيعة منقّبا عن أسرار الكون والمعاجِز في أشياء نظنّها عاديَهْ...

1- قنة طود: قمة جبل.

2- الدُّملوك: الحجرُ الأسود المستدير.

ولله درّكِ شاهدةً على عصرٍ رُفعت فيه أهرامُ الفراعِنَة، باسطةً رُسومَكَ المسماريّة على ألواحٍ من طينِ تَلِّ العَمَارِنَة، مُرصِّفةً حروفكِ الأولى على العُسُب[1] والكَرانيفِ[2] والرِّقاع، وعلى قِطع الأديم وعظام الأكتافِ والأضلاع، مالئةً أوراق البَرديّ بأثمار الفكر البشريّ بالوصايا المِلاح، فلم يلبث الزّمن غير قليل حتى أعقبَها منادٍ في النّاس مردّدًا: "حيّ على الفَلاح!"، فطويتِ الدهور والعصور كلّها في سِفْرِ كاتِبْ، وتصاريفُ الزمن لابدّ تمضي وتُطوى بالغةً مُنتهاها ضربةَ لازِبْ، فينبري القارئ منا شاديًا ما مرّ في الأذهان وتجمّعَ من حصائدِ الألسنَة، كأنكِ جمعتِ أمام ناظِريهِ خَبَرَ من تفرّقت بهم السُّبُلُ والأمكِنَة، فسُقْيا لكِ أن عرفنا بسُيُولِ حِبرِكِ ما انطوت عليه سرائرُ الأزمنَة، لكأننا شهودٌ نراها رأيَ عَيْن، ومن شَبَرَ[3] الدُّروبَ شِبْراً شِبراً لا يسأل: أنتَ أيْن؟

ولله درّكِ منافحةً عن الغائب حتى يُقفِلَ عائدا، بسحرِ رسالةٍ وإن أتى العاذِلُ شيطاناً مارِدا، عن المظلوم في سجنه شديد السّواد، وكم أجدْتِ في اعتذاريّة نابغةِ بني ذُبيان والمعتمدِ بنِ عبّاد، صارخةً في وجه الظّلم: يا هذا إن العَدلَ على الأرض استوى، وإن ألقى الخطأ ثقله على كتِفَي ضعيفكم فضَلَّ وغَوى، فأضحى السّجانُ إزاء مسجونه مجرّدَ تلميذ، يَفْهَقُ[4] غيضاً وحنقاً وخيبةً وخسارةً كأنه خابيةُ نَبيذ، فلَمَمْتِ بسطرٍ أو سطرين شتات الأشباهِ والنظائر، كالعائلةِ الواحدةِ وشَّجَتْ بين أفرادها القراباتُ والأواصِر، فمن سواكِ مالِكٌ مُكنَةَ إعادة المحبوبِ إلى الحبيب؟ ومن غيركِ قادرٌ على تبديد وحشةِ الغريب؟ والغرباءُ شتّى حتى تباعدت بهم المرابِع، ويوماً ما تجتمع روافد النهر وتنتظم الخُطى على نفس المَهَايِع[5]...

فإن كان من شأن المحابر والأقلام ما قيل، من كشْفِ غُمّة الحزين وإحياءِ القتيل، فتخيّرْ يا دامَ عِزُّكَ لأقلامكَ فإنّ الحِبرَ دَسّاس، واكْتُب كأنما تزن الذّهبَ الخالصَ بميزان حَسّاس، وكُنْ على حذرٍ كمن أرادَ التأليف بين كُلَيبٍ وجَسّاس، فإنما الأحبارُ تُسالُ على الورقِ في نظمِ الفوائد، وما اصطَفّت الأقلامُ قَطُّ في زَبْرِ المكائد، فهي المنبّهاتُ إذا عقولُ الأمم تناعَسَتْ، وهي مَشاحِذُ الهِمم إذا السّواعِدُ تقاعَسَتْ، فإن نفع في الأسماعِ لطيفُ الكلام والهَمْس، واستجابت أعضاء البدن وتحرّك الرّأس، فغايةُ المُنى وعلى الحناجرِ بالأناشيد، وعلى عصفور الأيْكة بالتغاريد، أما

1- العُسُب: ج والعسيب جريدَةُ النَّخْلِ المستقيمةُ يُكْشَطُ خُوصُها.
2- الكَرانيف: ما يبقى من أُصُولٍ على جذع النخل بعد قطع السّعف.
3- شبَرَ: قاسهُ بالشِّبر، أي عرف الشيء والأمرَ معرفة وافية.
4- يفهق: فَهِق الإناءُ أي امتلأ حتى تصبّب.
2- المهايع: ج والمَهيع الطريق البيّنُ الواسع.

إذا قلّ العملُ وكثُرَ في القوم اللَّجَاج، فصُبَّ حِبركَ ذائقينَ إيّاهُ كالماءِ الأُجَاج، واقرَعَنْ آذانهم قرْعَ زِيادِ بنِ أبيهِ وابنِ يوسُفَ الحَجّاج، لعلّهم من سباتٍ يستيقظون، ومن غفلتهم ينتبهون، وإلاّ فما ينتفع الصّخرُ بالماء إلاّ بمقدار ما ينتفع زنديقٌ بـ(نون والقلمِ وما يَسْطُرون) !

17 يوليوز 2023

على أرض موسكو...

على بعد أمتار من مدخل مكتبة لينين في موسكو ينتصب تمثال الأديب الرّوسي العظيم فيودور دوستويفسكي، صاحب رائعة (الإخوة كرامازوف) و(الجريمة والعقاب) و(الشياطين) و(الأبله) وغيرها من الروايات والقصص القصيرة والمقالات النقدية؛ ولقد غادر الرّجلُ الحياةَ وهو علمٌ من أعلام الأدب العالمي وإرثٌ قوميّ لروسيا القيصريّة والاتحاد السوفياتي والجمهوريّة الروسية الحالية.

لم يتبوّأ الأدب الرّوسي مثابته العالية في سلّم الأدب العالمي إلاّ في أواخر القرن التاسع عشر ومطالع القرن العشرين مع الحضور القويّ لتولستوي وبوشكين وغوغول وتشيخوف وغيرهم، وهم أحد أعمدة الأدب الإنساني/ الوجودي ورموزه التاريخيين بشهادة النّقّاد...

شاكرٌ حقّا لأحد الأصدقاء وهو يتذكّرني أمام هذا العملاق ظنّا منه أنّ بيننا متشابِهاتٍ لمجرّد أنني حفرتُ أخدودين في أرض الرّأي وكلمتين في ساحِ المقالة ونِثاراتٍ هنا وهنالك، وأنا مجرّد صعلوك يتصعلك ببعض الحروف؛ فلستُ شاعراً يُستشهد بشعره، أو ناقداً عُدّدت مؤلّفاته، أو روائيّا خُلّد اسمه... ولكني أقرب إلى ما قاله عُروةُ بنُ الوَرد:

وَسائِـــلَةٍ أَينَ الرَحيـلُ وَسائِلٍ وَمَن يَسأَلُ الصُعلوكَ أَينَ مَذاهِبُهْ؟
مَذاهِـبُهُ أَنَّ الفِجـاجَ عَـريـضَةٌ إِذا ضَـنَّ عَنـهُ بِالفَـعـالِ أَقـــارِبُـهْ

غير أني أجزل له الشّكر على حسن الظّن وصفاء السّريرة، متمنّيا له إقامة طيّبة على أرض العجائب الخمسة: المانْرْيُوشْكا ومترو الأنفاق الاستثنائي ورائد الفضاء يوري غاغارين وعالم الرياضيّات غريغوري بيرلمان ولاعب الشطرنج غاري كاسباروف...

24 غشت 2023

أي بُنيّ

لعلّك مازلتَ تسمعني على ما في كلامي من المَلالة، والحقّ أنّ السُّيوف على متانتها تضعف منَ الكَلالة، وكما أنّ قوّةَ البديهة وحضورَها قدرةٌ روحانيّة، فالغفلة وتراخي الذّهن كلاهما جِبِلّة بشريّة، فاصبرَنّ على هذا الكلام، ولا تُكثر الشّكوى والمَلام، فقد يأتي عليك حينٌ من الدّهر لن يستأنس بوجودك من العوامّ إلا مستدقُّ الكائنات من خَشاش الأرض والهوامّ...

وبعد، فقد رأيتُكَ تفزع من هول ما تراه في يومك، ولبثتَ تعي في ثوان ما لم تُعلّمه إيّاك السِّنون في صحائف كُتبك، لتتيقّن أنّ الأخذ عن خبرة وتجربةْ خير من العكوف سواد الليالي وبياض النُّهُرِ في ألف مكتبَةْ؛ وإذا قال راجِزُنا الأوّل: " ما العلمُ إلاّ ما وعاهُ الصّدرُ "، فإنّنا - على ما في كلامه من سلامة المعنى - نقول: ماذا يُغني المرءَ امتلاكُه جنانا صلباً ومعرفةً بأدقّ شؤون الحرب ولم تجتمع أصابع كفّه على مقبض سيفٍ قطُّ؟ وماذا تغني المرء قراءة مجلّدات في علم السّباحة إذا كانت فرائصه ترتعد في ضَحْضاحٍ من ماء؟

إنّ الحياة يا بنيّ ستفتح عينيك غداً أمام حقيقة لا لُبس فيها، ظاهرُها كباطنها وليلها كنهارها، مفادها أنّ مِلاكَ أمرٍ ما إنّما يتأتّى بحجم ما تنفقه من أجله جهداً وعرقاً وتمريناً، ولا ينقاد لك الشيء إلاّ إذا انغمستَ فيه روحا وعقلا، حتّى إذا أحسستَ بغلبةٍ عليه وقدرة على إحكام مَقادته، آنئذ يمكنك الاطمئنان على أمرك معه، فإن أردتَ خَفْضه خفضت، وإن شئتَ رفْعه رفعت، وإن اشتهيتَ تثبيته ثَبَّتت؛ وليكن حالك جُملةً كحال مُتعهّد أحصنة، فإذا لم يأنَس الحصانُ من راكِبِهِ قوّةً في إحكام اللّجام وخفّةَ حركةٍ، جَمَحَ ونفَرَ من طبعه وألقى بالرّاكب أرضاً ! فكذاك كلّ أمر أردت مزاولته، فإمّا أن تقتُله خبرة وعلماً أو يقتلك سذاجة وجهلاً، ولا أرى لك منزلةً بين المَنزِلتين...

يا بنيّ، دونَك أصحاب الصّنائع وما أوجدت أكفُّهم وسواعدهم من بدائع، سَلْهُم يُجيبوك كيف تمّ لهم ذلك، أوَحْيٌ من السّماء جاءهم وهم راقدون، فأصبحوا في طرفة عينٍ مُنْشِئين مَكينين، أم أنّ لهؤلاء قوّة إرادةٍ في قضاء الوقت في التّمَهُّر واكتساب الخبرة مع افتراض تكرار الخطأ وتجاوزه وإعادة السقوط والنهوض؟ سلهم يا بنيّ كيف يكون البنّاء بنّاءً والخزفيّ خزفيّاً والنّجّار نجّاراً والجصّاص جصّاصاً والكاتبُ كاتباً والفارسُ فارساً؟ بذهنٍ وَقّادٍ ويقظةٍ حاضرة وسواعد إلى العمل الدؤوب مُسْرِعةْ، أم بتكرار " أنا الذي..." السبيكة الصّوتيّة المعروفة، وملء الدّنيا كالأطفال بالصّياح والجعجعةْ؟

وبعد، فإذا كان المقال يَضَحُ بالمثال، فإننا نذكّرك بإرنست رينان أكبر أساتيذ الأدب في عصره، الذي تقدّم للانتخابات، متعوّداً مخاطبة الجماهير المثقّفة، فلمّا واجه سواد الشّعب غابَ وجهُ الصّواب لديه والتبس عليه الأمر، ناسياً أنّ التمرّس على مخاطبة العامّة من النّاس بقدر عقولهم وحاجاتهم أسبق من التّرشح منتخَباً، غافلاً أنّ السّياسة محضُ لسانٍ ذَلِقٍ ومكرٍ ودهاء، وافتح كتاب مثالب الوزيرين واسترزد، وقد صدق الأوّل منشداً:

وقد يَقرضُ الشّعرَ البكيءُ لسانهُ وتُعيي القوافي المرءَ وهْوَ لبيبُ

فلو سأل رينانُ السّياسيَّ المحنّك كيف يغيّبُ وعي الجمهور لأعطاه أسرار معجزته! كذلك كان أبو الطّيّب المتنبّي الذي تغنّى بالسّيف وبالفروسيّة وبساحات الحرب والبطولات، ولكنّه تغنّ وقعقعةُ لسانٍ وقوافٍ لا بالدروع وبالسّيوف، ككلّ من غاصت أقدامهم في الأوحال لكنهم يقارعون النّاس بأرنبات الأنوف... ولعلّك تدري أنّه أُرسِل إلى القبر في أبسط نزال، فلو كان يشحذ سيفه ويدرّب نفسه كما درّب لسانه المدّاح والهجّاء لوافقت ادعاءاتُه فِعالَه، ولكن الشعراء يقولون ما لا يفعلون، فأنصفَ الدّهرُ ضُبّهْ، وخُلِدتْ مع أبي الطّيّب السُّبّهْ، والفروسيّة لا تُنال بأبيات حِسانٍ من الشّعر وإنّما بألفِ ضربةٍ وضربَهْ...

هذا حال من أراد قبساً من السياسة والفروسيّة، أمّا إذا استهوتك فنون الكلام واستلبك المعنى واللفظ والأسلوب والتّمهّر في الكتابة نثراً وشعراً، فسَل أبا هلال العسكريّ يُجِبْكَ أن الكتابة صناعة كأيّة صناعة تحتاج المِران والجهد والعمل غير المنقطع حتّى تأتيك العبارات المشتهاة طيّعة منقادة، فكلّ كلام مرتّب سليم وقع في النفس وفي العقل موقعاً حسناً، فبهر الإحساس وبثَّ الإيناس كما يُقال، فاعلم أنّ قوّةً عاملة وذاتاً عالمة قد سبقتاهُ إلى سمعك وبصرك، أمّا إذا اهتزّ اللفظ مكانه وتفكّك المعنى، وقيل في حَرِّ الصّيف ما يُقال في قَرّ الشّتاء، فاعلم أنّ سوء الصّناعة من فساد البضاعة وضعف المهارة وقلّة البراعة، والطّعنُ في المصنوع طعنٌ في عقل صاحبه؛ ولعلّه تناهى إلى سمعك قول عليّ بن الجهم - والخبر موضوع رُبّما- في مدح الخليفة المتوكّل:

أَنتَ كَالكَلبِ في حِفاظِكَ لِلوُدْ دِ وَكَالتَّيسِ في قِراعِ الخُطوبِ
أَنتَ كَالدَلوِ لا عَدِمناكَ دَلواً مِن كِبارِ الدِّلا كَثيرَ الذَّنوبِ

فعلى براءة في هذا البدويّ المطبوع وفي كلامه الطّريف، كانت تُعوزه خبرة بمجالس الملوك بقدر ما ملك خبرة بمجالس الرُّعاة؛ فقِسْ على هذا وذاك في كافّة صنائع البشر. وأخيرا تذكّر أنّ كلّ إجادةٍ من العِباد لابدّ مسبوقة بكُلْفَة فاعلٍ ومعاناةِ صانعٍ وخرطِ قتاد...

تحيّة تقدير

لا يخلو زمان من أولئكم الذين تتجه إليهم الأنظار، فلا يكاد أحدهم يطلق الكلمة حتّى تكون إليه الأسماع متطلّعة، خاصّة إذا عُرف المتكلّم بلسانه الفصيح وكلامه البليغ وببعض علمٍ حصّله من قراءاته واجتهاداته؛ فتجد الجمهور العامّ مصيخا إليه ولعلّ أغلبهم لا يدرون عن الموضوع شيئا، ولكنّ تحمُّسهم له - أي للموضوع- نابعٌ مما نسجته العاطفة من خيوط حب وإعجاب حول هذا أو ذاك ممن يتحدّثون في موضوع ما. وهذه من هدايا الحياة التي لا يُمنحُها إلاّ ذووا حظّ عظيم...

نقول هذا بعد وقوفنا على حوار سائل وتفاعل حيويّ على منصّات التواصل الاجتماعي عن رأي في الأدب يدخل في خانة القديم والجديد، وهذا موضوعٌ حُبّرت عنه أطنان من الورق، وقيلت فيه أطباقٌ فوق أطباق من الكلام، متأرجحة بين المنتمين "اهتماما" إلى القديم وبين أولئك الذين يفضّلون الجديد الأقرب إلى عصرهم وزمنهم، ولكلّ حججه وأدلّته، وليس هذا مقاما لعرض هذا المسار الطّويل من النّقاش. ولكن، من باب أوّل أعجبنا حقّا أن يكون الحوار بين صديقين عزيزين، الأوّل أبو قيس محمد رشيد من مصر العالِمة، أزهريٌّ مهتمّ بعلوم الشريعة وبالشّعر القديم شرحاً وتفسيراً وله كتب منشورة؛ أمّا الثاني فاسمه محمد لغظف ولد محمّد، ابن موريتانيا الشّاعرة، منشئُ قناة الأمالي؛ وكلّنا يعلم شأن الأزهر المصريّ والمَحظرة الموريتانية في تاريخ العلم الشَّرعي والأدبي على السّواء وما أنجباه من أعلام الدّنيا في مجالات عدّة. فالرّجُلان عبّر كلّ منهما عن وجهة نظره في الشّعر العبّاسي والجاهلي وأفضليّة أحدهما على الآخر زمنيّا وفنّيّا، ناثريْن بين جمهوريهما ما في كِنانتيهما من حجج تقوّي طرح كلّ واحد منهما.

من باب ثان أعجبنا هذا الأخذ والرّدّ الدّائر بين روّاد هذا الفضاء الأزرق، وبه نتذكّر تلكم الحركة الأدبيّة التي عرفها محور مصر والعراق والشّام، والمجادلات الصّاخبة بين أدباء القرن العشرين، أو المعارك الأدبيّة بتوصيف النّقّاد؛ ومن يعلم، فقد ينتعش الأدب من جديد متبوّئا مثابته الأولى، وربّما صحّت الأجساد بالعللِ...

يصعُب حقّا الكلام عن الكلام بتعبير التوحيديّ، ولكننا نرى أن هذا السّجال كان وسيبقى مادامت زوايا النّظر تختلف والذوائق تتباين، وكما كانت الموازنة بين الشّعراء قائمة منذ أمد بعيد، ستبقى الموازنات دائمة الحركة مادامت ضربا من ضروب النقد، والنقد ملازم للأدب مادام التفاعل الإنسانيّ يدبّ على هذه البسيطة، ومادامت أهواء النّقّاد ومناهجهم ومدارسهم تختلف فانتظر ميلا إلى هذا وإلى ذاك، فهذا يستهويه اللفظ وآخر يستهويه المعنى وآخر جودة السّبك

وآخر ينقّر عن الشواهد النّحويّة وآخر عن السياسة وآخر عن الدّين وهلمّ جرّا، والظاهرة الإنسانية غير محكومة بالثبات؛ أمّا العبقريّة الأدبيّة فهي موزّعة بين الحقب والأزمان، فلا يمكن حصرها في جيل أو حقبة أو مرحلة تاريخية معيّنة، وكلّ من أسعفته اللغة والقريحة الشعريّة والخيال النابض فقد ملك من أدوات الشّعر ما يجعله شاعرا بحق.

حسبنا إذن ما قلناه، مكتفين بتقدير الرّجلين الفاضلين على ما يبذلانه من مجهود في سبيل إثراء المحتوى العربيّ على هذه المنصّات التي أصبحت مستنقعات للجهل والعفن الاجتماعي، راجين الله أن يلهمها التوفيق والسّداد...

03 أكتوبر 2023

تبّت يدايَ ...

أمّا قبلُ، فما أسوأ النّدمَ يأتيكَ حين تكون " بِضْعَ " إنسان أو بضع إحساس وشعور، شبيهاً بالإنسان أقصدُ، موازنةً بما لدى النّحويّين من "أشباه" الجُمل، فلا هي اسميّة ولا فعليّة؛ ما أسوأهُ يزحف عليك وقد استسلمت فيك الطبيعة البشريّة لأغلال الحياة وتصاريفها الثقيلة...فليت النّدم ينفع !

وما أشدّ ندمي - دون مبالغة - على انتظامي في سلك التعليم منذ ثِنْتَيْن وعشرين سنة، كأنها "كومة" أعوامٍ جمعتُها في كيس وألقيت بها في أقرب وادٍ يجرفها النّهر إلى أقرب ساحل. ما تركتْ لي شيئا أرفع به رأسي من متاع مادّيّ أو معنويٍّ، أقول على الأقلّ هذه من فضائل "مهنة التعليم الشريفة ! "... بل إنّ أبسط نجّار أو رصّاص أفضل منّي بمراحلَ من أيّ الجهات بدأتَ المفاضلة، وهذه - وغيرها - مهن لا تنقصها الأهمّيّة والشّرف؛ إنّما نحا كلامي منحى الخروج من نفق بعمىً وعورة مكشوفة، أمّا خُفُّ حُنين - لو حظيتُ به - فهو ربحٌ وحظٌّ عظيم !

أمّا بعد، فإنّ الذي يبحث عن الشهر الثالث عشر فقد وجده، والباحث عن الدقيقة السّبعين قد وجدها، والباحث عن اليوم الثامن في الأسبوع قد وجده، والباحث عن الكبريت الأحمر قد وجده؛ في حين مازال هذا الـ(إبراهيمُ) باحثا عن نفسه وسط البَدَهِيّات ولم يجد له هويّة وكينونة، وإنّ أغربَ ما في الحياة أن تسقط في طريق مُعبّدة...

وليسَ يصحُّ في الأفهامِ شيءٌ إذا احتاج النّهار إلى دليـلِ

وبعـد، فإنّي لا أقول هـذا لغضـبٍ تنزلَ عليّ السّـاعة، ونحن في اليوم العالميّ للمدرّس، أو لأنّي أرى موضع ومثابة رجل التّعليم اليوم بين الكائنات الحيّة، لا وألفُ لا، لأن أغلب معارفي يعلمون أنّي كتبتُ كتابي الأسود "الأوّل" - والثاني بعد السّاعة الأولى من التقاعد النسبيّ آت - الموسوم بـ"مدرّس تحت الصّفر" وهو الشّهدُ المُرُّ الذي جنيته بعد خمسَ عشْرةَ سنة من الرُّكود في إحدى القرى الرُّودانية - على أهلها ألف تحيّة - محروما من حقّ "انتقال" بحجّة أنّي لا أملك زوجةً موظفة، كأنّ ربّات البيوت الحرائر دون وظيفة، كأنصاف بشر وأقزام إنسيّة لا يستحققن أُنساً ولا رعايةً، حينها - وعودوا إلى الكتاب - تمنّيتُ أن أمتهن التعليم في أكثر البلدان إلحاداً وبُعداً عن الأديان والأرباب والآلهة وكلّ هذه السّرديّات التي لا تساوي - أعزّكم الله - شبر ورق من ورق المراحيض ! أمّا قضيّة التّرقّي فلغزٌ مازلتُ أجهلُ كيف أجد له حلاًّ، رغم أنّي لا ألقي بالاً لما هو مادّيّ كثيرا، لأنّي ابن كوخٍ وفقرٍ، ولم أعتد رفاهيّة في عيشي مأكلاً ومشربا وملبساً؛ ولكن الغريب أنّي اجترت امتحانات التّرقّي

أكثر من ثلاث مرّات، وكتبتُ كما يكتبُ النّاس، ولا أقولُ أفضل منهم، فقد أكون غبيّا لا يفهم كلامَ باحثٍ من الرّباط، أو جاهلاً إعداد جذاذة في النّحو والصّرف، أو غافلاً عن ألفبائيّة تحليل نصّ تربويّ؛ كلّ هذا ممكن ولا أدّعي مُكْنَةً في علم أو شيء، فأنا في آخر المطاف مجرّد مُعلّم، والمعلّمون، بتعبير الجاحظ، أقلّ الناس عقلاً، ولا بأس أن يجود الزّمان بأبي جهلٍ ثانٍ، والترقّي في آخر المطاف أرزاق وحظوظ سماويّة، وإنّي مُسلّمٌ بهذا، لأنّ الحلول إذا عَدِمها العقلُ وَجدها اللاّعقلُ ما وراء الطبيعة... كالذي عسُرَ عليه البرهان عن عدم إمكانية التقاء خطّين متوازيين، فقال ببرودة: سيلتقيان بإذن الله !

وبعد، فإن صديقا طلب منّي رسالة في هذا اليوم، فَهاكَها زفرةً كتبتُها وأنا متقشّفٌ أشدّ التقشّف في ما أردتُ قوله، لأن التدوينات لا تحتمل أكثر من هذا، والله يعلم أنّي أقوم بواجبي - في انتظار تقاعد نسبيّ- إرضاء لتلكم العقول الطّريّة المسكينة التي أخشى حقّا أن يبتلعها المستقبل بأنظمته الفاسدة التي تصفّق للاعب كرة قدم ولا تبكي لجائع ولا لبائس ولا لجاهل... فيالها من حفرة حفرتها لنفسي، فتبّت يدايَ على أوّل محضر وقّعته...

5 أكتوبر 2023

يا مدرّسي المغرب اتحدوا !

في سنة 1848 كتب كارل ماركس وفريدريك أنجلز البيان الشيوعيّ المعروف، شارِحَيْنِ فيه عَوَرَ النظام الرّأسمالي، طارِحيْن خلاله الأساس لنظرية اجتماعية عادلة، متنبِّئَيْن فيه بنظام اشتراكيّ بديل ينتشل البروليتاريا المقهورة من مستنقع الهشاشة والفقر ومن عبوديّة مطلقة لربّ العمل كمتحكّم في "رقبة الرّزق " والأجر اليوميّ؛ لكن الهدف الأسمى من البيان كان الدّعوة إلى توحيد صفوف الطبقة العاملة في المعامل والمصانع وفي البلاد، ومن ثمّ في العالم كلّه، نائيا بالعمّال عن كلّ الصّراعات الصّبيانية على الأسواق ومراكز البيع. فكان على اتحاد العمّال تجاوز نطاق المحلّيّة على المستوى الفكري والسّياسي والتنظيمي إلى نطاق أوسع ذي بُعد إقليميّ وعالميّ بوعي مشترك ينتصر لقضيّتهم.

إنّنا اليوم، ونحن نكاد نبلغ نصيف الألفيّة الثّالثة، مجبرون - أكثر من أيّ وقت مضى - على خوض معركة الهويّة والكينونة قبل خوض أية معركة تتغيّا تحصيل عوائد وغنائم ماديّة؛ فلقد أصبح - عكس الأمس - المنتسبون لمهنة التعليم سُبّةً على جبين التّاريخ المعاصر وعاراً يُخجل منه في كلّ مقام، إلى أن استحالوا مادّةً للفكاهة والتّندّر وتزجيّة الوقت، تماما كالمهرّج لا يُروّح عن النّفس حتّى يغدو أضحوكة ومبعثا على السّخريّة !

يا مدرّسي هذا البلد، لقد بلغنا مِن المهانة والمسخ - شئنا أو أبينا - ما الله عالم به، ومن أعماق القاع "الاجتماعي" ما يجعلنا نعيد طرح سؤال الهويّة: من نحنُ؟ وإنّنا - على الأرجح - نعرف جوابه قبلاً، بما يلوكه العامّة على ألسنتهم، والآن بعد صدور النّظام الأساسِ حيث تأكّد كلّ شيء وانكشف للضرير قبل البصير. لهذا، أصبح من اللاّزم - وعامّة رجال ونساء التّعليم انتهجوا سياسة "الفصول الخاوية"، ردّا على ما اكتشفوه من حجمهم الحقيقيّ في عيون الدّولة - خوض معركة كينونة عنوانها: "أن نكون أو لا نكون"، قطعاً مع عصور "محاكم التفتيش" والاستعباد والاستحمار وقضاء "الأغراض" التربويّة بجيوب الشّغّيلة وبالاستدراج العاطفي ورفع شعار "مصلحة التّلميذ"، كأننا نجهل هذه المصلحة التي لا ينبغي أن تُقضى إلاّ على ظهر ومن كِيسِ دابّة اسمها "المدرّس"... تماما كأفكوهة بني أميّة في صِفّين، الهاتفين - والمصاحف مرفوعة على أسنّة الرّماح - بقولهم: "إن الحُكم إلاّ لله" !

يا مدرّسي هذا الوطن، إنّكم قرابة 250 ألف صوت وعقل ويد إذا استثنينا من يقفون في صفّ الدّولة - وهم أحرار على كلّ حال ولا تثريب عليهم -، وليس يفوقكم جيش المسيرة الخضراء إلاّ ب 100 ألف؛ لهذا لا تستهينوا بقوّتكم وبصوتكم مادامت قضيّتكم عادلة ومطالبكم مشروعة، ورحم الله جمال الدّين الأفغاني الذي قال مخاطبا الشعب الهندي المستعمر آنذاك من الدولة البريطانية:"

أيها الهنود، لو كنتم سلاحفَ لاستطعتم بعددكم أن تَجُرُّوا بريطانيا، ولو كنتم ذُبابا لزعزعتموها بطنينكم"!!.

فإذا خُتم المانفِسْتُو الماركسيّ إذن بعبارة " يا عمّال العالم اتّحدوا "، فاعلموا أنكم لستم أفضل حالا من عمّال أوروبا في القرن التّاسع عشر الذين سعوا إلى الاتّحاد وتنظيم الصّف والصّدع بكلمة واحدة، لكن بوسائلكم السّلميّة القائمة على سياسة "الفصول الخاوية" إلى أن تستعمرها العناكب والبُوم والحمائم، لعلّ هذه الذّهنيات العائشة في مكاتب فارهة تهتدي إلى معنى:

المرءُ إن كانَ حيًّا يُستهانُ به ويعظُمُ الرُّزْءُ فيه حين يُفتقدُ

والسّـلام

26 أكتوبر 2023

(نقطة نظام) ما ذنب التلميذ؟

طلع علينا أحد المتسلّحين بحرف الدّال - والقصد أنه دكتور - بتدوينة تحمّلنا نحن المدرّسين معرّة توقّف التّلاميذ عن دراستهم، مُحمّلاً إيّانا ذنبهم ووو... ولكن لا بأس سنردّ رغم أن المزاج العامّ والوضع المحتقن لا يساعدان على الرّد على كلّ "دكتور... ".

خاضت الشّغّيلة التعليمية منذ أيّام معاركها النّضاليّة ضدّ "النّظام الأساسِ" كباقي "موظّفي" الدّولة على هذا الكوكب، وللإشارة، فقد بدأ إضراب المدرّسين في كندا دولة الرّفاه، فما ظنك يكون الأمر في دولة الفقر والجوع والمظاهر الخدّاعة كالمغرب؟... خاض الممارسون في قطاع التعليم حقّهم الدّستوريّ في الاحتجاج كما قلنا ضدّ نظام خاطتهُ الطبقة الرأسمالية بما يخدمها ويخدم الإملاءات الأجنبية ويكتم آخر أنفاس الطبقات الميّتة من الشعب المغربي الصّبور صبر الحمير...

كان ما كان، فضمّ الآباء والأمّهات - على بساطتهم - أصواتهم لصوت هذا المدرّس لأنّهم، حين جَدَّ الجِدُّ، عرفوا أخيراً ما معنى أن تفرغ المدرسة من أهلها، ويُفتقد أوتادها وأعمدتها، كما قال الحمدانيّ:

سَيَذكُرُني قَومي إذا جَدَّ جِدُّهُم وَفي اللّيلَةِ الظَلماءِ يُفتَقَدُ البَدْرُ

علماً أنّ تلكم الجيوش المنتفضة لم يُحرّضها أحد ولم يوقظ وعيها أحد، إنّما الوضع في مهده كان قابلا للانفجار بسبب الغليان الشعبي من أزمة غلاء أسعار المحروقات والمواد الغذائية التي أعجزت الأسر ذات الدّخل المحدود، فأعادت الدّولة الشعب إلى زمن الخبز الحافي، فجاءت قشّة المدرسة الفارغة والتقى السّلكان العاريّان، وحدث ما كان منتظراً بعد صمتٍ وصبرٍ طويلين ... والطّبلُ تُخرق جلدته بطول ما كان يُنقرُ، وليس يُخرق من النقرة الأخيرة فقط...

لكنّ بعض "عُلمائنا" من أصحاب "حرف الدّال المهملة"، سواء ممن غادروا مواقع التدريس، تاركين الوزرة البيضاء إلى بدلة أنيقة وربطة عنق، ومنصب آخر يوفّر لهم هاتفاً وسائقاً وعصاً يهشُّ بها على المدرّسين؛ أو ممّن يملك حسابا فيسبوكيا أزرقَ ويبصق فيه ما يريد ... أولئك كلّهم يتساءلون: ما ذنبُ التّلميذ وسط هذه العجاجة؟

هذا سؤال مشروعٌ طبعاً - وكلّ الأسئلة مشروعة حتى وإن خالفت المنطق - وقد طرحه المدرّس على مسؤولي هذا الوطن منذ فجر الاستقلال قبل أن يطرحه المتفيقهون في أيّامنا هاته ... وسنجيب عنه، ليس بصناعة رجل القشّ وادعاء البطولة أمامه، كأن أقول مثلا: وما ذنب النساء

اللائي يضعن أحمالهن على أرصفة المستشفيات؟ وما ذنب المواطنين الذين ينتظرون أمام المكاتب لساعات وأيام من أجل توقيع موظف غادر إلى شأنه الخاص؟ وما ذنب ملايين العمّال الذين لا تتجاوز أجرة يومهم 70 درهماً؟ ما ذنب مظلومي هذا الوطن الذين سُجنوا بمالِ غنيّ أو برشوة راشٍ وسط محكمةٍ يُفترض أن تكون معدا للعدل والإنصاف؟ وما ذنب من يُهجّرون من منازلهم لتشيّد الدّولة مكانها ملعبا أو فندقا؟ وما ذنب البسطاء في الأسواق الذين يئنّون تحت سياط دركيّ وشرطيّ؟ وما ذنب الذين عُزلوا بين جبال الحوز منسيّين هنالك دون أدنى شروط حياة كريمة؟ وما ذنب الأميّين والبطاليّين وفاقدي عملهم؟ وما ذنب المغاربة الذين يعانون جحيم الغلاء والظلم والذّلّ والاستعباد بعد أن كافأهم المسؤولون بهذه المحرقة الاجتماعية؟ ما ذنب هذا وتلك؟ فلماذا لم نحاسب الممرض والطبيب وموظّف العدل وأصحاب الشّركات والدرك والشرطة ووو ...؟ أعرف أنّ برستيجكَ الاجتماعيّ الآن يا صاحب ربطة العنق لن يسمح لك بتداول هذه التساؤلات حتى في أحلامك، فهوّن عليك ولا تتعرّق، فلستَ مطالبا بإجابة ...

أمّا ذنب التلميذ فهو لدينا مسبوق بذنوب الدّولة، وهي كثيرة يا سيّدي "الدّكتور"، هل نسيتها أم تناسيتها؟ فما ذنب من لم يجد أصلاً مدرسة وهو في سن التّمدرس؟ وما ذنب التلميذ يدرس في حجرة مهترئة كاريكاتورية؟ وما ذنب التلميذ يأتي جائعا إلى الحجرة - إن وجدها - ولا يجد مطعما يطعمه وولائم المسؤولين باذخة؟ وما ذنب التلميذ يدرس وسط 45 فردا؟ وما ذنب تلاميذ مستويات عدّة يُحشرون في حجرة واحدة ويُدرّسهم مدرّس واحد لا شريك له؟ وما ذنب التلميذ تفتقر مدرسته لأبسط وسائل الإيضاح، بل إلى الطباشير أحيانا؟ وما ذنب التلميذ ينقطع عن الدراسة لعدم توفّر نقل مدرسيّ؟ وما ذنب التلميذ لا يجد في مدرسته ماء ولا إنارة ناهيك عن المستلزمات الطبيّة؟ وما ذنب التلميذ في المناطق الباردة لا يستفيد من التدفئة؟ وما ذنب التلاميذ يتوصّلون بـ 30 في المئة فقط من برنامج مليون محفظة؟ وما ذنب التلميذ تكالبت عليه المطابع ودور النشر فأصبح من المَرْجع ألف مرجع - المفيد، المنير، واحة... - إرضاء للمقاولات تلك؟ وما ذنب التلميذ لا يملك ما يمكّنه من التعليم عن بعد؟ وما ذنب التلاميذ الذين قضوا نحبهم في زلزال الحوز وأساتذتهم ولم يتلقّوا أبسط تعزية كما يتلقّاها أصحاب السراويل السّاقطة وتافهو هذا الوطن؟ وما ذنب التلميذ لا يستفيد من التأمين المدرسيّ بشكل فعليّ؟ وما ذنب التلميذ لا يستفيد شيئا مما يؤدّيه واجباً لجمعية الآباء والجمعية الرياضيّة؟ وما ذنب التلميذ لا يجد في محيط مدرسته مكتبة تدعم مكتسباته، ومرافق حيويّة تساعده على تفجير مواهبه؟ وما ذنب التلميذ لا يُشجّع بمنح دراسيّة داخل وخارج الوطن؟ وما ذنب التلميذ يشاهد

على تلفازه إعلاما معاقا وبرامج تافهة تشوّه وعيه الطّري؟ وما ذنب التلميذ يُبتلى بوزير لا يُحسن تركيب جملة سليمة مفهومة؟

أما الطّرفة -وهذه تحت الحساب- فهي حين أُعجب مخرج مسلسل (PRISON BREAK) الأمريكي بداخلية الثانوية التأهيلية ابن الهيثم التقنية مكانا للتصوير لأنها تشبه السّجن بكلّ تفاصيله، فلم تضف شركة الإنتاج إلاّ بعض التفاصيل ... والمصائب ذاتُ شجون ...

فما ذنب التلميذ إذن أيها الدكتور العظيم؟ الجواب بسيط أيها العلاّمة ... ذنبه مردود إلى أمّه التي أنجبته في المغرب ... تماما، المغرب هو ذنبه ولا أحد... بمسؤوليه الذين لا يعرفون شيئا عن واقعه، مكتفين بتلقّي قرارات وأرقام كمثل الحمار يحمل أسفاراً؛ بمسؤوليه الذين جعلوا هذه الوزارة مرتعا للفساد ولنهب المال العامّ؛ وأنت تعرف كلّ هذا يا عالم زمانه وفريد عصره، أمّا أن أقنعك به فهذا مستحيل طبعا، لأنّ عقل (بعض) الدّكاترة عالٍ في سُلّم التّطوّر البشريّ، وبعض الناس، أمثالك، إذا سمعوا نكتة لن تقنعهم بالضحك -كما جاء في تاجر البندقيّة- حتّى ولو أقسم فلاسفة اليونان كلّهم على أنها نكتة ظريفة !

يتبع...

04 نونبر 2023

تعليم الأجيال قبل المونديال (توضيح)

أمّا قبل، واعتبارا للواجب الأخلاقي، فينبغي التّرحّم أوّلاً على شهيدة النّضال والفعل التّربويّ، الأستاذة رحيمة المختوم، المتصرّفة التّربويّة التي فارقت الحياة إثر وعكة صحية، عشية مشاركتها الاثنين الماضي في اعتصام لخريجي 2022 من مسلك الإدارة التربوية بمقر أكاديمية جهة الشرق؛ رحمها الله تعالى وألهم ذويها الصّبر والسّلوان... ثانيا وجب -كالعادة- التّرحم على القانون وحقوق الإنسان وحريّة التّعبير في هذا البلد، إثر ما يتعرّض له رجال ونساء التّعليم من قمعٍ لمسيراتهم الاحتجاجيّة السّلمية من طرف السّلطات العموميّة في بعض ربوع هذا الوطن، ورحم الله محمّدا الماغوط قائلا: "مُعظم أوطاننا خائنة وكافرة للعشير وإنها لا تُساوي بنظر الحافي أكثر من حذاء!"؛ فإنّا لله وإنّا إليه راجعون...

أمّا بعد، فقد طلع علينا رئيس تحرير جريدة الأحداث المغربيّة المختار الغزيوي بمقال، مستغربا فيه من وَسْمِ -أو الهاشتاغ بلغة الإعلام- "تعليم الأجيال قبل المونديال"؛ الوَسم الذي يبدو أنّه أزعج البعض ممن يندفعون بحماسة متسرّعة إلى إطلاق أحكام القيمة على قضايا لا ينبغي إدارتها بمنطق عاطفيّ؛ ولكنّ الصّحافة عيبها السّرعة وملاحقة الزّمن، وبيع الخبر حاملاً موادّ مثيرة لا منطقيّة يقبلها العقل! ولا تثريب على أهلها، فقد تعلّم أمثاله -ونستثني العقلاء- في مدارسهم أنّ الخبر الذي يعضُّ فيه إنسانٌ كلباً أهمّ من خبر يعضُّ فيه كلبٌ إنسانا !

قال "صحفيّنا" في مقاله الموسوم بـ"أجيال ومونديال !!!": "هذا نتاج تفكير بسيط تذكّرنا بسببه من كانوا يرفعون شعار (لا للتّيجيفي)، و(آش خاصك ألعريان؟ تيجيفي أمولاي)، وشعارات مماثلة تخوّفا من مشاريع عملاقة أتت بالخير كلّه للبلد... والخلط بين أمور لا رابط بينها إلاّ الشعبويّة الفارغة..."؛ وعليه يكون الرّبط بين التعليم والمونديال خلطاً وعدم توفيق، فهذا زيتٌ وذاك ماء، والمادّتان غير متجانستين، فلا داعي لربطهما كيميائيّا من باب "الشعبويّة" الفيزيائيّة، والملعب والفصل الدّراسيّ لا يجتمعان إذن إلاّ من باب "الشعبويّة" الذهنيّة المسيطرة على المُدرّسين غير العقلاء بوصف صحفيّنا الكبير...فتقبّل -يا رعاك الله- هذه المضمضة الكلاميّة البسيطة من أحد أصحاب الطّبشور، ولك حقّ التّعقيب أنّى وكيفما شئتَ...فإنّا ههنا قاعدون...

أوّلاً: عرفَتْ المدرسة المغربيّة تقلّبات كثيرة منذ افتتاح عصر الإصلاح سنة 1957 مع اللجنة الرّسمية لإصلاح التّعليم، حين كانت المدرسة العموميّة تتنفّس في الهواء، إلى الرؤية الاستراتيجيّة 2030/2015، حيث أصبحت تتنفّس في الماء، وليس الآن فقط، ولم يذكر أحدٌ المنجزات

الرّياضيّة إلاّ بفخر، سواء في ألعاب القوى وكرة القدم والأصناف الرّياضيّة الأخرى، مع العلم أن نساء ورجال التّعليم لبثوا على سَتر أوضاعهم المهنيّة والشّخصيّة عن الشّعب منذ أُحدثت المدارس التّظاميّة، حتّى ظنّ النّاس أن الأستاذ عائشٌ في بحبوحة ورغد ورفاه !

ثانيا: قبل اليوم لم يكن ثمّة داعٍ لربط الرّياضة بهموم التّعليم، وقد عرف هذا القطاع ثلاثة وثلاثين وزيراً (من محمد الفاسي إلى بنموسى، بمعدّل وزير كلّ سنتين بالتقريب) بمعنى أن القطاع عرف 33 وزارة، ولم تُربط أيّة وزارة قبل وزارة بنموسى بالشّأن الرّياضي العام إلاّ بما يرتبط بالرّياضة المدرسيّة وإعداد الشبيبة للمنافسة في البطولات المحلية والوطنيّة والدّوليّة، بإشراف أساتذة التّربيّة البدنيّة والجمعيّات الرّياضيّة؛ ومادام المونديال إذن من قضايا الرّياضة، فارتباطه بالتّعليم أصبح محسوماً، باعتبار "وزارة التربية الوطنيّة والتعليم الأوّلي والرّياضة" أصبحت وزارة وصيّة لزاما على قطاع الرّياضة، وللوزارة وزير واحد هو بنموسى، فلو كانت هنالك وزارة مستقلّة للرّياضة - كوزارة الشبيبة والرّياضة سابقا - ما كان لهذا "الهاشتاغ" وجود في الأصل ولا معنى ...

ثالثا: إن كان الأمر محض حساسيّة من المونديال والرّياضة عموماً، فلماذا لم يربط المدرّسون تعليم التلاميذ الأحياء بالإنفاق على الأضرحة وهي مقاماتُ أموات، علما أنّ أضرحتنا مجموعةً لن توفّر للدّولة عُشُرَ مُعيشير عائدات ضريح فلاديمير لينين بمفرده لروسيا؟ كذلك، لمَ لَمْ يربط المدرّسون تعليم التلاميذ بالإنفاق على المسارح ودور السينما، علماً أنّ الصّغير والكبير لم يعد يهتمّ لمشاهدة المسرحيّات والأفلام في هذه الفضاءات؟ والأمثلة بعدد زغب الرأس ...

وبعد، فسنعود إلى قولك حول "التيجيفي" (Train TGV)، وإنّنا نؤكّد لك أنّ هذا المشروع لا يستفيد منه إلاّ من كان في خطّ الدّار البيضاء، فأين هذه المنفعة العامّة التي تتحدّث عنها، علما أن مواطني ما تحت حزام البيضاء في اتّجاه الجنوب قد ساهموا فيه بضرائبهم؟ هل ينبغي أن ينتظر المغاربة 1000 سنة أخرى ليصل "التيجيفي" إلى الكركرات؟ وهذا الكلام يسري على كلّ مشروع أسهمَ ويُسهِم فيه المغاربة من جيوبهم ولا يستفيدون منه (القطار، المتاحف، المعاهد، المستشفيات الجامعية، فنادق وإقامات...)، إرساءً لسياسة المغرب النّافع... فماذا يستفيد بربّك مواطن في جبال الحوز من "التيجيفي" أو من وحدة صناعة السيّارات التّابعة لشركة رونو الفرنسيّة، وهو لا يستفيد من عائدات مناجم لا تفصله عنها إلاّ بضعة أمتار؟ ! آهٍ، رحم الله شيخ المعرّة أبا العلاء قائلا:

هذا كلامٌ لهُ خَبيءٌ معناهُ ليس لنا عُقُولُ !

أمّا الأمر الذي نودّ الختم به، فهو أمرٌ هيّنٌ لأنّنا نعرف أنك مجرّد صحفيّ، وبعضُ الصّحفيّين - دون تعميم - بضاعتهم مُزجاة في اللغة وشؤونها، وقد نُسبَ قديما - والمقام ليس مقام تحقيقٍ - للخطيب البغداديّ قوله: "لا تأخذ العلم عن صحُفيّ ولا القرآن عن مُصْحفيّ"، طبعا الصحُفيّ هنا بمعنى الذي يأخذ كلّ معارفه من صحائف الكُتب دون تمحيص وتدقيق؛ والقصد أنّنا سنأخذ بيديك حتى تفهم معنى الجملة: تعليم الأجيال قبل المونديال.

أمّا الجملة يا بُنيّ فقد قرأتَها بحماسٍ شديد وحَنَقٍ ملأ منك الصّدر حتّى بدا لكَ ما يُفيد التّرتيب أصبح يُفيد النّفي والإبطال، ولا أعلم منذ متى كان ظرف "قبلَ" من أدوات النّفي حقّا، ونحن مواكبون دائما آخر قرارات مجمع اللغة العربيّة بالقاهرة، ولكن، ربّما لم أطّلع على ما اطّلعتَ عليه، وفوق كلّ ذي علم عليم... أمّا "قبل" فظرف زمان يدلّ على التّقدّم في الزّمن (جئتُ قبلك)، أو ظرف مكانٍ يدلّ على التّقدّم في المكان (يقع بيتي قبل بيت عمّي)، كما يفيد التقدّم في الرتبة (التفكير قبل اتخاذ القرار)، وفي هذه الحالات الثلاث يأتي مُعرباً، لكنّه يأتي مبنيّا إذا حُذف المضاف إليه اختيارا، كقولنا: أمّا قبلُ، وتقدير الجملة: أمّا قبلَ الأمرِ...

فالجملة لا تحمل قطعا أيّة إشارة إلى نفيٍ أو إبطالٍ، وقد أوردنا كما ترى معاني "قبل" باقتضاب شديد، والمعنى ترتيبيّ بالدّرجة الأولى، بمعنى أن الهاشتاغ لا ينفي إقامة المونديال ولا يرفضه، إنّما الأولويّة فيه للتعليم ثم يأتي المونديال تالياً بكلّ فرح، فلا أظنّ الحضارات قامت باللّعب، وإن كان أمراً في فطرة الإنسان، إنّما الحضارات تقوم بالعلم وبالمعرفة والاكتشاف والاختراع والإبداع، وزمن كورونا ليس ببعيد، حيث استُنفرت جهود الطّبيب والمدرّس ورجل الأمن، أي إن مقوّمات الحياة لا تتجاوز الصّحّة والتعليم والأمان، وكلّ أمر خارج هذا الثلاثي فهو في درجة الاستحباب لا الفرض واللزوم ... سنكتفي بهذه الإشارة، وإن أردت مزيد تفصيل فلا بأس، لأنّنا نملك ما يكفي من الطّباشير.

23 نونبر 2023

في ختام عام الحزن...

ما تفعله الأنظمة الحاكمة في شعوبها أكثر خطورة وفداحة مما تفعله الحملات الكولونيالية الاستعماريّة في البلدان المستعمرة... هذا ما أراه، على الأقّل من منظوري الشخصي البسيط، ولن أبتعد كثيرا عن المغرب الذي:

-- أهمل المصابين في زلزال الحوز، تاركا إيّاهم عرضة للعراء والبرد القاتل...

-- دمّر المنظومة التربوية وجعلها نهبا للتّاهبين وأضحوكة للضاحكين...

-- دمّر ذاكرة منطقة تفنيت الشاطئيّة وشرّد أهاليها...

-- جعل أسعار الموادّ الغذائية في القمّة، حتّى صام النّاس عمّا كان من المقتنيات العادية في فترة ما من تاريخ المغرب.

-- جعل الكثير من الشباب يطمح إلى تجاوز الأطلسيّ بحثا عن دول حاضنة تعترف بالكرامة الإنسانية.

-- أقرّ دعما كاريكاتوريا سمّاهُ "اجتماعيا" قدره 500 درهم (50 دولارا)، لا أعرف حقا لم يصلح !

-- بلغ فيه عدد المشرّدين أكثر من 85 ألفا حسب مؤشر العبودية العالمي شهر ماي 2023، أو ما يسمّى العيش في " العبودية الحديثة".

-- يفكّر في تنظيم عبث رياضيّ ووهم يظن به أنه سيقبل على العالميّة والمجد الأبديّ !!! على حساب شعبٍ كامل يعاني ما يعانيه ...

هذه بعض إنجازات مغربنا الكبير خلال سنة 2023 ... فليرحم الله الذين غادروا الحياة في الزلزال وفي الحرب الفلسطينية والحرب الأوكرانية، وليرحم الله كلّ من تشرّدوا في منطقة تفنيت وغيرها فرادى وجماعات ...

1 دجنبر 2023

إجابة وتوضيح (2)

عطفا على التدوينة السّابقة، ندلف سريعا إلى الخوض في الإجابة عن السُّؤال الثاني المتعلّق بقول ابن شُبرمة القاضي: "ذهبَ العِلمُ إلاّ غُباراتٌ في أوعية السُّوء"؛ ونقول فيها لعلّنا نُوفّق شرحاً وتوضيحاً:

منذ أخذت البشرية تؤرّخ للفكر وللرّأي وللحوادث العارضة، خاصّة على الورق أو الكاغد أو الأديم (الجلد المدبوغ) أو البرديّ المصريّ، بعدما تقدّم بها الزمن وعُرف الورّاقون والمُصحّفون؛ بدأ إنتاج الكتاب المخطوط، فاحترف النسّاخون والخطّاطون حرفة النّسخ اليدوي، ملتقطين المتن من أفواه المُستملين تارة، أو من مخطوط سابقٍ تارة أخرى، فكان الاعتماد الكامل على ريشة النّاسخ وحسن خطّه غالبا، دون الالتفات إلى درجة وعيه بما ينسخ وبما يكتب. ولمّا كان المخطوط الواحد يُنسخ نسخا متعدّدة، بات من اليسير أن تشوب تلكم النّسخَ عيوبٌ وأغاليط وتحريفات عن سهوٍ أو قصدٍ، كما أشار إلى ذلك الجاحظ في باب " مشقة تصحيح الكتب" من كتابه الحيوان (ص 79، تحقيق عبد السلام هارون، 1965م)، أو كما أورد ذلك محمد رشيد رضا في تقديمه لكتاب أسرار البلاغة لعبد القاهر الجرجاني (ص 15، تحقيق محمود محمد شاكر، 1991م) ؛ فإن صادفت محقّقاً خبيراً، أعْمَلَ فيها مشارِطَ التنقيح والتصويب، ارتفع الغلط وتوضّحت العبارة، وإن صادفت امْرَأً عَيِيَ بأمره، ضعيفَ الصَّنعة، أضاف إلى العيوب تصحيفاً وتحريفا، تدحرجَ الخطأ ككرة ثلج تتضخّم مع كل نسخة وطبعة، فيأرق القارئ والباحث مفكِّكا ألغازا وطلاسم محيّرة، ضائعا وسط متاهة من العبارت لا يُدرى سليمُها من سقيمها. والحقيقة أنّ عبد السّلام هارون لم يُجانب الصّواب حين أكّد في الصفحة 14 من كتابه قطوف أدبيّة أنّ:" تحقيق متن الكتاب أمر جليل يحتاج من الجهد والعناية إلى أكثر مما يحتاج إليه التأليف...".

أما عبارة ابن شُبرمة القاضي المذكورة أعلاه، فقد أوردها ابن عبد ربّه الأندلسيّ في عقده الفريد - في الصفحة 205 من الجزء الأوّل/ طبعة بولاق القديمة - بكلمة "غُبارات"، في حين أوردتها طبعة دار الكتب العلمية، بتحقيق مفيد محمد قميحة/ ص 94 (1983م)، وطبعة المكتبة التجارية الكبرى(1953م) بتحقيق محمد سعيد العريان بكلمة " غُبّرات "، ويبدو أن أغلب طبعات العقد الفريد الحديثة اعتمدت كلمة " غُبّرات " عوض "غبارات"، ولعلّها أخذت على الأرجح بما أورده محمود محمّد شاكر - ردّا على بشر فارس- في العدد 350 من مجلّة الرّسالة سنة 1940 كما يلي:

أوّلاً، لأن مفردة "غبار" لا يجوز قياسا أن تُجمع على " غبارات " ولا على غيرها من الجموع.
ثانيا، لأن ابن شبرمة لا يمكنه احتقار العلم وأهله إلى حدّ وصم بقاياه بالغبار.
ثالثا، لعدم إمكانية إغلاق الوعاء على الغبار، ومن طبيعة هذا الأخير التفلّت والتسرّب.

نُقود ثلاثة حشدها محمود شاكر لنفي مفردة لا تلائم سياق العبارة مبنًى ومعنًى، مرجّحا مفردة " غبّرات"، وغُبَرَةُ / غُبّرٌ كلّ شيء بقيّته وآخره وعقابيله، وغُبّرُ الليل أو المرض بقاياهما وآخرهما، ونضيف على كلام أستاذنا أنّ الحديث مادام هنا عن العلم، وهو شيء غير مادّيّ محسوس، فما نظنّ ابن شبرمة إلاّ أنّه جعل بيّته غُبّرة لا غباراً، وهو شيء مادّيّ محسوس، كما لا يلتئم مثلا قولنا عن بقيّة الكلام نُشارةً أو مسحوقاً أو ثُمالةً، ولا نظن ابن شبرمة، الذي كان قاضي الكوفة وفقيها، يخلط في الكلام ولا يجعل المفردة المناسبة في سياقها المناسب (يرجى العودة إلى تهذيب الأسماء واللغات للنووي، والكاشف للذهبي، ووفيات الأعيان لابن خلّكان). أمّا مفردة " عبارات" فمستبعدة على البداهة، إذ لا يمكن لنسق علمي متكامل تأسّس على مدى قرون أن يستحيل عبارات ومفردات يسيرة تلوكها الألسنة وتُزجى بها أحاديث المجالس... والله أعلم.

وحسبنا هذه الإلماعة المختصرة لسائلنا الفاضل

23 دجنبر 2023

خذ الكتابَ بقوّة !

إنّ ما يستطيعهُ الرّجل لا يستطيعهُ الطّفلُ حتّى يصير رجلاً، والرّجالُ قليلٌ في ساحات الحياة ومعتركاتها؛ ومادامت النُّدرة والقلّةُ ما يجعلان للشيء قيمة عُليا، فكذلك ندرةُ أرباب القلم والتأليف المتين ما يجعل المؤلّف في عصرنا العجيب هذا يخرج من ضيق المقلّد، أو بليد الطّبع والعقل المتبلّد، إلى رحابة الرأي الحرّ والفكر المستقلّ والنّقد المتجدّد؛ وبهذا يكون المؤلّف كاتباً بين النُّسّاخ ورجلاً بين الذكور...

إنّ الخوض في الماضي الذي لا ينفع معه الكربون 14، المتمنّع عن الاختبار التجريبي، مغامرة جليلة لا يُقدِم عليها إلاّ خبير عرفَ كيف يمرّ بين جماجم الغابرين دون أن يزعج أحداً، قادراً على القبض على الأحداث المنتهية بينهم قبل رقادهم الأخير، باذلا جهداً في التنقيب والاستقصاء إلى حدود ملامسة الحقيقة التي يظلّ معظمها في قمقم التّاريخ؛ وذلكم الرّجل والمؤرّخ الحقّ، أمّا أولئك الذين ينقلون الخبر عن الحدث، محافظين على تحريره وهماً أو صدقاً، لا يتعرّضون لبدايته، ولا يذكرون السبب الذي رفع رايته، ولا يقلّبون في آياته، فهؤلاء لا يُعتبرُ لهم مقال، ولا ينفعون أنفسهم بما كتبوا والأجيال، كالمُتنسّك برَجْمِ قبرِ أبي رِغال...

وبعد، فهذا كتاب "نزهة الجلاّس في أخبار أبي أحلاس" لمحمد بن أحمد الأدوزي، مُحقَّقاً على يد صديقنا مسعود بوكرن، وقد كشف فيه جانبا من تاريخ سوس الذي ظلّ ملفوفا في العتمات زمنا طويلاً، متعلّقا بالثّائر "أبي أحلاس"، وكأننا نقرأ تاريخا جديدا -بتعبير جاك لوغوف، تاريخا لن تجده في الكتب الرّسميّة المنخولة والمُفلترة، منزوعة اللّب وأكباد الحقائق، الذي تحوّل إلى حكايات تلعب وتتسلّى الأطفال بها في المدارس والجامعات.

أهنئ الصّديق مسعوداً على ما أخرجه للقرّاء بعد جهد جهيد، وقد شرّفنا بالاطلاع على مسوّدة العمل قبل مثوله بين أذرع المطبعة، وهو صنوٌ لعمله التحقيقيّ الأوّل " تاريخ ثورة الشيخ الهيبة " لعبّاس بن إبراهيم التّعارجي، سائرا فيه على نفس الصّرامة الأكاديميّة في محاكمة الأحداث والموازنة بينها بتجرّد تام، بعيدا عن كلّ قراءة متكلَّفة؛ كلّ هذا منسوج بلغة عربيّة فصيحة قويّة نكاد نفتقدها في زمن الهُجنة والرّطانة بأخلاط أصوات لا يجمعها جامع ولا ينظمها ناظم... فاهنأ واسعد يا مسعود بما أسعدتنا به، وخذ كتابك بقوّة، فليس في مثله تقال عبارة طه حسين: "مجرّد كتابٍ من الكتب ألّفه مؤلّف من المؤلّفين"... والسّلام.

20 مارس 2024

الأعمار أرزاق !

أحداث مغربية كثيرة استأثرت باهتمام العامّة والخاصّة، وإنّ بعضها حريٌّ بالتعليق وبإبداء الرّأي، لكنّ عُشُراً من الصّمتِ أفضل من ثلثي الكلام في نظري على الأقلّ... وبعض الأحداث تمنحها كثرة التعاليق وكثرة التّداول شرعيّة ومصداقيّة، حتّى تُنقش في أذهاننا، فنزيدها حياةً كما نزيدُ النار بالزّيت أو بالحطب... هذا، ولن أدع الفرصة تمرّ دون أن أتكلّم معلّقا على اختيار أستاذي الأوّل سيدي عبد السّلام بنبيه للتكريم من لدن النسيج الجمعوي بقصبة الطّاهر/ أيت ملول... وإنه حدث عظيم بالنسبة لي...

أما بعد، فأعمار النّاس لو كانت توزن بعدد الأيام لتفاضلوا بينهم بمقدار ما حصّلوه من سنوات، فيكون أبو جهل المخزوميّ أفضل من نبيّ بني هاشم (ص)، ولكنّ الأعمار وُزنت بمقدار ما تخلّفه من عمل مثمر، يجني منه القاصي والدّاني ما وسعه الجناء. ثمّ إذا تعلّق الأمر بمعلّم ومربّ، وهما ثالث الأبوين، فالتكريم يصبح آنئذ أقرب إلى الواجب، ولو كنتُ حجّاجَ هذا العصر لأجبرتُ كلّ امرئٍ على تكريم مربّيه الأوّل الذي علّمه سحر تلقّي المعرفة.

وبعد، شكرا لكلّ من أعاد الذاكرة خلْفا فاختار هذا الرّجل الفاضل - إلى جانب أستاذي أيت الدّخيل وهو من أهل العلم - الذي تحمّل، ونحن في الكُتّاب، إزعاجنا وفوضانا ولهونا وعبثنا في هامش جافّ قاتلٍ، ونحن حوله صغار نطمع في اقتسام تركته العلميّة، وهو الصّابر على صداعنا وصراخنا - بدون مقابل-، والعارف أن الميراث كيفما كان لا يُقتسم بصوت منخفض !

أدام الله أعمار المربّين في كلّ مكان فهم الأسياد الحقيقيون...

18 ماي 2024

حلالٌ على بَلابِلِهِ الغشُّ!!

لم أعد حقيقة أثق في ذاكرتي بعدما بلغتُ من الحياة ما بلغتُ، وقد اشتدّت على المرء منا الوقائع، وأثقلته من الزّمن ما يحبل به من فظائع؛ ولكنّ بعض المسكوكات لا تُنسى، خاصة إذا أثبتت قدرتها على الخلود، ولعلّ عبارة " التاريخ قد لا يُعيد نفسه ولكنه يتشابه كثيراً " للأديب الأمريكي السّاخر مارك توين، المذكورة ــربماــ في قصة "الضفدع النّطّاط في مقاطعة كالافيراس"، من العبارات القادرة على الصّمود أمام كل دعوة للنقد أو الدّحض أو الإبطال؛ لأنّ التاريخ حقّا "يتشابه كثيراً"، والحدثُ يولدُ له شبيهٌ -وإن اختلفت التّفاصيل والسّياقات -إنّما كما قال ماركس، الحدث الأوّل ينشأ و يمرّ كمأساة، أما ما يشبهه فيحدث كمهزلة!

فإن بحثنا لزمننا عن مشابه في صفحة التاريخ وجدنا أزمنة كثيرة ينطبق عليها مشهد عيشنا اليوم، منها مِثالا " عام البون" في أربعينات القرن الماضي، والزمن الفرنسي في عهد لويس السادس عشر في القرن 18، و الزمن العراقي إبّان الغزو التّتريّ في القرن 13، وأمثلة عديدة من أزمنة تاريخية يكون فيها الرجل اللبيب ،لكثرة الوسواس، ليس بالنائم ولا اليقظان؛ وتلك كلّها أزمنة المآسي، بينما نعيش نحن زمن المهازل والمآسي جملة.

أما بعد، فقد تلقّينا اليوم نبأ انتحار تلميذة بعد ضبطها في حالة غش أثناء اجتيازها امتحانات نيل شهادة البكالوريا، ما أدّى إلى طردها من مركز الامتحان وحرمانها من اجتياز ما بقي من امتحانات في المواد المُدرّسة الأخرى، وانتهى الأمر بفجيعة إنهاء حياتها بضربة واحدة والتحرر بعدئذ من شماتة القريب والبعيد.

بلا شك كانت لهذه التلميذة، وهي في ربيعها السابع عشر، آمال وأحلام ومشاريع، لكنها مؤجّلة على أعتاب شهادة لا يفصلها عن تسلّمها إلاّ أيام معدودات؛ وفي طرفة عين فقدنا " إنساناً " و "مواطنا" وفقدنا بموته الأحلام وكلّ شيء جميل، تماما كبائعة الكبريت الغارقة في هذيانها اللذيذ حتى لفظت أنفاسها الأخيرة على الرّصيف... والتاريخ يتشابه مرة أخرى!

لن نتحدّث عن ملابسات الحادث لأنها كثيرة، ولا عن أساليب السلطة وخطاب الإرهاب النفسي الممارس في المؤسسات التربوية بكلّ ما تختزنه من أمراض اجتماعية بتعبير ميشيل فوكو؛ ولن نتحدث عن أساليب الحراسة البوليسية، التي تُشعر التلميذ أنه في معسكرات الغولاغ في الاتحاد السوفياتي أو تازمامارت... والتاريخ يأبى إلاّ أن يتشابه مرة أخرى ! بل ينبغي أن لا

نتحدث عن نظام تعليمي صُنف في ذيل الدنيا، متفوقا على النظام التعليمي لقبائل الأمازون بشق الأنفس... ولكننا نتحدث عن الغش نفسه، الذي لا يُستحضر التخلص منه إلا حين يأتي أوان هذه المحطة الإشهادية، كأن المغرب يخاف على مستقبله، متحرّيا النزاهة وتكافؤ الفرص بين طبقات الشعب، والكلّ يعرف، ولو ملك أذني حمار، أن المغرب ماضٍ بعقول لا تنتجها المؤسسة العمومية ولا الطبقات الشعبية مهما بلغت عبقرية أبنائها... تماما كالدولة الإسلامية في العصر العباسي الأول التي كانت تمشي بأقدام البرامكة وعقولهم، وها هو ذا التاريخ يتشابه مرة أخرى!

في هذا الوطن تجد الفقيه يتفصّد جبينه إيمانا وتُقىً على المنبر يتحدث عن الله ومساره مغشوش كلّه، وحادث اقتناء شراء الشواهد من إحدى الدّول ليس ببعيد؛ وتجد المدرّس في الفصل يقدّم دروسا في النزاهة ملء شدقيه ومساره من المهد إلى الجامعة غش مضاعف؛ وتجد القاضي والمحامي يُحيي ويُميت حسب ما تقتضيه المصلحة ويفرضه الدرهم والدينار؛ وتجد المنتخبين لا يفكّون الخط، ولا تنسلك في أفواههم جملة سليمة مفيدة، لكنهم حاصلون على مناصب مريحة ببركة صناديق الاقتراع والشواهد المشتراة في الأسواق؛ وتجد الشرطيّ يقضي يومه في الغش ولا داعي للتفسير؛ وتجد الطبيب يبيع في صحة المساكين ويشتري؛ وتجد الوزير يحدثك في مرافعاته عن الوطنيّة والوطن والمواطنة والمواطن، ومساره احتيال وشراء ذمم وصفقات مشبوهة؛ وتجد هذا وذاك ، وكلٌّ

حـلالٌ عـلى بـــلابله الغشُّ حرامٌ على الطّيرِ من كلِّ جِنْسِ

حتى تخرج بحصيلة مفادها أنّنا نتنفّس الغش صباح مساء، حتى أصبح من مقتضيات استمرار حياتنا اليوميّة، وربما صحّت الأجساد بالعلل ! إلا من حمل بين جنبيه ضميرا يقظا، فأولئك مستثنون من كلّ ما قيل، وقد صدق ميخائيل نُعيمة قائلا: ما أكثر النّاس وما أقلّ الإنسان!

إننا لا نبرر كل وسيلة يتم بها أخذ الحق بطريقة ميكيافيلية غير مشروعة، ولا نبرر الغش بكافة ألوانه، ولكننا ندعو إلى عدم إضاعة الوقت في قتل الذباب والأولى تجفيف المستنقعات، والتفكير في سبل أخرى تخرج التلميذ والمراقب كليهما من دائرة الحرج، لأن المقاربة الزجريّة والإدارة البوليسيّة ليست حلاّ، ومن الغباء انتظار نتائج مختلفة من نفس الأسباب!

الحكمة في الغناء الأمازيغي (عتبة)

الحكمة من الكلمات المتداولة شفاهة وكتابة بشكل طاغ، ربما لكونها ذات رنين في الأذن، حتى أن جذرها اللغوي مما يُسعفها في ذلك، ويمنحها بعض القوّة؛ فهي السلطة في (الحُكم والحاكم)، وهي العدل في (المحكمة)، وهي العِقال والضبط في (الحَكَمَة)... وهلمّ جرّا ؛ وهي الحكمة التي نعرف ولا نعرف، فما أعسر على الذهن أن يمنحنا تعريفا جامعا مانعا لهذه المفردة، ولقد قرأتُ عشرات من تعريفاتها في الثقافتين الشرقية والغربية ولكنّها - في نظري على الأقل - قاصرة عن الإحاطة بمفهوم الحكمة في شموليتها، طبعا لأن كلّ عقل ينظر للحكمة من موقعه الاعتباري، والحكمة في عُرف الجائع ملءُ البطن، وفي عُرف المسجون تجاوز قضبان السجن ببساطة ! ومن يُنكر - في آنِها- أنها سلوكات حكيمة؟ ومن يُنكر أنها تُؤخذ من أفواه المجانين؟ فأيّ مفهوم هذا يجيد العقلاء والمجانين على السّواء؟

فإذا كان من أوجه الحكمة كونها بعضا من خبرات المرء وتجاربه، التي تجعله قادرا على إصابة الأهداف في الحياة بأقلّ جُهد وكُلفة، عاصمةً إيّاه من نسبة هامّة من الأخطاء، فهي التي نقصد حين نتحدث عن الأغنية الأمازيغية، وهي المُتمسّكة بهذا النمط منذ وُلدت من رحم فن أحواش، وهو الفن الذي أورثَ الفنون المتفرعة عنه الكلام الحكيم، فلا نكاد نجد مقطوعة أمازيغية تخلو من حكمة إلاّ فيما ندر؛ ولعلّ هذا مرتبط بالإنسان الأمازيغي ذاته وهو المعجون بالتاريخ وبالجغرافيا وبويلات التهميش التي لم تُنصفه على عدّة صُعُد، وإنّنا نستغرب من المختار السوسي في معسوله، ربطه البلادة باللغة الشّلحية وقلّة الذكاء، قائلا: "وأما الشلحي البربري القح الذي يحيا في مثل جبال جزولة، وينشأ في بيئة لغته الشلحية البعيدة عن العربية، فإنه قد يحفظ القرآن... وهو لا يدري حتى معنى الخبز والسمن والبصل والحصير والفأس..."؛ فماذا عن أهل هذه الأرض قبل أن يطأها العرب، ألا يعرفون الخبز والبصل والفأس؟ ولعلّ الشلحيّ الآن يقول: " ⵉⵙⵙⵏⵉⵢⵉ ⵙⵉⵏⵉⵢⵉⴷ ⵏⵜⵜⴰ ⴷⵍⵅⵍⴰⵡⴰⵜ ⵡⵍ ⵉⵉⵙⴰⵏ" فلا يُلتفتُ إلى كلامه الموزون، لأنه مجرّد كلامُ شَلْحٍ من الدّرجة الثالثة، لكننا حين نسمع، في نفس المعنى، قول أبي الطيّب: " الليل والخيل والبيداء تعرفني" نستعظم هذه العبارة - وإن كانت عادية - لمجرّد كونها عربية فصيحة، ولكونها خليليّةَ السّبك ! كشأن " منزَكينْ؟ " و" ça va ? "، فالفرق بينهما - في عُرفنا- فرق بين التّحضّر والتّخلّف، أو كالفرق بين راعي غنم وبين فرانسوا فولتير!

أما بعد، فنهنّئ مجموعة أودادن على جديدها الفنّيّ الطّافحة أغانيه الخمس بالحكمة الحياتيّة، الماتحة من اليوميّ المتواتر والمتكرّر، وقد عوّدتنا هذه المجموعة منذ ألبومها الأوّل على ما يرتبط بالجانب الوجداني والعاطفي الإنساني، خاصّة في ميعة الشّباب وشطحاته؛ وقد انتقلت منذ مدة المجموعة إلى مواضيع أكثر التصاقا بالإنسان في جانبه الاجتماعي، والعُمر حين يتقدّم بالمرء يجعله يعيد ترتيب اهتماماته، مغيّراً منظومة أفكاره ورُؤاه، ومن لم تُعلّمه الحياة بتصاريفها علّمته التجاعيد في الوجه والشيب في الرأس...

"ⵏⴽⴰ ⴰⵎⵄⴹⵓⵔ ⴰⵔ ⵏⴱⵏⵓ ⵖ ⵡⴰⵙⵉⴼ
ⵔⴰⴷ ⵔⴰⵊⵄⴰⵖ ⴰⵃⴹⴰⵔ ⵉⵖⵉⵏⵓ ⴰⴷⵉⵢⵉ ⵓⵓⵔ ⴰⵡⵉⵏ"
"ⵜⴰⵙⴰ ⵚⴱⵔ ⵖⴰⵚⵚⴰⴷ ⴰⵎⵎ ⵓⵔⵉⵙⵙⵉⵃⵍ ⵢⴰⵜ
ⵜⴰⵎⵓⵏⵜ ⵓⵓⵛⵏ ⴷⵉⴽⵔⵓ ⴽⴰⵙⵙⵓⵍ ⵉⵢⵍⴰⵏ"

وعيدكم مبارك سعيد...

17 يونيو 2024

تطريزُ الكتاب في حياة الكلاب !

أما قبلُ، فينبغي الاعتذار لبعض أصناف الكلاب "المحظوظة"، البالغة من الرّفاه (الاجتماعي) ما جعلها بمنزلة ذوي الحظوة في المجتمع البشري، لأنّ الأقدار حبتها بحياة ورديّة قوامها جودة المأكل والمسكن والتطبيب و"الملبس"، ولا يحلم المرء منّا بشيء أكثر من هذا. كما نثنّي بالاعتذار للكلاب الخالية أفعالها من الذنوب، وقد ذكرها دِعبلٌ الخُزاعيُّ في سياق هجائه أحد خلفاء بني العبّاس قائلاً:

مُلـوكُ بَني العَبّاسِ في الكُتْبِ سَبعَةٌ وَلَم تَأتِنا عَـن ثامِـنٍ لَهُمُ كُتبُ
كَذَلِكَ أَهلُ الكَهفِ في الكَهفِ سَبعَةٌ خِيارٌ إِذا عُـدّوا وَثامِنُهُم كَلـبُ
وَإِنّي لَأُعـلي كَلبَهُـم عَـنـكَ رِفْـعَةً لِأَنَّكَ ذو ذَنـبٍ وَلَيسَ لَهُ ذَنْبُ

كما نُثَلّث بالاعتذار كذلك لكلّ فصائل الكلاب التي ذكّرنا ابنُ المَرْزُبان بفضائلها في كتابه "تفضيلُ الكلاب على كثير ممن لبس الثياب"، مخلّدا إيّاها في صفحات التّاريخ؛ ونُربّعُ بالاعتذار للكلاب التي وجدت لها مقاعد وفصولا في المدارس الصينيّة، دارِسةً مادّتي الحركات البهلوانية والرّياضيات... لكلّ تلك الكائنات "المحظوظة" نعتذر، لأنها في الحقيقة ليست كلابا وإن سُمع لها نبيحٌ وعواء !!

أما بعدُ، فجاءت مناسبة هذه الكلمات ارتباطا بمُنتج سينمائي بوليوديّ موسوم بـ(THE GOAT LIFE)، أو (حياة الماعز)، الصّادر في بحر هذه السّنة، وقد أسالَ حبراً كثيرا، وأثار عجاجة من اللّغط يمنة ويسرة. فمن مُنتقدٍ سياسة نظام الكفيل في المملكة السعوديّة، إلى عائبٍ كلّ ما يأتي من الشّرق منطقاً وسياسةَ، إلى شاتمٍ شمس الصّحراء الحارقة، ومن لم يجد ما يقوله عابَ على الماعز فَرْوه الأسود، وهذا أضعف الإيمان !

في الحقيقة، سنطلق من منطق "من كان بيته من زجاج، فلا يرشُقَنّ النّاس بالحجَرِ"، وهذا ما نُعلّمه للأحداثِ في مدارسنا الابتدائية كلّ يوم، فمن الغباء والجهل الانشغال باقتناص عيوب (الآخر) بعيدا عن استصلاح (الذات) وتقليص عيوبها ومثالبها، ولكم أحسن ابن القيّم في " مفتاح دار السعادة" قائلا: "طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس، وويل لمن نسى عيبه، وتفرغ لعيوب الناس"؛ أما شاعرنا اللبيب ابن المقري اليمني فأوجز منشداً:

شَرُّ الوَرَى بِمساوي النّاس مُنشغِل مِثْلَ الذُّبابِ يُرَاعي مَـوْضِعَ العِـلَلِ

وعليه يكون من الأصوب توجيه العيون والأذهان إلى ما نحن فيه، في سياقنا المغربيّ، من حياة "الكلاب الضّالّة"، بعيدا عن شؤون الدّول وأمورها الدّاخلية، لعدم ارتباط حياتنا اليومية بما يحدث لديها بشكل مباشر، إلا فيما تدبّره السياسة الخارجية للدول فيما بينها، وهذا تأثيره لا يمتدّ رأساً إلى محيط المواطن الضيّق. أليس إذن:

- كالكلاب، مازال أهلنا ممن تضرروا من زلزال الحوز، مقاومين في العراء بين الحياة والموت ؟

- كالكلاب، أولئك الذين ينتظرون في طوابير طويلة، ينتظرون مبلغ 500 درهم، يستهلكها الكلب الألماني في يوم واحد؟

- كالكلاب، من يخرجون من هذا الوطن أفواجا على متن قوارب الموت، بحثا عن وطن آخر يعرف ما "الإنسان"؟

- كالكلاب، من يعدمون مستشفى عموميا للاستشفاء، ومدرسة لأطفالهم، وطريقا معبّدة إلى مقرّ سكناهم؟

- كالكلاب، من ينتظرون "صدقة" الموسم الدّراسيّ الحاليّ بـ"بَرَكةٍ" قدرها 200 درهم؟

- كالكلاب، من أحرقهم غلاء أسعار كلّ ما يُباع ويشترى، حتى أصبح الفقراء يأكلون بعضهم البعض؟

- كالكلاب، من لا تتجاوز أجرة يومهم الشّاقّ 60 درهما في المعامل والمصانع والضيعات؟ و1500 درهم شهريا في منطق وكالات التشغيل وإن كان العامل عبقري زمانه؟

- كالكلاب، من يضيّعون أياما وشهورا من أجل وثيقة بسيطة في إداراتنا المغربية بمنطق "سير حتى تجي" أو "مكاينش لي يسني" وغيره؟

- كالكلاب، من لا يجدون ماء صالحا للشّرب، وتدعوهم الدولة إلى ترشيد استهلاك الماء، غاضّة الطرف عن أصحاب الضيعات والمسابح والحدائق المنزلية والمشاريع الشخصية الكبرى المستهلكة للماء؟

- كالكلاب، من سُرقت حياتهم على هذا الوطن؟...

وبعد، فإننا لو أردنا الاسترسال في مسيرة "الاستكلاب" هذه لأتينا من الإنجيل المغربي بآلاف من السّور، ولكننا نكتفي بهذا القدر من الوجع، مُذكّرين أنّ الاقتران بالماعز أرحم أحيانا من الاقتران بالكلاب، فقد قالت العرب، والكلام للجاحظ في الحيوان: "فلانٌ ماعزٌ من الرّجال"، بمعنى أنه حازمٌ شهمٌ، وإذا قالت: "فلان كلب من الرجال"، فاعلم أنها سُبّة وشتيمة...

كم تساوي الشعوب؟

التّاريخ...التّاريخ! وَيحَهُ من عِلم أعمى لا يدري أن يضع عكّازته وسط دهاليز الماضي المظلمة، بل، لا يملك بين يديه شيئا يُمكن أن يُسمّى شيئا؛ فويحَه وويح من صنعوه واختلقوه وجعلوا له تماثيل يراها البعض رخاما من رُخام إيطاليا، ونراها نحن شمعا من شموع بريطانيا... فأيّ علم ذاك الذي يُؤخذ عن الأموات في قبورهم ونعوشهم، وأموات عن أموات، وأموات عن أموات... إلى آخر تلكم السلسلة؟ وأي علم ذاك الذي اختصر حركية الإنسانيّة جملةً في نزوات الحُكّام والملوك والسلاطين والأمراء، كأنما الأمس لا تتسعُ ساحاته إلاّ لفصل الرؤوس عن الأبدان ومقارعات السيوف وتصادم الجيوش وهدم القلاع والحصون؟ وأيّ علم هذا الذي لا يستلذّ إلاّ الدماء ــ كالخفافيش ــ ولا يستحلي إلاّ أن يشهق بغبار حوافر الخيول في الحروب؟ أيّ علم هذا الذي جعلنا نعتقد أنّ الجماعة ينبغي أن تفنى من أجل فرد؟ أُفٍّ وتُفٍّ!

إنّنا حين نميط اللثام عن تاريخ الآشوريين أو البابليين أو السّومريين أو الفراعنة وغيرها من الحضارات القديمة نسبيا ــ قياسا إلى عمر الإنسان على هذه الأرض ــ فلا نجد إلاّ حديثا عن عشرات من الملوك والقادة العسكريين، كأنّ حياة عشرات الألوف من الشعوب لا تهمّ، أو بمعنى ما، لا قيمة لها. فالحكّام وعساكرهم أهمّ، وصولاتهم وجولاتهم أجدر بالاهتمام وبالتوثيق وتصريفها في عقول الأجيال المتعاقبة، حتّى تستحيل هذه الحقيقة عقيدةً سارية في دمائهم! فلا يهمنا من آلاف البشر في العصر الأموي إلا أخبار معاوية وابنه يزيد وعبد الملك بن مروان والحجاج وقصورهم وجواريهم، كما لا يهمنا من العصر العباسي إلا السّفّاح وأبو جعفر المنصور والمعتصم والأمين والمأمون وخيولهم وعدد جواريهم وغلمانهم وثرواتهم، كما لا يهمنا من العهد المرابطي إلا يوسف بن تاشفين وسُلالته، ومن العصر الموحّدي كرامات المهديّ بن تومرت ويعقوب المنصور... وقس على هذا النّهج السّائر على منطق الأفراد "الخارقين" لا على الجماعة! ولقد فتحنا - مثالا لا حصراً - كتاب "تاريخ الشعوب العربيّة" لألبرت حوراني، وكتاب "تاريخ الشعوب الإسلامية" لكارل بروكلمان، وكتاب "عرب 3000 سنة من تاريخ شعوب وقبائل وإمبراطوريات" لتيم ماكنتوش سميث، وكتاب "معالم تاريخ الإنسانية " لهربرت جورج ويلز؛ فلم نجدها تتجاوز بطولات أفراد من السّاسة والوزراء والعساكر وحفنة من الفلاسفة والشعراء والصُّنّاع، وإشارات خجلى هنا وهنالك إلى بعض أوضاع العامّة الاقتصادية والاجتماعية دون إطالة الحديث حولها، أمّا كتاب "مُشاكلة الناس لزمانهم وما يغلب عليهم في كل عصر" لليعقوبيّ، فقد توسّمنا فيه خيراً

لعنوانه "المُريح"، لكنّنا وجدنا الرّجل قابعا على أعتاب قصور الخلفاء، متحلّقا حول السّلطان وسياسته، تاركا النّاس لربّ النّاس، بل، أعطى مقولة " النّاس على دين ملوكهم" صبغة أخرى، مجتهدا في منحها قداسة ومشروعية تاريخية راسخة، ولو كان يدري اليعقوبيّ أن أخناتون أزاح إله مصر آمون، جاعلا مكانه الإله آتون بدافع مزاجيّ، لزادت جرعة احتجاجه بتلك المقولة !

سيعترض معترض أمام هذا الطّرح قائلا: ما جدوى الحديث عن الشعوب ومصيُرها مرتبط رأسا بسياسات حكّامهم؟ نجاحها من نجاحهم وخسارتها من خسارتهم؟ ما جدوى الحديث عن كُتلة بشريّة هي في موقع المطيع والمأمور، لا تملك من زمام أمرها شيئا؟ ما جدوى إقحام النّجّار والخبّاز والفحّام والخضّار والفلاّح والجنديّ في صفحات التّاريخ؟ ألا يكفي القول: هذا هرمُ خوفو وهذا قصر ابن طولون علما أن خوفو وابن طولون لم يحملا على أكتافهما ما حمله آلاف العمّال من الأثقال، مَلْفوحِينَ بالشّمس وبالبرد؟

إن سياق تلكم الاعتراضات سليم إلى حدّ بعيد، لمنطقٍ ينتظمها، ولمواءمتها الخط العام الذي سارت فيه الكتابات التّاريخية ــ العربية بالذات ــ، وواقع الحال يزيد هذا المنحى وضوحا وجلاء، فلا غوصَ في الماضي إلا وكان غوصا في ردهات القصور وأعيان القوم وسَراتُهم، ولكنّ هذا المنطق في نظرنا يعروه فسادُ من ارتكن إلى قبول الأشياء كما وُجدت، على مذهب "هذا ما وجدنا عليه آباءنا"، ولا قرارَ على زأرٍ من الأسدِ! فالعين حقيقةً لا ترى إلا من يُقبّل يد سيّده، وصفحات الماضي تؤكّد أن القطاع العريض من التاريخ إنما هو تاريخُ عبيد وسيادة وسلطة وسيطرة، فلا بأس إذن أن يُنسب كلّ مجد للسّيّد وللوزير وللأمير وللخليفة ولكلّ متربّع على القمّة، وإن كان من أشباه الحمقى المُطاعين وما أكثرهم في الماضي والحاضر... فهل رأيتَ قبلاً من يحتفي بمن يُرتّب الكراسي ويعدّ الطعام؟ وهل تُلتقط الصّور إلا لمن يأتي في آخر لحظة بزيّه الأنيق، ليحمله التّاريخ على كتفيه من جديد وهلمّ ظُلما؟ ولكن الأمر عندنا كما قال شاعر النّيل:

فاذهب بسحرِكَ قد عرفتُكَ فاقتصِدْ فيما تُــزيّــنُ للـحِـســانِ وتُـوهِـمُ

إنّ ما مرّ عليك أعلاه لا نحسبه غير رجل عظيم الحجم لكنّه من قشّ يكفيه عودُ ثقاب وحيد، فحركة التّاريخ - في نظرنا - إنما تأسّست على أكتاف الشعوب، جيوشهم وفلاّحيهم وصُنّاعهم وحرفيّيهم ومُعلّميهم ووعّاظهم وغيرهم ممن لا تحفل بفضائله الأقلام المأجورة التي لم تخلّف إلا كتبا طافحة بشهادات زورٍ، تثير الشّفقة والضّحك في غالب الأحيان، وإنّنا نتصوّر مِن كتّاب ذلك الزّمن مَن يأخذ ريشته فيكتب ما بدا له عن العامّة (أو الرّعاع والغوغاء في بعض توصيفاتهم)، حتى إذا بلغ مَوضِع خبر الأمير رأيتَه مستحضرا جداول المُضاعفات (أو الضّرب

في مصطلحنا اليوم)، فإذا قتل السّلطان بعوضة، كتب مؤرّخنا، وفي يوم من أيّام ذي القعدة هجمت السّباعُ على بغدادَ من كلّ ناحية، وما إن تناهى الخبر إلى السّلطان حتّى امتشق سيف حاجبه، مُندفعا كالريح نحو بوّابة القصر ولم تكن عليه لَأْمةُ حرب تقيه، مضى السّلطان ولم نره بعدها إلاّ وهو يجرُّ خلفه مئة سَبُعٍ مضرّجاً بدمائها ! وإن حضرَ مجلسَه النّدماء من ساقطي المروءة والمخمورين والعابثين فعلا وقولاً و(...)، رأيت صاحبنا يزيّن المجلس بريشته مؤكّدا أن مجلس السلطان كان مجلس علم وأدب وفكر وفلسفة، ويكتب: لقد تزاحمت في قصره المكتبات حتّى لم يبق فيه موطئ رِجْل ذُبابة من كثرة التّصانيف! وإذا انبرى الأمير إلى العبث مع جواريه وغلمانه، قابعا في قلعته مأمونا محروسا، وجدتَ مؤرّخنا يكتب: قاد الأمير جيشه مسيرة شهر إلى موضع المعركة، ولعلّ غُبارَ ما بين اليمن والعراق كان يدعو له ولجيشه بالنّصر، وإنّه منصور حتماً، فقد كان يصوم أسبوعا ويُفطر يوماً، قائما الليل كلّه متحرّماً بسيفه الجُراز، فكان نِعم القائد في مجلس القادة، ونعم الزّاهد في مجلس الزّهّاد، ونعم العالِم في مجلس العلماء، ونعم الفارس في ساحات الفُرسان، وحُقّ للشاعر أن يقول فيه:

كُلُّ الخلائقِ من ماءٍ ومن طينِ أمّا الأميرُ فمخلـوقٌ من الدِّيـنِ

وقس على هذا المنوال في صناعة بطولات وأمجاد وهميّة، وليس هذا مقامَ استعراض نماذج من أخبار تستهزئ بالعقل وتستغبيه، طمعا في نوالِ أميرٍ أو أُعطية وزير، وقد اشترك في هذا الاستغباء المؤرّخون المأجورون والشعراء المتسوّلون وكتّاب الدّواوين، ومن جاء بعدهم يُصدّق هؤلاء بعقل منطفئ وذهن كسول وفمٍ مفغورٍ من الاندهاش!

وقد يصحّ أن يكون للجماعة أمير وقائد وعريف، ولكنّ ما فائدة الرأس إذا افتُقد الجسد، وفائدة السّلطان في مساحةٍ من الأرض خاليةٍ، ولا يكون هذا إلا بأولئك؟

إنّ لغةَ "القائد العظيم" و"الفاتح الأعظم" لغةٌ جعلت الشعوب تُجمع مع مهملات العدم التاريخي، كأنهم كُتلة لا فائدة فيها إلا تمجيد السلاطين والوزراء، وهذا ما رسّخته الكتابة التّاريخية في السّياق العربي والإسلامي على وجه الخصوص، حتّى تُنوقل ذاك المنهج عبر أجيال من الرّواة والمؤرّخين، فظلّ حيّا إلى يوم النّاس هذا، دون أن يكلّف أحدهم من المشتغلين في مجال التّاريخ نفسه الحَيْدة والاستقلال بقراءة أخرى للماضي أكثر إنصافا وأكثر قربا من المنطق، فلا يُعقل التغاضي عن ملايير من النفوس البشرية من أجل عشرات ندّعي أنها من صنعت التّاريخ، ولاشكّ ــ في نظرنا ــ أن إغفال شعوبنا اليوم وعدم الاكتراث لنبضها ولأوجاعها وآلامها وهمومها مردُّ بعضه إلى نظرتنا إلى الماضي، وظنّنا أنه صنيعة أفراد كانوا استثناءات ومعجزات.

وبعد كلّ ما قيل، هل نُعلّم أجيالنا القادمة أنّ عبارة " صُنع في الصّين" تعني أن هنالك شعبا حيّا اشتغلَ وقد صنع حضارته جمعًا لا فرداً؟ أم سنكتفي -كالعادة - بملء أسماعهم بيتي عبيد بن الأبرص القائل،

أنتَ المَليـــكُ عـليهـمُ وهمُ العـبـيدُ إلى القـيامـهْ
ذَلّـوا لِسَـوطِـكَ مِثلَ مـا ذَلَّ الأُشَيقِرُ ذو الخِزامَـهْ؟

08 أوريل 2025

فهرس المحتويات

إهداء 5
ما بعد الشّكر 7
تقديم..... 9
مقدمة 19
حاذر ممن لا يعشق الجمال !..... 23
الفنّ بالوراثة..... 24
إلـــــهـــي! 25
أيها الكبار، دعوا الصغار يكبرون !!..... 26
كثرت المصائب واليد واحدة !..... 29
شاخ الشباب..... 30
الريف وحائط المبكى !..... 31
الجمال ما سينقذ العالم ! 32
بين "آيات" ترامب وآيات القرآن !!..... 33
أعياد كاذبة !! 34
على خطى MR BEAN 35
إلى صديق..... 36
أحبُّ شيء إلى الإنسان ما مُنعا ! 37
دمية جميلة خالية من الحياة !..... 38
سبحان من يُحيي العظام وهي رميم !..... 39
كن مطمئنا، فلازلت صغيرا ! 40
أبو ك صاحبي ! 41
العام الجديد والإسلاموفوبيا !! 42
يا نفسُ صبراً فعُقبى الصَّبر صالحةٌ... 44

أساتذةَ الجامعات، رفقا بطلابكم ! 45
ثورة الهامش... الجامعة الشتوية نموذجا 47
صديق في زمن القحط !! 48
مسبحةٌ ومذبحة 49
العنبرُ الخامُّ رَوثٌ في مواطنه.. 51
خطأ شائع يا أستاذ؟؟ 52
"ستيفن هوكينغ" وألسنة العرب !! 53
سقَطُ القريض ! 54
كمثل الأسفار تحمل حمارا !! 55
أسواق النخاسة ! 56
حرب بلا سلاح ! 57
علبة الكبريت 58
قرد تـــــربوي ! 60
إنما النشيد على المَسَرَّة 61
شكرا تارودانت !! 62
إجازة أم صك غفران؟ 63
حين يزور الشيطان موسكو !! 64
تأبّطَ جهلا... 65
لولا اعوجاج الأصل ! 67
البيت الذى تدخله أشعة الشمس لا يدخله الطبيب 68
وتَحْدُثُ بعد الأمورِ أُمورٌ... 69
عبقري من أهل الكهف ! 70
عيد الأضحى والبؤساء 71
حضارةٌ من جلود خراف !! 72
عسكرة المغرب العميق !! 73
وجاء رجل من أقصى البادية 74

اذهب أنت وربك فقاتلا ! 75
لمن نخط كتاب اللوم ! 76
النبوغ المغربي 77
ما أشبه اليوم بالبارحة ! 78
ألا سُحقا لهذا الوطن !! 79
صُواعُ الملك ! 80
ماذا لو لم يُخلق المبدعون؟ 81
واذكر مريمَ إذ انتبذَت من أهلها مكانا قصيّا !! 82
هكذا تكلم المفتش !! 83
وَمَنْ يَكُ ذا فَمٍ مُرٍّ مَريضٍ ! 85
تنوير أم تزوير؟ 87
عذراً أيّها الغُرابُ !! 88
كل شيء قابل للكسر !! 90
في الحاجة إلى زَمَّارِ هَامْلِنْ !! 92
وَلَوْ لَطَّخْتَ وَجْهَكَ بالمِدَادِ ! 93
كيعقوبَ إذ يُلقى عليه قميص يوسف... 94
الغش المقدس !! 95
لَكُم العُتبى حتى تَرضون 96
لعنةُ سيبويه ! 97
لا محل له من الإعراب !! 98
دونك القبر ! 100
هذا أمرٌ دُبِّرَ بليلٍ ! 102
" صابونُ " علاءِ الدينِ السّحريّ !! 104
تَجاهَلهُنَّ... يأتِينَكَ سَعْيًا !! 106
وخمرُ أبي الرَّوقاءِ ليسَتْ تُسْكِرُ !! 107
تنبيهٌ وإضافة 109

مِنَ القُفَّة إلى لِجامِ العِفّة !! 111
في رحاب كتاب "دراسات في التراث الشعري والغنائي الأمازيغي" 113
بيضة الديك ! 115
كعَصْفٍ مأكُولٍ..... 116
الحشرات!!! 117
المُستطرفُ من كل حديثٍ مُستظرَف... 118
البائسون 119
أنْفٌ بينُوكيُو وأنفُ الوزير!! 121
إلى من يهمّه الأمر من المُدرّسين. 122
البدائيّ الذي يسكُننا... 124
للأسف... ! 125
حين أخطأت آلهة اليونان... 126
الغشّاشُون !! 128
لله درّ القلم... 129
وداعا إبراهيم..... 130
يا لصَبركم علينا ! 131
انتِخاباتٌ أم انتِحابات؟ 132
ما بعد الصندوق !..... 134
بصيصُ أملٍ ! 136
رحلةُ (X) ! 137
هاتفي... وأنا حرٌّ فيه (تعقيب)..... 138
مُمانعة ! 141
إجابة وتوضيح (1)..... 142
على قدرِ أهل العزمِ تأتي العزائمُ... 144
الاستثنائيّون !! 146
وغلّقتِ الأبواب !!..... 147

إليكم وإلاَّ لا تُسَدُّ الرّكائبُ... 150
في مُتونِها جلاءُ الشّكِّ والرّيَبِ ! 151
فلسفة السّلحفاة !! 152
كيف أكون أديبة ! 154
شكرا لَكُنَّ... 158
تفسير الأحلام !! 159
حديثٌ مِن أُفكُوهة !! 161
جِراءُ السياسة... 162
توضيح وبيان (أُمّاتٌ وأُمّهاتٌ) 163
تهنئة خاصة 165
تجديد ذكرى محمود شاكر... 166
تَكَشَّفَ أمرُهُ عند النهيقِ !! 167
احذر ضياعَ مطرقتك! 169
البردّوني وعقدةُ المظهر ! 170
حديثُ صورة (1) 172
حديث صورة (2) 173
حديث صورة (3) 175
عميدٌ بقَرْنَيْهِ ! 177
في ميلاد شوقي... 178
قليلُ الأدَبْ ! 179
متى تنطلق مسيرتُنا السّوداء؟ 181
هذا زمن الأطفال... 182
الرّافعيّ... 183
عيد ميلاد... 185
واشتعلَ الرّأسُ أدباً... 187
يا بُنيّ (4) 188

عِـــش حـماراً... 190
الله والرياضيات !..... 192
وزن "بوسالْم " أو وزن الفحول... 194
وما يَسْطُرون 195
على أرض موسكو..... 198
أي بُنيّ 199
تحيّة تقدير 201
تبّت يدايَ 203
يا مدرّسي المغرب اتحدوا ! 205
(نقطة نظام) ما ذنب التلميذ؟ 207
تعليم الأجيال قبل المونديال (توضيح)..... 210
في ختام عام الحزن... 213
إجابة وتوضيح (2)..... 214
خذ الكتابَ بقوّة !..... 216
الأعمار أرزاق !..... 217
حلالٌ على بَلابِلِهِ الغشُّ!! 218
الحكمة في الغناء الأمازيغي (عتبة)..... 220
تطريزُ الكتاب في حياة الكلاب !..... 222
كم تساوي الشعوب؟..... 224
فهرس المحتويات 228

لمّا كان المسمارُ ذاكَ الوَتِدَ الدّقيق، حادّ الذَّنَب مُسطّحَ الرّأس، المصنوع للتثبيت على السطوح الصلبة، فإنّه، على صِغَر في الحجم، عظيم الفائدة؛ أرأيتَ أنّه ثَبّتَ التاريخ بمنقوشاته، وثبّت العُمران البشري بصبر على جحيم المطارق فوق رأسه، وثبّت بطولات الشعوب حين ارتبط سقوط الإمبراطوريات وصعودها بمدى ثبات الحَدْواتِ تحت الحوافر، مانحةً الفعالية والمرونة للأحصنة و الكفاءة في القيادة للفرسان ؟

والمسمار، إلى كونه صانعَ حضارة، فهو عنصرٌ من مادّة ثقافتنا الأدبية، فلو شاء المرء منّا التندّر ذكر مسامير جحا، وإن شاء التهكم ذكَر مسامير المائدة أو شاء الهجاء ذكَر مسامير عبد اللّه النديم، وإن شاء النهاية والفناء ذكَر مسامير النعش والتابوت...و قس على ذلك في كلّ شؤون النّاس؛ ولكنّ لمسامير هذا الكُتيّب شأنا آخر مرتبطا بفضاء التواصل الاجتماعي، وإن كانت محتفظة بوظيفتها الأزلية، إنّما دون ساعِدٍ ومطرقة !

إبراهيم أوسلّيم